

dar alca
مكتبة سومر
19.8.2017
علي بدر
الكذابون يحصلون
على
كل شيء
ألكا

رفع يده النحيفة والقوية مثل يد حطاب، وقال: "الكذابون يحصلون على كل شيء". كان جالساً على أريكة قديمة من الجلد الأسود، وقدماه على سجادة تركية حمراء غطاها الغبار بسبب الأقدام المتسخة. "ماركس قال هذا..." أردف بصوت خافت وهو يطلق دخان سيجارته في الهواء.

يسمونه الاستاذ، لأنه كان معلماً في الأرياف في بلده العراق، في الموصل، وقد وصل هنا طالباً اللجوء السياسي من السلطات، مدعياً أنه كان شيوعياً في الماضي، وقد تعرض للاضطهاد، ولكنه لم يحصل عليه، ببساطة لأنه لم يثبت أنه سياسي في أي يوم من الأيام، سوى إصراره على تلفيق جمل لم يقلها ماركس بحياته أبداً.

وعلى الرغم من أمر الشرطة الصريح بترحيله خارج البلاد إلا أنه لم يغادر وبقي متخفياً بأوراق مزيفة وباسم مزيف هو أمين، مع أن اسمه الحقيقي هو جورج، لم يستخدم أياً منهما على الإطلاق، بل عرف بالأستاذ، بين أصحابه، وحتى مع المجموعة الغبية التي عمل معها في التهريب.

فبسبب عدم قدرته على العمل القانوني انتهى به الأمر إلى العمل في التهريب مع عصابة غير محترفة أبداً، وكان يقول لهم إنه من عشيرة عراقية تدعى التنانين الضاحكة، تقطن قرب الآثار الآشورية في الموصل، وإن والده كان مسيحياً جوالاً بلا إنجيل، وأمه كانت بدوية، غير مسلمة، تملك جملاً.

وأنه نشأ في منزل قزم عجوز، لا دين له، وإنه عاش بلا اسم ولكن إحدى السيدات البدينات أخطأت ونادته باسم أمين! لا يعرف هو لماذا نادته به، وهكذا سار عليه وأصبح هذا الاسم أسمه، بينما كان يفضل أن يسمونه أي شيء غير هذا الاسم، أست الفأر مثلاً، ذيل الثعلب، خرطوم الفيل! أي شيء. أما عن مهنته فإنها الأكثر سوداوية، فقد قال لهم إنه أراد أن يعمل فيما مضى كمروض للأسود، إلا أنه انتهى به الأمر أن يصبح لاجئاً.

الكذابون يحصلون
على كل شيء

الكذابون يحصلون على كل شيء

The Liars Get Everything

علي بدر

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017
First Edition: Beirut - Lebanon 2017



لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
DAR ALRAFIDAIN@maassourati



دار ألكـــا
بلجيكا/ بروكسل
ssée de Haecht 57, 1210, Bruxelles/Belgium
العراق/ بغداد / محلة جديد حسن باشا
www.daralca.com / info@daralca.com

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 285 - 1

رواية

الكذابون يحصلون على كل شيء

علي بدر





الفصل الأول:

ما لم يقله ماركس فعلاً

من أوراق جلال

الورقة 1

ليس للمجموعة قلب واحد يخفق. لكن اللغة توحدهم على إيقاع كلمات بعيدة، وألحان جنونية. في أعماقهم هذا الفراغ الكبير، نافذة بلا أكرة تصطفق. ريح تصفر، وطواط يلامس وجوههم. والقلب يخفق، ويخفق، ويخفق. عماذا يبحثون؟ لمَ لا تفكر بهم العاصفة، ولا المدينة، ولا الأبواب، ولا الفناءات.

ما الذي يوجد هناك، في الجزء الأسفل من المدينة؟

ـ شخص أطلق رصاصة على رأسه.

ـ أين؟

ـ في تلك الخمارة...

ـ شخص ما انتحر هناك...

ـ انتحر أم كان يلعب لعبة الموت؟

من النافذة فتاة تمشي وحدها في الليل. فتزدحم وجوههم على النافذة تبحث عن أمل ما. ابتسامة عابرة. عن بريق، عن ومضة.

وشرف أختي، قال ماركس!

رفع يده النحيفة والقوية مثل يد حطاب، وقال: «الكذابون يحصلون على كل شيء». كان جالساً على أريكة قديمة من الجلد الأسود، وقدماه على سجادة تركية حمراء غطاها الغبار بسبب الأقدام المتسخة. «ماركس قال هذا...» أردف بصوت خافت وهو يطلق دخان سيجارته في الهواء.

يسمونه الأستاذ، لأنه كان معلماً في الأرياف في بلده العراق، في الموصل، وقد وصل إلى هنا طالباً اللجوء السياسي من السلطات، مدعياً أنه كان شيوعياً في الماضي، وقد تعرض للاضطهاد، ولكنه لم يحصل عليه، ببساطة لأنه لم يثبت أنه سياسي في أيّ يوم من الأيام، سوى إصراره على تلفيق جمل لم يقلها ماركس بحياته أبداً.

وعلى الرغم من أمر الشرطة الصريح بترحيله خارج البلاد إلا أنه لم يغادر وبقي متخفياً بأوراق مزيفة وباسم مزيف هو أمين، مع أن اسمه الحقيقي هو جورج، لم يستخدم أيّاً منهما على الإطلاق، بل عرف بالأستاذ، بين أصحابه، وحتى مع المجموعة الغبية التي عمل معها في التهريب.

فبسبب عدم قدرته على العمل القانوني انتهى به الأمر إلى العمل في التهريب مع عصابة غير محترفة أبداً، وكان يقول لهم إنه من عشيرة عراقية تدعى التنانين الضاحكة، تقطن قرب الآثار الآشورية في الموصل، وإن والده كان مسيحياً جوالاً بلا إنجيل، وأمه كانت بدوية، غير مسلمة، تملك جملاً. وإنه نشأ في منزل قزم عجوز، لا دين له، وإنه عاش بلا اسم ولكن إحدى

السيدات البدينات أخطأت ونادته باسم أمين! لا يعرف هو لماذا نادته به، وهكذا سار عليه وأصبح هذا الاسم اسمه، بينما كان يفضل أن يسمّوه أيّ شيء غير هذا الاسم، است الفأر مثلاً، ذيل الثعلب، خرطوم الفيل! أيّ شيء. أما عن مهنته فإنها الأكثر سوداوية، فقد قال لهم إنه أراد أن يعمل فيما مضى كمروّض للأسود، إلا أنه انتهى به الأمر أن يصبح لاجئاً.

* * *

جلال وحده الذي يعرف أن الاستاذ ليس ماركسياً حقيقياً، بل هو خليط من كل شيء، متدين ومهرب، شريف وخاطئ، نبيل وكاذب، ولكنه غير محظوظ بالمرة، والأكثر من هذا أنه لا يعير الأفكار أهمية على الإطلاق. ولكنه إذا أراد أن يؤكد شيئاً على أنه حقيقة يقول:

«ماركس قال هذا، واللّه وشرف أختي ماركس قالها».

ـ ماذا؟ قال له جلال مستغرباً، وكان يريد أن يعرف فيما إذا كان ماركس قال فعلاً هذه الجملة أم لا.

قال لجلال مؤكداً، وبشيء من الغضب أيضاً: «قلت لك ماركس قال هذا... وشرف أختي قالها».

ـ أين؟ لم أسمع بهذا أبداً؟

ـ هل كنت مع ماركس حتى تعرف كل ما قاله في حياته؟

ـ لا، ولكن هذه جملة ممكن أن يقولها آل باتشينو في فيلم من أفلام هوليوود وليس ماركس...!

ـ اسكت! أنت تدعي دائماً بأنك أفهم شخص، هنا، في هذا المكان، وهذا يثير حنقي حقاً...

لفظ الأستاذ هذه الجملة بحدّة وتوتّر، أسكتت جلالاً الذي كان منشغلاً بإصلاح راديو قديم، مغطى بغطاء بلاستيكي رخيص أحمر اللون، وقد اسودت مفاتيحه من طبع الأصابع غير النظيفة عليه.

لم يرق له أن جلالاً غير مصدق له، فنهض من مكانه، متصنعاً تذكر الحادثة:

ـ اسمع قالها ماركس لإنجلز... على ما أتذكر... ربما كان يتحدث معه عن ثورة 1848، لا أعرف بالضبط أين قرأت هذا ولكني متأكد!

قال الأستاذ هذه الجملة وقد بدا واثقاً بشكل أعمق إلى درجة أن جلالاً لم يفتح فمه، ولكن المصارع الأصلع والذي تغطي يديه وشوم كثيرة، وهو في العادة لا يتدخل في هذه الأشياء، حين سمع الرقم، ظنهم يتحدثون عن المال، فسأل:

ـ «كم؟» قال له الأستاذ:

ـ اسكت أنت حمار حتى لا تعرف من هو ماركس.

ـ بلى أعرفه...

ـ أنت لا تعرفه لا تكذب...

ـ أعرفه لديه لحية تشبه لحية الحاج فؤاد!

* * *

الحاج فؤاد شاب مغربي، في الثلاثين من عمره، عمل مهرباً للحشيش لفترة طويلة، كان يقطن في منزل قريب من منزلهم. ألقي القبض عليه قبل أعوام وأودع السجن، بتهمة السرقة، ثم اكتشفت الشرطة أنه مهرب للحشيش أيضاً.

وفي السجن التقى بأحد المتعصبين السجناء الذي كانت له علاقة بالجماعات الإسلامية، وأصبحا صديقين. وأقنعه هذا المتعصب بترك تجارة المخدرات والتحول إلى الدين، فصار سلفياً بلحية طويلة، وملابس أفغانية، وسمى نفسه أبا دجانة على اسم الصحابي أنس بن خرشة الأنصاري، غير أن المصارع كان يسميه أبا دجاجة.

* * *

أبو دجاجة الغاضب دوماً قد كفر هذه المجموعة من المرحين في ذلك الوقت مرتين، المرة الأولى في رمضان، والمرة الثانية في العيد.

لقاء في الشارع

كان نهاراً ماطراً في بروكسل، وقد بدا مشهد المدينة، في ذلك اليوم الشتوي البارد، من خلال نافذة الشقة التي تقع في حي المهاجرين كئيباً، رمادياً، ورطباً. بل بدا كل شيء في المشهد قد سبح تماماً بالماء: المحلات، الشوارع، وجوه العابرين، السيارات، الأشجار، مكبات الزبالة، كراسي الخمارات المنصوبة على الرصيف، أما النساء اللواتي يرتدين المعاطف المطرية ويحملن المظلات، فكن يمشين بهدوء ليصلن إلى محطة مترو البورت دو نامور من جهة جادة إكسل، بينما يركض الآخرون ويحتمون بالأفاريز ومظلات المحلات في محلة بونيفاس.

* * *

نهض جلال من مكانه، ارتدى جاكيت سوداء سميكة، كانت قد أهدتها له عاملة إغاثة قبل عام، وقال إنه خارج من المنزل سيعود إليهما في الليل.

ـ إلى أين؟ سأله الأستاذ ظناً منه أنه غضب بسبب الاختلاف حول مقولة ماركس التي ألفها في تلك اللحظة.

ـ لديّ موعد في الخمارة الروسية... قال جلال.

ـ هه‌ه... انتبه جيداً على نفسك من الأوغاد.

ـ طيب.

قبل أن يخرج جلس جلال على الأريكة وارتدى جواربه الصوفية على

حذاء من ماركة (إتش أند إم) اشتراه قبل عامين من أرخص محل في جادة إكسل، يقع هذا المحل قرب محل البيتزا الذي تعرف فيه على الأستاذ.

وقبل أن يخرج ترك خمسة أوروات على الطاولة ثم التفت إليهما مسلماً بقبضته، رفعا القبضتين له دلالة على القوة، فتح الباب وأغلقه وراءه، فسمعا صوت أقدامه على السلم.

* * *

الواقع كان جلال قد تعرف إلى الأستاذ قبل عامين، حينما اشترى قطعة بيتزا نابوليتاني بثلاثة أوروات من محل بيتزا هوت القريب من مكتب البريد ومحلات (أج أند إم) السويدية للملابس في جادة إكسل، الجادة التي تؤدي إلى ساحة فلاجيه حيث عاد توّاً من مكتب المساعدات الاجتماعية، وقد شعر بالجوع وهو في الطريق إلى منزله. حين مر من المكان شم رائحة البيتزا الساخنة التي تنبعث من القطع الموضوعة في صوانٍ كبيرة تحت نار هادئة، خارجة من كشك صغير في مقدمة المطعم، وهنالك عاملة ترتدي شعار المطعم وتبيع البيتزا على شكل قطع، بثلاثة أوروات للمشاة والعابرين في الشارع.

توقف جلال أمام المحل. كان قبله في الدور شابتان بلجيكيتان ترتديان الجينز وتتحدثان باللغة الفلامانية، لغة الجماعة الإثنية التي تقطن شمال بلجيكا، وعند البائعة شابة في الثلاثين من عمرها من أصول أفريقية لها مؤخرة كبيرة، تشتري البيتزا وهي تتكلم بالتلفون بالفرنسية من دون لكنة. ولكن بصوت عال أزعج الجميع. وإلى جانبه شاب نحيف، أسمر، لا يعرف أين رآه فيما مضى.

* * *

نظر إليه بطرف عينه ليتفحصه، من الأعلى للأسفل، كان هو الأستاذ ذاته، له وجه أسمر بشاربين رفيعين وعينين ذكيتين. عمره لم يتجاوز الثلاثين بعد، يرتدي ملابس أنيقة جداً. اشترى هو الآخر بيتزا أربياتا من البائعة، نقدها ثلاثة أوروات، وتسلم القطعة ملفوفة بالكلينكس، رفعها بيده وأخذ يقضم طرفها بأسنانه، بينما تعلقت قطعة من الجبن الحارة في شفته حركها بأصبعه وأعادها إلى فمه، في تلك اللحظة نظر أحدهما إلى الآخر، فابتسما في وقت واحد.

ـ أين رأيتك من قبل...؟ قال الأستاذ ولقمة حارة في فمه يديرها من جهة إلى أخرى ويسمح للهواء بالدخول إلى فمه لتبريدها.

ـ لا أعرف وكأني أنا أيضاً رأيتك فيما مضى! قال جلال.

ثم تذكره الأستاذ:

ـ تذكرت رأيتك في مكتب اللاجئين!

ـ آه نعم أنا أيضاً تذكرتك كنت تثير المشاكل مع المسؤولين...

لم يعلق الأستاذ على جملة جلال ولكنه سأله وهو مستمر في الأكل:

ـ هل قطعة البيتزا التي عندك لذيذة؟

ـ آه نعم إنها لذيذة!

ـ ما نوعها؟

ـ نابوليتاني

نظر إليه الأستاذ وقال جاداً:

ـ أعطيك عضة وتعطيني عضة؟

قدم لجلال قطعة البيتزا ليقضم منها، بينما قضم من جلال قطعة صغيرة وقال بصوت مسموع:

ـ أممممممم إنها لذيذة أفضل من التي عندي، الأربياتا لاذعة وأنا غير متعود على الطعام اللاذع لا أعرف لمَ أخذتها، كان عليّ أن أعرف أن كل شيء فيه عرب نهايته سيئة.

ـ أعرض عليك صفقةً! قال الأستاذ لجلال.

ـ ما هي؟ قال جلال وهو مستمر أيضاً بالأكل وبمسح فمه بالكلينكس.

ـ أعطيك قطعة البيتزا خاصتي مع أورو وتعطيني القطعة خاصتك... وأخرج أورو من جيبه وأراه على راحة يده لجلال.

ضحك جلال ومن دون تردد أخذ الأورو ووضعه في جيبه، ثم تسلم الأربياتا، وناوله قطعة النابوليتاني، وأخذا يأكلان وهما يسيران معاً.

ـ هل حصلت على اللجوء؟ قال المعلم لجلال وهما يعبران الشارع باتجاه ماتونغه حي الأفارقة في إكسل.

ـ نعم!

ـ آه يا لك من محظوظ! ثم ركضا قبل أن يشتعل الضوء الأخضر متفادين سيارتين واحدة فيات، والأخرى مرسيدس سوداء قادمتين بسرعة، ومتجهتين إلى الشمال.

ـ وأنت؟

ـ لا، في الواقع رفض طلبي، وأنا إلى الآن من دون أوراق رسمية، ولكني تدبرت حالي.

ـ كيف؟

ـ بأوراق مزيفة.

ـ آه أين؟

لم يجبه الأستاذ، ولم يقل له إن هنالك تركيّاً في كولونيا يعمل في تزوير الأوراق الرسمية، وقد زوّر له هوية وجواز سفر، بهما فلت من الشرطة عشرات المرات.

* * *

عبرا الشارع حيث وصل الأستاذ قريباً من منزله، جمع ورق الكلينكس الذي كان يمسك به البيتزا بيديه، مسح به فمه، وذهب ليرميه في الحاوية، كانت هنالك قطتان قريبتان من المكان تنظران بحذر إليهما، ومجموعة من علب البيرة الفارغة الساقطة إلى جانب الحاوية. حيث يبحث سكران عن بعض القناني ليبيعها ويشتري بدلها الكحول من الدليز، السوبر ماركت القريب من البوتانك.

حين عاد الأستاذ إلى جلال قال موجهاً الكلام له، وقد أشار إلى القطتين الرماديتين.

ـ هاتان قطتان مسلمتان.

ـ ماذا؟

ـ أقول لك هاتان القطتان مسلمتان، خرجتا من منزل ذلك المغربي، وذلك الهر هل تراه؟

ـ الهر؟

ـ نعم ذلك الهر...

أشار بيده إلى زاوية الشارع حيث كان يقبع هر نظيف وجميل...

ـ ذلك مسيحي يعود لمنزل البلجيكي المقابل لبيتنا.

ـ القطط هنا متسامحة جداً، لا يهمها مسيحي أم مسلم فقد سمحت

هذه القطة المسلمة لذاك الهر مرة بركوبها شاهدتها بعيني... إنهم أفضل من البشر ثم بصق على الأرض.

ركض الأستاذ ليصعد السلم إلى شقته، بينما ركب جلال الباص متجهاً إلى السنتر حيث البار الذي يلتقي فيه بعض المشاغبين الروس.

بار الزعران الروس

هبط جلال من السلم فصار في باب العمارة في شارع دولابيه، في ماتونغه، وهو حي الأفارقة من ضاحية إكسل في بلدية بروكسل، وقد سمي على اسم حي صغير في كينشاسا، وقد قطنه الطلاب الأفارقة في الخمسينيات، وأنشئت فيه بعض الدوائر الاستعمارية.

سار على الرصيف وهو يرد ياقة جاكيته على عنقه حيث نسمة باردة تلفح وجهه، وحين نظر إلى اليسار شاهد في الزاوية كيساً أسود تظهر منه علب بيرة فارغة، وعلى الرصيف، أمام البقالة التي تبيع مواد المطبخ الأفريقي، خراء كلاب قوية الرائحة. ثم سمع سعلة غامضة خلفه وهو يعبر الشارع إلى الجهة الأخرى، وامرأة تتكلم في الموبايل.

سار جلال على هذا الرصيف حيث سار فيما مضى الخدم السود القادمون من المستعمرات الكونغولية بوجوه حزينة وقلوب يملؤها الغل. توقف قليلاً، أخرج علبة سجائره، تناول سيجارة ووضعها في فمه، أشعلها ونفخ الدخان في الهواء. كان يفكر بأشياء عديدة، الشيء الأول هو عبارة الأستاذ التي لفقها لماركس، ومن ثم تساءل ما الذي يعرفه الأستاذ عن ثورة 1848، حيث تذكر أنه قبل أيام قد ذكر عرضاً هذه الثورة أمامه، وهكذا فقد أعادها عليه وبهذه الطريقة البهلوانية... ابتسم، لم يكن الأمر يغيظه قدر ما يجعله يبتسم ويتسلى. وحين صار أمام منزل الطلاب الأفارقة المتأثرين بباتريس لومومبا والذين سكنوا هنا في هذه الدار القديمة التي تطل على شارع وافر، قال في نفسه:

«ربما كان هنا باتريس لومومبا نفسه أيضاً، كان هنا في هذا المكان، وربما قرأ في الخمارة هذه، أو هذه أو هذه... البيان الشيوعي لماركس! وربما سكن أيضاً قاتلوه ذوو الرؤوس الشقر والعيون الزرق أو الخضر في هذا المكان أيضاً! وقد ترددت إلى هنا حتماً نساء الموظفين الاستعماريين في «بيت التدريب» قبل التحاقهن بأزواجهن في المستعمرات».

ـ كلهم كانوا هنا! هكذا قال جلال في نفسه وهو يسير في هذا الشارع:

«الباحثون الأوروبيون عن العاهرات السوداوات، طالبو الحشيش، سارقو الطعام، السكارى، الهيبيون، وربما حتى ماركس قد جاء في القرن التاسع عشر إلى هنا، حين التجأ إلى بروكسل ليكتب الجزء الثالث من كتابه رأس المال...».

ـ آه لو يعرف الأستاذ منزل ماركس القديم حيث قطن بروكسل ليكتب «رأس المال»، وحيث خان جيني زوجته مع خادمته... لقرع رؤوسنا بهذه المعلومة، فهو كلما سمع شيئاً عنه، ردده أمامنا مثل الببغاوات! كأنه يريد أن يثبت لنا، لا للشرطة، أنه كان سياسياً وملاحقاً في بلده. ولكنهم وجدوه الشخص الأبعد ما يكون عن هذا الأمر، فهو يمكن أن يكون أيّ شيء إلا أن يكون سياسياً، فرفضوا أن يعطوه اللجوء السياسي، ولكنه ومنذ ذلك اليوم أخذ يردد أيّ عبارة مهما كانت، ويقول:

«ماركس قالها».

* * *

رأى جلال وهو يسير في الحي، تدفق الأفارقة يوم السبت، تدفقهم من مولات كبيرة، دخولهم إلى مقاهٍ تشبه تلك الموجودة في القارة البعيدة،

مطاعم أفريقية تنبعث منها رائحة شواء اللحم، متاجر للمجوهرات، صالونات حلاقة للنساء حيث تقوم واحدة بضفر الشعر مثل حصيرة، محلات بقالة الكاسفا والباميا اليابسة والزوان... وصحف تتحدث مانشيتاتها عن ارتفاع نسبة الجريمة في ماتونغه، عن عمليات الاعتداء على الشرطة، وأجواء عنف ودعارة ومخدرات.

عبر الشارع إلى البور دو نامور، حيث كانت السيارات متوقفة في الطريق والقطط نائمة خلف إطاراتها تراقب الأحذية التي تمر، تراقبها بحذر وكسل وبتسلية أيضاً، الأقدام، البنطلونات، والسيقان الهابطة من التنورات التي تسير بثبات في هذا الشارع.

ذهب إلى الرصيف الآخر كان هنالك شخصان أفريقيان يتخاصمان، أحدهما يرتدي قبعة كوبوي والآخر كاسكيت أمريكي أشبه بلاعب بسبول، وعلى مقربة منهما شخص يعزف على الغيتار أغاني الرغي لبوب مارلي وقد فرش كوفية على الأرض لتلقي الصدقات.

في الزاوية سكران شبه نائم قربه قنينة كحول. صلاة جماعية في الكنيسة، شاحنة بيك آب تحمل أثاثاً شبه متداع تقف أمام عمارة من ثلاثة طوابق، وعلى البلكونة أطفال سود يراقبون، وأيديهم على حبل غسيل، علقت عليه كالسونات، سوتينات، وقمصان نوم.

ترك جلال ماتونغه وراءه وانطلق نحو السنتر، متوجهاً إلى البورصة حيث يقع بار المشاغبين الروس، أو كما هو اسمه بالفرنسية والذي تحمله اليافطة المعلقة على الباب:

بار مثيري الشغب الروس «Bar des loubards russes»

قرر أن يذهب إليه، ليتكلم مع فلاديمير الذي سيجده وحيداً، كما

هي عادته، جالساً أمام الفاترينا مباشرة، يحدق في المارة، يشرب الفودكا الروسية القوية ذات الرائحة اللاذعة، ويأكل معها شرائح الليمون والملح.

* * *

كان جلال قد تعرف إلى فلاديمير في كمب اللاجئين، قبل عامين تقريباً، وبعد شهر من تعرفه إليه، ضرب فلاديمير أحد الأفغان لكمة على عينه بسبب خصام على التلفزيون الموضوع في البهو، فنقلوه ـ أي الأفغاني ـ إلى المستشفى والدم يملأ وجهه، بينما هرب فلاديمير من الكامب إلى منزل صديقته في السان جوس، قرب محطة مترو البوتانك، بعد أن أخبرت المشرفة الشقراء، مدام آن، التي كانت تكرهه إلى حد القرف، البوليس، بالحادث.

بعد يومين طرد فلاديمير من الكامب، فأخذ يسيح في شوارع بروكسل على دراجته النارية مثل مجنون، تكسبه هيئته سحنة مخيفة لكل من يراه، شعره الأشقر الطويل يشده بشريط أسود مخطط بالأحمر، الوشوم تغطي يديه وصدره كصور لنمر وأفعى وتنين، وكان يخبئ علبة المارلبورو من النوع الطويل في الكم، ويدس مسدساً بالبكرة محشواً تحت بلوزته الحمراء، إذ يضعه في رأس أيّ شخص لا يوافقه في الرأي، ولذلك كانوا يسمونه في كل مكان:

«فلاديمير الغاضب».

نحن والعصابة الألبانية

ـ فلاديمير... صرخ به جلال من وراء الفاترينا. كان اسم البار مكتوباً بالروسية في الداخل таверна российских хулиганов بالبويا الحمراء.

لم ينطق فلاديمير أية كلمة كان محدقاً في الفراغ بصمت أمام كأسه.

دخل جلال إلى البار فأصبح أمام النادلة ألكساندرا التي كانت تحمل الصينية، صدرها مفتوح يتدلى بين نهديها صليب ذهبي صغير. أرثوذكسية، قال جلال، مؤمنة وخاطئة كما كان دستيوفسكي في الزمن القديم.

قالت له بصوت خفيض:

ـ كلمه! وأومأت له برأسها دلالة على أنه غاضب.

كانت ألكساندرا تعرف جيداً أن فلاديمير لا يستطيع أن يكلمه أحد في ساعات غضبه سوى جلال. فابتسم لها دون أن يسلّم عليها كما كان يفعل كل يوم، على الرغم من حبه وتقديره الكبير لها، فهي تقنعه دائماً بألّا يشرب في الليل سوى التكيلا، تقول له إنه شراب سحري سيجعلك فحلاً حقيقياً في الفراش، دون أن تعرف أنه لا يملك سوى صندوق من المجلات الإباحية تحت سريره. وتقنعه أيضاً أن يرسم وشمين جميلين على ذراعيه، وأن يلعب الأثقال كي يرفع من قوة عضلات ساعديه وصدره، لأن النساء يحببن القوي وليس المفكر.

* * *

ـ فلاديمير... هل أنت بخير؟

نظر إليه فلاديمير وأعاد نظره في الفراغ دون أن ينطق بكلمة. فسحب جلال الكرسي وجلس أمامه، بينما جاءت له ألكساندرا بشت تكيله مع شريحة ليمون وملح.

قبل أن يتكلم بأيّ شيء، رفع شت التكيلا وعبأه كله في جوفه، دمعت عيناه ثم تناول الليمون، ووضع الملح على مؤخرة إبهامه، ولحسه بلسانه.

ـ هل أنت بخير قل لي...؟

ـ لا...

ـ لماذا؟

ـ لقد أثار غضبي...

ـ من هو؟

ـ هذا النغل!

ـ من منهم؟

ـ الألباني!

ـ أيّ واحد منهم.

ـ سارق التلفونات!

ـ قل لي ماذا فعل؟

ـ سرق تلفون صديقتي...

ـ كيف عرفت هو؟

ـ هي قالت لي!

ـ كيف وصل إليها؟

ـ تمشي في الطريق وقد خطفه منها.

ـ ابن النذل... قال له جلال.

نظر إليه فلاديمير بسرعة، عبّ كأس الفودكا كلّها في جوفه، وقال له:

ـ اسمع... تعال معي.

خرجا كلاهما من البار من دون أن يدفعا إلى ألكساندرا بنساً واحداً، حيث وقفت مضطربة تنظر إليهما وهما يخرجان من البار غاضبين، وهي تمسح بالفوطة البيضاء يديها. صرخ لها جلال بعد أن رأى اضطرابها:

ـ سنعود بعد قليل. فعادت هي إلى عملها، بينما خرجا بسرعة لفتت انتباه كل من كان في البار، وقد تجاوزا الرصيف الذي يحد البار حيث تصطف كراسي خشبية وطاولات مربعة، تظللها مظلات حمراء بلاستيكية، على كل طرف من أطرافها كتب اسم البار، وهنالك صوبات غازية مرفوعة على الجدار لتدفئة المكان حيث يجلس بعض الرواد الروس يدخنون ويشربون الفودكا بأقداح كبيرة.

فك فلاديمير السلسلة التي تربط دراجته الهوندا بلاك بيرد في وتد في الشارع، وأنزلها من الحامل الذي تقف عليه، خلع قبعة الرأس المربوطة على السرج الجلدي الأسود بواسطة سلسلة صغيرة أيضاً بمفتاح، وناولها لجلال كي يرتديها:

ـ خذ هذه! قال لجلال دون أن يلتفت إليه.

ـ وأنت لا ترتدي قبعة؟

ـ لا...

صعد فلاديمير على الدراجة بثقة حتى بانت عضلات ساعديه الموشومتين وهو يمسك المقود، رفع ساقه بالجينز واستقر على الدراجة، ثم أومأ لجلال أن يركب وراءه. صعد جلال خلفه ووضع قدميه على حاملين صغيرين قرب العجلتين، فاصطدمت بطنه بمسدس فلاديمير الذي وضعه على جنبه. أدار فلاديمير بقدمه عجلة المحرك بقوة، المرة الأولى، الثانية، صرخ المحرك بصوت صاخب وانبعثت في الفضاء رائحة بنزين محترق.

* * *

كانا طائرين في الشارع المؤدي إلى سكاربيك حيث بار العصابة الألبانية، الهواء يصم آذان جلال على الرغم من القبعة التي يضعها على رأسه، حيث كان فلاديمير يقود الدراجة بسرعة وتهور كبيرين، يخاطر بين السيارات وهو يتجاوزها، أوقفت قلب جلال أكثر من مرة. وقد كان شعره الأشقر الطويل الذي لم يغسله ربما منذ أسبوع يرفرف في الهواء مثل علم حتى يكاد يدخل في أنف جلال ويخنقه.

خفف السرعة ثم انعطف في الأفنيو دو روجيه وتوقف بسرعة وغضب عند بار صغير شبه معتم. مصابيحه الخارجية مكسورة، جدرانه مثقبة بالرصاص، وعلى الزجاج بقع داكنة.

ربط فلاديمير الدراجة بسلسلة بسرعة، ثم نهض متجهاً إلى البار، دفع الباب بقوة، وقد تبعه جلال، فأصبحا في الداخل.

كانت هنالك سحابة رمادية من الدخان تغطي المكان حيث يدخن الجميع هناك، دون أن يعبأ أحد بالقوانين التي تمنع التدخين في الأماكن المغلقة. أما الألباني سارق التلفونات فقد كان أمام ماكنة البوكر يمسك بيده كأس بيرة مضلعة، يشرب ويلهث كالكلب، كان يعوي بانتصار مطلقاً

ضحكات شيطانية، فقد ربح بعض الأوروات التي أنزلتها له الماكنة، دون أن يعلم أن فلاديمير وراءه.

أمسكه فلاديمير من كتفه وأداره نحوه بعنف. فكانا وجهاً لوجه، أخرج فلاديمير مسدسه بسرعة ووضعه في فم الألباني، حيث فك الأخير عينيه وفمه مرعوباً، بينما مسكه فلاديمير بقبضة قوية من شعره وهو يعض على فوهة المسدس. صرخت النادلة بقوة حينما رأت المسدس، فنهرها فلاديمير:

ـ اصمتي!

أخرج المسدس من فم الألباني، رفعه إلى الأعلى أطلق رصاصة على السقف جعلت الجميع يقعون على أربع، ثم أعاد المسدس إلى فمه حيث حرق له لسانه، فصرخ وهو يبكي ويتوسل بكلمات غير مفهومة بسبب المسدس.

في تلك اللحظة هرب اثنان من العصابة الألبانية من الباب بسرعة، من دون أن يرتديا معطفيهما اللذين بقيا معلقين على مشجب الباب. التفت فلاديمير نحو جلال وطلب منه أن يقف عند الباب لمراقبتهما لئلا يعودا بسلاح مثلاً، أو يقوما بتعطيل الدراجة النارية الموجودة في الخارج. ركض إلى الباب وتوقف هناك، تطلع إليهما رآهما وهما يسيران بسرعة، ولكن من طبيعة مسيرهما أدرك أنهما هاربان وليسا في سبيل العودة مرة أخرى لفلاديمير، وهو يمسك المسدس غاضباً، ويهدد به أيّ شخص يقترب منه.

طلب فلاديمير من الألباني أن يخرج التلفونات.

ـ أخرج التلفونات بسرعة وإلا سأفجر رأسك حالاً...

ـ نعم نعم...

ـ بسرعة فأنا غاضب جداً...

ـ أرجوك... هذه...

أخرج من جيبه تلفونين، تلفون صديقة فلاديمير الآيفون سفن، وتلفوناً آخر أل.جي. ثري أسود اللون.

تناولهما فلاديمير من يده بخشونة، تأمل الآيفون المنقوش عليه حرفان يرمزان لاسمه واسم صديقته، تأكد من أنه لم يخدش قط، قلبه بيده، فحصه ثم وضعه في جيبه، بعدها التفت إلى جلال، وناوله التلفون الآخر، الأل. جي. ثري الأسود، وقال له بصوت واثق:

ـ هذا لك...

دسه الأخير في جيبه، فرحاً. أنزل فلاديمير مسدسه ببطء إلى الأسفل وهو ينظر إلى الحانة المرتعبة بكل من فيها، تقدم نحو طاولة عليها كأس فودكا، تناولها وهو ينظر إلى الجميع وقد كانوا ينظرون إليه بصمت ورهبة، عبّ الكأس كلّها في جوفه، ابتسم لهم، قال لهم وهو فاتح يديه إلى الأعلى:

ـ هذا كل شيء...

أشار إلى جلال ليخرجا من البار بسرعة، خرج هو أولاً ثم خرج بعده جلال مبتهجاً، واتجها نحو الدراجة النارية المركونة في الخارج.

بعد خروجهما استعاد البار الحياة، ودبت الأصوات والحركة في الداخل، وعادت الأنخاب للطاولات، وعادت آلات البوكر ذات الأنوار والأرقام للدوران.

* * *

ركب فلاديمير وجلال الدراجة بسرعة، ركب فلاديمير أولاً بعد أن وضع المسدس بين محزم بنطلونه الجينز وخاصرته، ورد عليه البلوز الأحمر ليخفيه. ثم صعد وراءه جلال حيث اصطدمت بطنه ببكرة المسدس المحشو

تماماً ما عدا إطلاقة واحدة، ضرب بقدمه عتلة المحرك، فصرخ بقوة، وغطت سحابة بخار البنزين المحترق المكان، أدار المقود وانطلق في الشارع بعد أن انتظر الترام يعبر ببطء إلى الجهة الأخرى.

استدارت الدراجة في أفنيو روجيه منطلقة بقوة، وفي تلك اللحظة كانا يسمعان صوت صافرة سيارة البوليس قادمة من بعيد، ربما من جهة البوتانك، أو من جهة محطة قطارات الشمال، فمن الواضح أن نادلة البار قد اتصلت بهم بعد أن خرجا من البار، لذلك استدار فلاديمير مرة أخرى ليتفادى البوليس وأخذ يسير في الشوارع الفرعية، وقد شعر كلاهما بهزيمة أعدائهما.

* * *

ها هما ينطلقان في ليل بروكسل على دراجة نارية سريعة صارخين في الهواء وملوحين بقبضاتهما كعلامات انتصار.

الفصل الثاني:

الأستاذ، الوزير، وحارة السياسيين المنكوبين

من أوراق جلال

الورقة II

زمن يمر. عالم يتبدد، وينفرِطُ إلى لحظات. وأنت تتوقف لتلقي نظرة على شابة يلتصِق وجهها على زجاجة نافذة المقهى وهي تراقب المارة. يتجمع بخار أنفها وفمها على الزجاجة فتختفي ملامحها خلف ضباب الصورة. ضوء ينبثق من عتمة المقهى خلفها. عتمة الصباح في هذا الشتاء الأوروبي، كأنه إحساس غريب، خفيف الأثر مثل آثار قبلات على جسد.

- هل تلعب؟

- أي لعبة تقصد؟

- الروليت الروسية![1]

- هل تريد أن تموت!

ستعرف بثقة أكبر مَنْ أنتَ في هذا النهار القويّ البريق، بعد نهاية

(١) **الروليت الروسي** هي لعبة حظ مميتة نشأت في روسيا. يقوم الشخص الذي يود القيام بها بوضع رصاصة واحدة في المسدس، ثم يقوم بتدوير الأسطوانة التي يمكن أن تحمل ست رصاصات عدة مرات بحيث لا يعرف ما إذا كانت الرصاصة ستطلق أم لا، ومن ثم يوجه المسدس نحو رأسه ويسحب الزند. فإذا وضع رصاصة واحدة فإن احتمال موته هو 1 من 6، تستخدم اللعبة لعدة أسباب، منها الانتحار أو للحصول على المال. نشأت اللعبة في روسيا عندما لعبها الجنود الروس لإثارة بعضهم البعض. كما تعتبر لعبة الروليت الروسية إحدى وسائل المقامرة.

العاصفة وهديرها بين أشجار الصنوبر. وستخوض فيما بعد في الحلم لتستنشق العبير المنبعث من عالم جديد يولد وهو يخفق، يولد وهو يخفق، يولد وهو يخفق.

حارة السياسيين المنكوبين

كان الأستاذ واثقاً ثقة مطلقة بأن المرء على شاكلته لا يمكنه أن يشعر في حي لويز، بالسكينة أبداً. ولا سيما في القطاع الثاني من الأفنيو، وهي المنطقة التي تنحصر ما بين ساحة ستيفاني وغاليري لويز والإيفنت هول، وهو ما كان جلال يطلق عليه في ذلك الوقت التعبير التراجيدي المعبر:

«حي السياسيين المنكوبين».

إنما سيشعر من جراء ذلك بالتوتر، فهذا المكان يزدحم بشكل لا يصدق بدوريات الشرطة، وربما سيحدث وهو يمر بالقرب من الغاليري أن توقفه دورية هناك. وهكذا يتخيل الأستاذ، كيف يطلب الضابط الأشقر هويته، بعد أن يهبط من السيارة بسرعة، فاتحاً الباب بيد، ويده الأخرى موضوعة على حزامه:

ـ أرني أوراقك.

لن يكون للأستاذ أيّ خيار حينها.

ـ عفواً؟

ـ أرني أوراقك من فضلك.

ـ حسن!

وهكذا سيمد الأستاذ يده في جيبه مرتبكاً قليلاً، ومبتسماً بصورة لاإرادية، ومتصنعاً الهدوء بطبيعة الأمر، وسوف يقدم له، بيد غير واثقة، بطاقة الإقامة

الألمانية المزورة. فالاسم الذي عليها ليس اسمه، وتاريخ الميلاد المكتوب فيها مختلف تماماً عن تاريخ ميلاده، ومكان الولادة ليس في البلدان العربية، ما خلا الصورة التي أخذها له التركي في منزله، بكاميرا كانون دي سفن، فهي صورته.

لكن الأستاذ الذي يقف أمام الشرطي الأشقر بعينيه الزرقاوين لن يرى فيه الشرطي ذاته، إنما سيستحضر في الحال صورة جده. جده الضابط الذي خدم في الكونغو، أيام كانت هذه الأرض الأفريقية مستعمرة بلجيكية. وسيتخيل بلحظة واحدة، ذلك الجد البلجيكي بملابسه الكاكية، وخوذته الحديد، وبندقيته وهو يطلق النار على الأفارقة الهاربين أمامه، ويصطادهم كما يصطاد الأرانب المذعورة في الغابة.

هذا الجد لن يذبح القرية الثائرة فقط إنما سيطلق النار على الماعز، وعلى البقرة الوحيدة، وعلى الحمير الهاربة، وسيفجر قن الدجاج، وسيرمي الحجارة في آبار المياه، ومن ثم يعود إلى معسكره، أو إلى قصره الفخم، أفخم قصر في أفريقيا، وهو يغني أغاني الانتصار المجيدة. تلك الأغاني التي تمجد الحضارة، والإنسانية، والحداثة، والعرق الأبيض.



قال له جلال:

ـ لويز هي مأوى كل السياسيين المنكوبين في العالم.

ـ ماذا يعني؟

ـ تريد أن تعرف؟

ـ بحياة أمك تقول لي ما معنى هذا، لقد أحببت هذه الجملة.

ـ ههههه... ضحك جلال... ذهب ليجلب علبة بيرة هانكن من الثلاجة.

ـ اسمع... كل السياسيين الذين تطيح بهم الانقلابات العسكرية، أو الثورات الشعبية، أو الانتفاضات المسلحة التي تحدث غالباً في العالم الثالث، يأتون للسكن هنا في لويز.

ـ ما معنى السياسيين المنكوبين إذن؟

ـ السياسيون الذين تطيح بهم الانقلابات العسكرية بطبيعة الأمر.

ـ يا له من تعبير جميل!

شعر جلال بالزهو أمام الأستاذ وهو ينقل له هذه المعلومة والتي يخطط أن تكون عملية... عملية جداً.

ـ ألم أقل لك: عليك أن تستفيد من وجودي معك!

كانت الغيوم تغطي سماء مدينة بروكسل فجعلت الجو كئيباً، مملاً معتماً قليلاً. وكانت الشوارع غارقة في ضجيج السيارات العائدة إلى الكراجات في منازل وعمارات الضاحية القريبة من مركز بروكسل. أما الناس ففي تلك الساعة من آخرة النهار كانوا يقاومون الملل بأعمال مختلفة، مثل:

الجنس، شرب البيرة، التسوق، لعب الورق، السياسة، جمع المال... بينما جلال والأستاذ، كانا منتبهين جداً، كانا متيقظين إلى أبعد حد، مثل شخصين جبارين يخططان لأكبر عملية سرقة في أوروبا، أي سرقة «مليون دولار»!

ـ أعتقد أنها تحدث في كل مكان.

ـ ما هي؟

ـ الانقلابات...

ـ ظننتك تتكلم عن المال! قال جلال مستغرباً من أن الأستاذ ترك موضوع المال، وانشغل بقضية الانقلابات وأماكن حدوثها.

ـ ألم تحدث في أماكن أخرى من العالم...؟

ـ الأفضل أن نخطط للمليون... فالشخص الذي لا يقامر كثيراً يتبلد عقله، عليه أن يقامر، يخسر المال، يسرق، يعاشر النساء، يشرب الخمرة، يخطط... حتى وإن خسر! أن تخسر واحداً من سبعة، هذه مهمة ليست شاقة جداً! لكن أن تتحمل الحياة هكذا من دون أيّ خسارة أمر لا يمكن احتماله...

ـ أنا أكره الناجحين! قال الأستاذ.

ـ أنا أيضاً لا أحبهم... خصوصاً إذا كنت أنا الخاسر أمامهم.

ـ لكنك لم تجبني عن سؤالي ألا تحدث الانقلابات في أوروبا من قبل؟

ـ لا لا لا... بدأ مسلسل الانقلابات المرعب في العالم الثالث...

لقد أجبر الأستاذ جلالاً أن يأخذ هذا السؤال بجدية أكبر، شعر أنه لن يتركه بسلام من دون أن يعرف الإجابة.

ـ متى؟

ـ أيام الحرب الباردة...

ـ ولكن الانقلابات تحدث في كل مكان حتى ماركس قال مرة عن هذه الانقلابات شيئاً...

ـ ماذا قال؟

ـ لا أتذكر بالضبط... ولكني قرأته في مكان ما...

وقبل أن يقول الأستاذ أيّ جملة لماركس قاطعه جلال بصورة حازمة...

ـ لا لم يقل ماركس بخصوص هذا الأمر أيّ شيء، وأنا أتكلم معك عن الحرب الباردة، بعد ماركس بكثير، ولم تكن في زمنه، إنك بهذه الأشياء تحولني إلى مجنون يا رجل... ركز معي أرجوك ماذا دهاك!

كان جلال يشرح للأستاذ ظهور الوزراء العرب المنكوبين في حي لويز، بعد الثورات العربية، محاولاً إقناع الأستاذ بفكرته، وهي الاستيلاء على مليون مسروق ومهرب من قبل أحد الوزراء المنكوبين. بينما كان الأستاذ منشغلاً تماماً بالانقلابات وأين حدثت وماذا قال عنها ماركس.

ـ ولكن ماذا نفعل بالمليون، ألا تراه رقماً كبيراً؟

ـ نعطيه للاجئين السوريين والعراقيين في المخيمات... قال جلال.

ـ كله؟

ـ لا ليس كله... أكثره...

ـ ولكننا أيضاً لاجئون...

ـ لاجئ عن لاجئ يختلف...

ـ عندك حق!

* * *

وضع جلال صحنين من المازة أمام الأستاذ، صحناً من الزيتون الأسود المشرح الذي اشتراه من دكان سوري في مادو، والآخر من البسكويت المالح والمبهر بالباريكا الحمراء.

تناول جلال زيتونة من الصحن، وهو يتكلم مع الأستاذ، ووضعها في فمه، تحسس طعمها الحاد قليلاً، سطحها الناعم المزيت، لعب بها بلسانه قبل أن يلتهمها ويبصق النواة في يده ويضعها في صحن أبيض صغير على المائدة. كانا تحت ضوء المصباح الوحيد المعلق في السقف، تراقبهما فأرة صغيرة أطلت برأسها من ثقب في الأرضية الخشبية، نظرت إليهما وخبأت رأسها،

كما كانت تراقبهما أيضاً بعض العناكب الموجودة على الجدار، والمتجمعة في ذلك اليوم بالقرب من النافذة المغلقة والتي تحجبها الستائر المسدلة.

ومن بعيد كانا يسمعان نباح كلبة جارتهم البولدوغ البيضاء التي أهداها لها صديقها السويدي قبل أن يتركها منذ عام.

استمر جلال بالحديث: هم يقطنون كل الشقق الفارهة المقابلة لساحة ستيفاني. ليس الوزراء العرب فقط إنما جميع الحكومات التي أطيح بها في العالم الثالث. هنا أكبر تجمع رئاسي في العالم.

ـ شيء رائع... ألا نستطيع أن ندخل في هذا العالم... سنصبح أثرياء أليس كذلك؟ قال الأستاذ وهو يشرب قليلاً من البيرة، وهذه عادته في الشرب، فهو يشرب قليلاً قليلاً، لكي يستمتع بالبيرة لأطول فترة ممكنة، بينما يشرب جلال بسرعة أكبر.

وفي الخارج كانت شلالات المطر تنهمر وتتسرب إلى الشارع من بعض المزاريب المكسورة.

ـ هذا المكان آوى من قبل كل الرؤساء المطاح بهم في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات.

مسح فمه بالكلينكس بهدوء ونظر إليه، فقد وجده منشغلاً بتفسير جملته. بل كان غارقاً في خياله عن هؤلاء الرؤساء في العالم الثالث وكيف أطاحت الانقلابات بسلطاتهم الكثيرة، بامتيازاتهم التي لا حد لها، بأموالهم، بنسائهم وموائد قمارهم. بمآثرهم التي لا تعد عن تدمير مدن كثيرة، وقرى صغيرة، وغزوها بجيوشهم التي تشبه العث. ساعدتهم في ذلك الوقت الشركات الرأسمالية العملاقة ومخابرات الدول الغربية.

آه هنا في كل شبر من هذه الأرض، مزيج من أجساد المعارضة المهشمة

وجدران المنازل المهدمة، بين سقوف الصفيح والألمنيوم عدد لا حصر له من الرؤوس والأيدي والأرجل، مخلوطة بأسلاك الكهرباء والتراب ومواسير البلاليع. المعارضون قتلوا وسويت أجسادهم بالأرض أما نساؤهم فقد هربن على متون بواخر صغيرة وعبرن المتوسط مع أطفالهن، حتى وصلن إلى الغرب... في تلك البلدان البيضاء تكومن في ملاجئ وكامبات لسنوات يأكلن قليلاً من الرز والحساء الساخن، قبل أن يتكرم عليهن رجال الشرطة الذين أسهموا في قتل أزواجهن ومنحوهن اللجوء.

* * *

ـ يحصلون على اللجوء؟

ـ هم يحصلون عليه بسهولة ههههه... هم يلطشون الأموال ويقيمون هنا لتبديدها... ليس هذا هو المهم يا رجل!

ـ يعني يمرون بمراحل اللجوء...؟

ـ أكيد لفترة قصيرة... ولكن بعدها يستعيدون حياتهم السابقة...

ـ كيف يعني؟

ـ يعيشون حياة لوكس... هم وعائلاتهم... لديهم أموال كثيرة... أموال ملطوشة من الخزينة، وتقوم شركات خاصة بتوصيلها لهم إلى بلجيكا.

مد جلال قدميه إلى الأمام ليضعهما على الطاولة. تناول علبة البيرة وأخذ يصب لنفسه كأساً من علبة الجوبلير بينما كان الأستاذ يشرب الهانكن. فقد أثارت صورة السياسيين العرب المنكوبين الذين يقطنون هم وعائلاتهم الشقق الفارهة في حي لويز إلى الواجهة، شهيته، بأن يقوم بعملية ما تجعله ثرياً لما تبقى من كل عمر له في أوروبا. لقد تذكر حياته في بلده،

وهو يعيش كما لو كان في زنزانة واسعة، حمامات قذرة، خالية من الصابون، ورجال حفاة، صعاليك يحتشدون في الليل على قنينة خمر، ولا ينامون إلا على صيحات الحراس ونباح الكلاب. كانت لديه الرغبة تلك اللحظة بأخذ حقه من الصراخ، وسبّ الحكومات وشتم أمهاتهم.

التخطيط للعملية

في اليوم التالي كان جلال في شقته في السان جوس، ومعه الأستاذ، وصديقته دلال تجلس على الأريكة تضع ساقاً على ساق وهي تدخن سجائر تلفها من كيس في يدها. على جدار المنزل لوحة لبابل. نوع من الخرائب الصامتة، وهنالك عراقي يمر بها على حماره دون اكتراث، العراقي يبدي عدم اكتراثه بهذه الإمبراطوريات الهشة التي أقيمت على ترابه والتي زالت وما زال هو يكافح الطبيعة من دونها، فهو يشم شذا النباتات الصحراوية، والزهور التي تكسو الخرائب، ويعيش تحت السماء العارية الزرقة، ويعيش في النور الذي يدوم بين أكوام الحجارة.

جلس الثلاثة وسط مهرجان عارم بالمسروقات والأشياء التي لا نفع فيها والتي ترميها الناس من وقت إلى وقت، وتتخلص منها:

مكواة كهربائية، تحفيات خشبية، أسطوانات مشخوطة، حشيات أسرّة قديمة، حقائب جلدية عتيقة، مفاتيح صدئة، أقلام، ملابس مستعملة، قدور ألمنيوم، وأوانٍ نحاسية، كتب، أحذية، مجلات، وأشياء عديدة لا يمكن تصنيفها. لأنها قطعة من ماكنة أو آلة أو من شيء عتيق لم يعد من الممكن التعرف على كنهه.

ملاحظة الأستاذ الوحيدة هو أن على جلال أن يتخلص من كل هذه الأشياء التي تجذب الحشرات والقوارض، وأنه منذ أن فقد دراجته، التي سرقها الأتراك منه، لم يعد يفكر بمصيره الشخصي، إنما بمصير الجنس

البشري، فالدراجات تجعل البشر يفكرون بحياتهم أكثر من الذين لا يملكون دراجات نارية.

لم يعره جلال اهتماماً إنما تكلم عن العملية بجدية ورصانة كبيرتين، إنها سرقة مليون دولار مهربة من وزير عربي، وليس شيئاً عادياً أبداً. ولا سيما بعد أن تلقى إشعاراً بالطرد من الشقة من المالكة البلجيكية، والدة المثلي، الذي يرتدي ملابس نسائية ويخرج في الليل يطوف على خمارات اللي آل دو سان جيري.

ضمت دلال يديها إلى بطنها، وقد انسدلت ضفائرها على كتفيها. بينما ظهر وركاها المستديران أمام جلال بوضوح أيضاً، وقد حاول تفادي النظر إليهما من دون أمل بالنجاح. فقد كان مغرماً بها بشكل سرّي، وقد سرق من حقيبتها مرة أحمر الشفاه وخبأه في دولاب الحاجات العزيزة عليه حتى سال من الحرارة في الصيف الفائت.

انتظرت دلال رد الأستاذ، وهي تحدق بوجهه، فانتبهت لحظتها أنه قص قليلاً من شاربيه السوداوين، وهو أمر لم تلحظه حين التقته في هذا اليوم في الظهيرة، بينما كان هو ساهماً كما لو كان يصغي مثل كل يوم، لماكنة الإسكافي الكائنة قبالة منزله، وهو يمسك الحذاء ويبرده بالمبرد الدوار.

قال جلال:

ـ اسمع عليك أن تقرر... هل ستشاركني في هذه العملية أم لا؟

ـ أشاركك طبعاً ولكني أريد معرفة التفاصيل.

ـ هو وزير...

ـ قلت لي هذا...!

ـ آه، نعم قلت لك هذا... عربي... أعرف بأني قلت لك هذا أيضاً!

ـ ولكن لم تقل لي كيف تعرفت إليه!

ـ قصة طويلة سأشرحها لك فيما بعد... المهم أنه لطش مليون دولار من خزينة الدولة...

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ تحريت عن الأمر... سألت البواب...

ـ أيّ بواب؟

ـ بواب عمارته في لويز... الشاب البولوني، هل تذكره صادفناه مرة في بار اللوكوك.

ـ لا أتذكره!

ـ أمه إيفا بائعة الخضار يوم السبت، المرأة البولونية البدينة التي تزوجت سائق الباص المغربي، ثم هربت منه، من أجل شاب أشقر، صربي، يملك دراجة نارية من نوع هارلي، ويرتدي ملابس غريبة.

ـ أعرف الصربي... وأعرف دراجته... ولكني لا أعرف إيفا ولا ابنها...

ـ آه أنت تعرف الدراجات أكثر من البشر...

ـ وكيف عرف...

ـ عن طريق أمه ربما!

ـ أمه؟

ـ نعم أظن أنها رافقت الوزير فترة، أيضاً...

ـ لم أفهمك ماذا تعني أنها رافقته؟

ـ نامت معه...!

ـ مممممممم... أطرق الأستاذ قليلاً، بينما ابتسمت دلال لجملة جلال غير المناسبة. ثم سأله:

ـ وكيف سنسرقه منه؟

ـ عن طريق مساعدته بالحصول على المليون...

ـ لم أفهم تقول إنه حصل على المليون...؟

ـ هو لطش المليون...

ـ يعني حصل على المليون...

ـ لا... المليون لم يصل...

ـ ماذا تعني بهذا؟

ـ حسب علمي أنه لطش المليون من خزينة الدولة... ولكنه لم يصل المليون بعد إلى بلجيكا... إنما تكفلت بإيصاله له شركة تهريب تركية... هكذا قال لي البواب البولوني...

فتح الأستاذ عينيه على وسعيهما حين سمع هذا النقطة من الحديث، وقد أبدى اهتماماً أكبر بالموضوع برمته، وهنا تساءل بعد أن صمت لبرهة من الزمن.

ـ شركة أم عصابة؟

ـ شركة!... عصابة! ليس مهماً التسمية...

ـ صحيح!

فكر الأستاذ قليلاً بهذا الأمر، وهو ينظر من النافذة الواسعة وأمامه شارع عريض حيث تظهر السيارات العابرة بسرعة، كان يشرب البيرة بهدوء شديد،

ويمسح فمه بكلينكس أبيض في يده. لحظة وقد اخترق المطر والهواء النافذة، فانفتحت على مصراعيها، هرع جلال وقد أغلقها بيديه بقوة، ووضع قطعة من الخشب كي يرصها بين الأكرة والغالق كي يمنعها من أن تفتح مرة أخرى.

ثم عاد ليجلس إلى جانبهما وهو ما زال يتكلم، ليطمئنهما أن هذه الحالة تكون مروعة حقاً حينما تحدث منتصف الليل وهو نائم، لكنها الآن طارئة، ولا تحدث بعد الآن.

أخذ ينظر إلى وجهه في مرآة الصالة المواجهة له، ولم يتوقف عن الحديث وهو يرتب شعره المتطاير، وينكت قطرات المطر التي علقت عليه.

سأله الأستاذ:

ـ ولكن نحن، ما هو دورنا في هذه العملية؟

ـ هذا هو المطلوب!

ـ ما هو المطلوب؟

ـ من وجهة نظري... علينا أن نجد لنا دوراً في هذه العملية.

ـ أعرف ولكن كيف سنجد هذا الدور؟

ـ اسمع أنا أعتقد أن هذا الوزير هو شخص غبيّ تماماً وبالتالي يمكننا التحايل عليه، وخداعه.

ابتسم الأستاذ بسرعة، فقد وقعت عليه هذه المعلومة وقعاً حسناً. غير أنه في داخله لم يقتنع كثيراً، كما كانت عيناه معلقتين على طبق المعكرونة الذي صبه جلال لدلال.

ـ هل تعتقد ذلك؟

ـ نعم أعتقد بأننا سننجح هذه المرة...

ـ سنسرق المليون منه؟

ـ نعم سنسرقه منه... سنعطي اللاجئين في المخيمات كمية منه، والباقي لنا... ما بك؟

ـ لا شيء... أريد فقط أن أعرف.

ـ هل لديك اعتراض...؟

ـ لا أبداً... بالعكس... أؤيدك وأوافقك... ليس لديّ أيّ اعتراض على الأمر من الناحية المبدئية... لديّ تساؤلات فقط...

ـ هذا كلام جميل... ولكن ما هي تساؤلاتك؟

ـ لكني لم أفهم دورنا بالضبط.

ـ الأمر بسيط جداً...

ـ اشرحه لي فأنا لم أفهمه.

ـ سنساعده في الحصول عليه في البداية...

ـ ومن بعد...؟

ـ من بعد سنسرقه منه.

ـ يعني نسرقها من شخص سرقها أيضاً.

ـ هل تخشى ذلك؟

ـ لا...

ـ هل تريد معكرونة؟

ـ نعم... قليلاً...

صب له المعكرونة في الصحن وناولها له.

* * *

كان جلال يفكر لا بالمال وحده، إنما بتحدي القوة الجائرة في العالم التي لا يمكن السيطرة عليها، ولكن على الأقل بمشاركتها بالأموال التي تنهبها، وتوزيعها على لاجئين هم في النهاية ضحية هذه القوى الجائرة ووسائلها في الهدر والتخريب. وقد ابتسم الأستاذ حينما رأى جلالاً مصرّاً على الأمر وقال والابتسامة تلازم وجهه:

ـ لا مانع لديّ من العمل معك في هذه العملية... أبداً... السرقة شيء رائع! واللص كائن وسيم كما قال ماركس... خصوصاً إذا استعملناها لمساعدة اللاجئين الذين لا يهتم بهم أحد... ولكن هل سنعطي القوى الثورية والماركسية منه؟

صرخ جلال في وجهه:

ـ أوه، لم يقل ماركس هذا... أنت ما زلت تقول أشياء سخيفة عن ماركس.

وذهب ليرمي الأطباق الوسخة والرخيصة التي تشبه ألوان النيونات البخسة الثمن في حوض المغسلة.

* * *

جلال لا يهمه أمر السرقة أبداً، وقد صرح بذلك مرات عديدة أمام أصدقائه، ليست هي المرة الأولى التي يثني فيها على السارق لأن فعل السرقة هنا بالنسبة له هو عمل ثوري، والسارق مهما كان فهو أفضل بما

لا يقاس من الشحاذ! ذلك أن رد فعل الشحاذ على حياته وفقره وتهميشه واستعباده هو عمل سلبي لا يليق بثوري مثله، ولكن من جهة أخرى لا يرغب بتشويه سمعة ماركس، لأنه مهما كان فإن السرقة هي أمر مذموم، غير أن الأستاذ كان مصرّاً على الأمر:

ـ بل قال ماركس هذا... أنا سمعته من شخص يعرف في الماركسية جيداً...

ـ ماركس لم يقل أيّ شيء عن السرقة... أرجوك لا تقل أشياء تافهة بحق ماركس هذا الأمر يضايقني.

ـ أنت تتكلم عنه وكأنك الماركسي الوحيد في العالم؟

ـ أنا ماركسي أكثر منك...

ـ أنا ماركسي أكثر منك ومن أبوك...

ـ بالتأكيد أكثر من أبوي... بس واللّه عليك ألا تلصق غباءك بماركس وكفى.

بعد أن تعالى صياحهما غضبت دلال جداً... لقد أفسدا عليها السهرة بنقاشهما التافه، وغير المجدي، والذي ينتهي كل مرة إلى الاختلاف حول جمل قالها أو لم يقلها ماركس... فصرخت في وجهيهما بقوة:

ـ هش هش هش... كفًّا هذا النقاش اللعين... أخت ماركس على أخت القعدة معكن...

حملت حالها وخرجت...

الفصل الثالث:

أداليد الفلامانية ولوحة الفرج الذي تخرج الكائنات منه

من أوراق جلال

الورقة III

سيموت يوماً... هذا الذي تعرفونه! إنه عنيف الطباع لكنه ثابت الكلمة.

سيموت هذا الوسيم الملول، الوسيم العاشق، الرجل الذي له عينا امرأة وكتف خنزير برّي!

هذا الذي لن يكون، كلما رأيته، إلا مساعداً حاذقاً، هذا الذي لن يمكث إلا في قلبك مثل شجرة صمغية.

سيموت هذا المتمرد في طرق غير مرئية، سيناوئكم بفضل جسارته وهو يعرف كيف يبتسم.

سيغادركم هذا الطفل مثل نحلة تغادر الحديقة.

* * *

هذا النبي الذي اسود وجهه مثل فاكهة ناضجة.

الكافر الذي لا يخون تناقضه...

والوسيم الذي له ملامح سجين أو وجه رهينة.

المعرفة الأولى

أمضى جلال أياماً عديدة وهو يفكر بهذه العملية، ويخطط بشكل جاد للوصول إلى المليون، منذ أن التقى الوزير بوساطة طالبة فوضوية من غنت قد تعرف إليها في معرض للرسم في بروكسل.

وهي المرة الأولى التي يلتقي فيها جلال أحد الوزراء في حياته. وفي البقعة الأكثر صخباً من مدينة بروكسل. في بار اسمه كازا ليول.

هذا المكان، كان جلال قد سمع به مرة من فلاديمير الروسي، قال له إنه المكان الأكثر قدسية بالنسبة إلى بوهيميّي هذه المدينة الأوروبية، وإلى بوهيميّي العالم إن شئت، فهو مشهور على نحو واسع كمكان صاخب يرتاده البوهيميون والفوضويون أيضاً، حيث يستمر فيه الرقص المجنون والموسيقى الهارد والحشيش حتى الصباح.

* * *

حدث الأمر مع جلال بالمصادفة المحضة. فعلى غير عادته كان قد تعرف في يوم ما إلى طالبة أناركية من غنت اسمها أداليد، تعرف إليها في معرض للفن، وليس في بار للزعران الروس كما كان على عادته أن يتعرف إلى الناس، يقع بالقرب من غاليري دون رين وسط بروكسل.

كان ماراً وسط سوق المدينة في ذلك اليوم فأخذ يتجول ببطء وهو ينظر في فاترينات المحلات. كان المساء بارداً جداً، وكئيباً، وسماء بروكسل

ملبدة بالغيوم، وأثناء تجواله مر من غاليري للرسم شهير يقع على مقربة من غاليري دي رين، أراد أن يدخل، تردد قليلاً، ولكنه حينما رأى الإضاءة الجيدة في الداخل، وشعر أن المكان الدافئ مغرق بالحميمية والألوان واللوحات والنساء، قرر أن يدخل. والأكثر من كل هذا، كانت قناني النبيذ موضوعة على طاولة كبيرة وسط الغاليري، وإلى جانبها أعواد الغراسيني، وقطع الخبز الصغيرة المكملة بمسحة الزبدة وسمك الماكرل، وأشياء أخرى. لقد قرر أن يدخل القاعة بحجة مشاهدة اللوحات، كأيّ مهتم بالفن، ثم يتناول مما هو موجود على الطاولات.

دخل إلى المكان بهدوء شديد، أول ما واجهته هبة من العطور النسائية مع هواء دافئ، جعلته يشعر براحة تامة. وأثناء تجواله في المكان شم عبق مزيل الروائح الرجالية، ورائحة القمصان النظيفة والمكوية، وكريمات الحلاقة تفوح في الفضاء. دار على اللوحات مدققاً قليلاً في التفاصيل، دار دورة واحدة وقبل أن ينتهي من جميع اللوحات شعر أنه منجذب للوحة واحدة...

في الواقع لا يعرف جلال كيف انسحر بهذه اللوحة. بل شعر أنه مشدود لها فعلاً، الشيء الأكثر غرابة والذي لاحظه حينها، أن هذه اللوحة كانت يتيمة، وحيدة، منفردة، لم يتوقف أيّ شخص من الموجودين في الغاليري أمامها، على العكس من جميع اللوحات الباقيات اللواتي توقف أمامهن العديد من الزوار، أما هذه اللوحة فكان الكل يمر من أمامها ولا يتوقف عندها، كأنهم يتحاشونها.

لف جلال المكان كله بدورة عينين وقرر أن اللوحات الباقيات، لوحات آلهة، لها عبيد وخدام ودين وطقوس وأشياء مريعة أخرى، أما هذه اللوحة فهي وحيدة، من دون إله، من دون دين، من دون عبادة، من دون خدام وحاشية.

ثم قال في نفسه:

آلهة اللوحات الباقيات مثل كل الآلهة تحتفل بعبيد تتبعها، آلهة خدم. آلهة تشرب دماء الآخرين مثل قرادة، آلهة مخصيين، آلهة أكباش محرقة. يكفي أنها آلهة... أما هذه اللوحة الوحيدة، فهي وحيدة مثل شيطان لعين.

توقف جلال أمامها، كانت اللوحة عبارة عن فرج امرأة كبير جداً، تخرج منه حشود هائلة من البشر. رسمها فنان أرجنتيني اسمه ميغيل كاسيريس. وقد نسي جلال أمام هذه اللوحة نفسه، بل نسي ما دخل فعلاً من أجله:

وهي أعواد الغراسيني، وقطع الخبز الصغيرة المكملة بمسحة الزبدة وسمك الماكرل، والدفء، والإضاءة، والنبيذ، والنساء. ووقف مشدوهاً ومنصتاً بكليته إلى هذه اللوحة التي أخذت تنبض أمامه ببشرها المتخذين أشكالاً متنوعة ومختلفة.

اقتربت منه طالبة فن أناركية من غنت كانت موجودة هناك اسمها أداليد وسألته:

ـ هل أعجبتك اللوحة...؟

ـ الحقيقة أعجبني الفرج الموجود في اللوحة، فالفرج هو الشيء الوحيد القادر على نسخ هذا العالم ملايين المرات، وبأشكال مختلفة.

ضحكت لجوابه الذي نطقه بشكل حازم، وبصورة غير متوقعة. ثم سألته:

ـ هل أنت مهتم بالفن؟

ارتبك... أمامها، مع ذلك قال لها الحقيقة:

ـ لا أنا دخلت من أجل الدفء والنبيذ ومشهد النساء هنا، ولكن هذه اللوحة أعجبتني فعلاً.

ضحكت أداليد وراحت لتصب له كأساً من النبيذ.

ـ أنت صريح جداً...

ـ ليس دائماً...

ـ على الأقل في هذا اليوم... قالت أداليد وهي ترتشف النبيذ الأحمر ببطء، وتقضم أصابع الغراسيني المضمخة بزيت الزيتون، بطرف أسنانها الأمامية.

ـ تعيش من زمن في بروكسل؟

من سؤالها أدرك جلال أنها تقصد أنه ليس بلجيكياً، وهو أمر طبيعي... غير أنه حاول إجابتها بطريقة غامضة...

ـ يمكنك أن تقولي ذلك...

ـ من زمن بعيد؟

ـ لا من زمن قصير...

ـ من متى؟

ـ من عشر سنوات...

ـ ليس قصيراً...

ـ هذا يعتمد على كل واحد منا وتفسيره للزمن...

ـ من أين أنت؟

ـ من العراق...

ـ وأنت؟

ـ من غنت...

أنهى جلال كأسه دفعة واحدة، ارتشفها من دون أن يتلذذ بطعم النبيذ

ككل مرة... ذلك أن مشاعر الارتباك بدت عليه واضحة، هذه المشاعر تهاجمه كلما وجد نفسه في مكان جميل، ونظيف ومضاء، وفيه رجال ونساء أنيقون ومبتهجون، ومخدومون بالنبيذ والطعام جيداً. يشعر على الدوام في مثل هذه الحالات أنه في المكان غير المناسب، إن هذا المكان ليس مكانه، وإن جميع الناس تنظر نحوه نظرات مريبة وتستهجن وجوده. كما أنه من جهة أخرى كان يدرك أنه فاقد لثقته بنفسه. فالمجتمعات الشمولية سياسياً أو ثقافياً تهدم الثقة بالنفس، تهدم ثقة الأفراد بأنفسهم وتجعلهم يشعرون بأنهم صراصير أو عناكب أو جرذان بين أفراد آخرين واثقين من أنفسهم وثابتين في مكانهم. شعر لحظتها أمام الجميع بالارتباك، شعر أنه بحاجة إلى أن يخرج، ربما بحاجة إلى أن يهرب، هو يريد البقاء مع أداليد، كانت بالنسبة له فرصة رائعة، فرصة بحث عنها سنوات ولم تأته أبداً، وفي الوقت ذاته يريد الهروب منها، يريد مغادرتها. أمر لا يعرف أسبابه الحقيقية، ولكنه هو هكذا دائماً حزمة من التناقضات.

ـ أين... إلى هذا الحد أنت مستعجل؟

ـ لا أعرف ربما لأن هذه اللوحة ارتسمت بقوة في ذهني...

ـ هل يمكننا أن نلتقي اليوم في آخر المساء...؟

شعر جلال لحظتها أنه بحاجة إلى كأس نبيذ ثانية، ولكنه خجل أن يقول لها هذا، كما أنه أراد أن يشاركها قضم الغراسيني أيضاً، لكنه لم يستطع أن يقول أيّ شيء، مع أنه دخل إلى هذا المكان في البداية لهذا الأمر حصرياً، لكنه الآن شخص آخر، يحمل شعورين متناقضين تماماً.

ـ نعم بالتأكيد... أعطني تلفونك؟

تبادلا أرقام الهواتف، وخرج مسرعاً، وليس من دون أن يعثر بالباب. لكنه

في النهاية خرج من الغاليري من دون أن يلتفت إلى أداليد التي ظلت تنظر نحوه، كانت تعتقد أنه حينما يصير وراء الزجاج سيلتفت إليها ويؤشر بيده، وهو من جانبه كان يدرك بحدسه أن أداليد تنظر نحوه، بل كان يعتقد أن الكون كله ينظر نحوه ويراقبه، وهكذا انفلت ليدفن نفسه في الزحام.

* * *

بعد لحظات وجد جلال نفسه في الشارع الواسع، أفنيو أنسباك، المملوء بآلاف البشر، يواجه العزلة والبرد وحده.

أين أنت؟

تردد جلال في البداية أن يرد على هاتف أداليد... اهتزت يده التي تحمل الموبايل، نظر إلى الرقم وبذهن مشوش تقريباً، قال:

«ألو»

كان يقف أمام محلات بيع الفواكه وأطعمة الكلاب والقطط.

ـ هل تحب أن نشرب كأساً في بار الكازا ليول؟

ـ بالتأكيد!

ـ أنا سألتحق بأصحابي في بار صغير اسمه جون بوس قريب من الغراند بلاس، ومن هناك سنذهب مشياً على الأقدام... فتعال أنت والتحق بنا.

ـ أوكيه موافق...

سار جلال في شارع أنسباك، ووصل إلى الغراند بلاس، غير أنه لم يسألها من أيّ جهة يقع البار... كما أنه نسي اسمه بالضبط، قال في نفسه:

«ما اسم المقهى؟ ماذا قالت؟... مقهى الروك أند رول... مقهى دائرة الرحالة... أيّ بار كانت تقصد، يا إلهي ماذا قالت...؟»

ضرب رأسه بيده:

«كم أنت غبيّ جلال».

ثم فكر أنه لو رآه سيتذكر حتماً، لو وجد اليافطة أمامه وارتسمت حروف

الاسم سيهتدي إليه. وهكذا أخذ يدور الأركان الأربعة للغراند بلاس وهو يقرأ أسماء البارات واحداً واحداً. وفي النهاية لم يعثر عليه.

«يا إلهي...» قال وضرب قدمه في الأرض.

شعر لحظتها بالأسى، شعر بوخزة في قلبه. ضياع فرصة لن تتكرر، وكما أنه تردد أيضاً بالاتصال بها، أمر يشعره بالحرج، علاقته بالتلفون علاقة مريرة، لا يعرف لماذا يشعر أن تلفونه مع الفتيات أمر غير مرغوب به. مع ذلك دار مرة أخرى في الأزقة الضيقة، بحثاً عن الاسم ولكن من دون جدوى.

وهكذا قرر أن يتصل بها. كان واقفاً في زقاق دو لا كولين المليء بالمقاهي. وضرب رقم موبايل أداليد. لكن لا يعرف إن كان من حسن حظه أم من سوء حظه كان تلفونها مغلقاً.

رجع إلى شارع أنسباك متلبكاً. كان الأمر بالنسبة له فرصة كبيرة. فرصة كبيرة أن يغير نمط وأشكال أصحابه، فقد تعود جلال منذ وصوله إلى هذه البلاد على نوعية واحدة من الأصدقاء تقريباً. وقد رأى في تعرفه إلى أداليد فرصة جديدة أن يخرج من هذا العالم المضطرب والمشاكس، عالم الأستاذ، المصارع، فلاديمير الروسي، العصابة الألبانية، دراجته الهارلي المسروقة، اللجوء. كما أنها فرصة جديدة أيضاً أن يتخلص من حب دلال، صديقة الأستاذ وشعوره بالذنب لأنه يحب صديقة صديقه.

مد يده في جيبه ليخرج علبة سجائره وهو فاقد لأعصابه. بحث عن القداحة فلم يجدها، التفت إلى اليمين رأى فتاة قادمة تسير بشكل واثق ذاهبة إلى الغراند بلاس وهي تدخن.

ـ من فضلك هل لديك قداحة؟

ـ نعم...

أخرجتها وأعطتها له...

وقف قليلاً وهو يطلق الدخان في الهواء. أعادت الفتاة القداحة إلى جيبها وواصلت السير في طريقها إلى الغراند بلاس، لم يطق صبراً، التفت نحوها ليدقق في مؤخرتها، كانت جيدة. عادة لم يتركها أبداً كلما تمر فتاة من عنده، فإنه لا بد أن يستدير ليرى أردافها.

ـ لماذا يتعلق الرجال بالأرداف أكثر من أيّ جزء آخر من جسد المرأة؟ قال في نفسه.

عضلة تافهة، جاءت بعد أن تعلم البشر المشي على قدمين بدلاً من المشي على أربع، لكنها الأكثر جاذبية من كل الأجزاء الأخرى، هي التي تجره جراً نحو أيّ امرأة، إلى درجة أنه لا يستطيع إلا أن يلتفت إلى الخلف بعد أن تمر به أيّ امرأة. عضلة سطحية، لكنها فتانة! لماذا؟

شيء غامض وجميل مثل الشعر الحديث، كلام سطحي وتافه ولكنه غامض، يستمد قوته من غموضه وعدم وضوحه.

* * *

بعدها استدار ليذهب مباشرة إلى بار الكازا ليول فهو مشهور جداً ولكنه لم يسبق له أن زاره من قبل.

الوزير المخلوع في بار الفوضويين

وقف جلال قبالة باب بار الكازا ليول، كان ذلك عند منتصف الليل تقريباً. رفع رأسه ليقرأ اليافطة. أنزل عينيه وإذا بأداليد خارجة من الباب وفي يدها سيجارة، من الواضح أنها خرجت كي تدخن.

ـ أوه أداليد أين أنت؟

ـ آه جلال انتظرناك في المقهى الصغير أنت لم تأتِ!

ـ ولكني تهت عن المكان... وقد اتصلت بك أكثر من مرة وتلفونك لا يرد...

ـ آه، أنا آسفة جلال حقاً، كان التلفون في حقيبتي ونسيت أن أشحنه، ولم أستطع معاودة الاتصال بك.

حين دخل إلى المكان استغرب فقد بدا عليه مكاناً راقياً.

ـ البوهيميون والفوضويون يرتادون مكاناً راقياً؟ قال جلال.

ـ هذا يعتمد على ماذا يعني لك مكان راق. قالت أداليد.

ـ هل أسعاره مرتفعة؟

ـ لا أبداً.

سار جلال وراء أداليد حيث دلفت من خلال باب دوار وضعهما مباشرة في ممر صغير شبه معتم، حتى ظن جلال أنهما تاها، ثم اهتديا إلى باب

دفعته أداليد فأصبحا في حجرة طويلة مستطيلة يقسمها بار إلى نصفين، وهناك نادلة جميلة من أميركا اللاتينية اسمها لولا، شعر جلال أنه من المستحيل عليه ألا يلتفت إلى مؤخرتها الجميلة، أو إلى صدرها، أو سمرتها الرائقة، فهي من النوع الذي يجذب من النظرة الأولى جميع الرجال. بل إن الرجال كانوا يرقبونها كما لو كانوا كلاباً تنتظر أن تنشب أنيابها وأظافرها في لحمة طرية. فجأة تحول الرجال في ذهن جلال جميع الرجال إلى ذكور... ذكور فقط...

لقد تحولوا إلى ذكور يرتدون ملابس ثمينة ويزرون بناطيلهم على أشياء مستعدة أن تتوثب ما إن ترى امرأة. إلى كلاب لها قابلية كبيرة على الشم وتتبع أية رائحة، ولا سيما رائحة أنثى. إلى بوليس متخفين بملابس صيارفة وأثرياء لا همّ لهم سوى إغواء النساء والإيقاع بهن. إلى سياسيين يبحثون عن طرائد في هذا المكان، إلى قتلة مأجورين... هكذا دارت في رأس جلال مجموعة من الصور المتنافرة التي لا رابط بينها، والتي تعبر بالنسبة له عن شيء غامض اسمه الرجال، وهذا الشيء يأتيه فقط حينما يدخل إلى مكان فيه عدة رجال ونساء فيشعر بالمنافسة... فشعوره في تلك اللحظة أنه الرجل الوحيد أما الباقون فهم مسوخ وغيلان لا أكثر.

* * *

في القسم الأول رأى جلال صالة مطعم كبيرة يجلس فيها أثرياء كسالى أمامهم صحون من الطعام، ويحملقون بصمت في كؤوس بيرة من النوع القوي. وفي الجانب الآخر هناك صالة مغلقة تستخدم للتدخين.

قالت له أداليد إنها تفضل التدخين خارج المطعم، على أن تجلس في هذه القاعة المغلقة التي يغزوها الدخان.

مشيا قليلاً. رفع جلال رأسه فشاهد في الزاوية سلماً يقود إلى بهو يضم أكثر من مئة شخص يرقصون فيه الهارد روك، تقطعها من وقت إلى وقت رقصة الصالصا والباجاتا والكيزومبا.

وهنالك سلم مفتوح من الأسفل، يمكنه أن يقف تحته، يشرب الكأس ويرفع رأسه إلى أعلى ليعد كلاسين اللابسات التنورات، وأن يقيم وهو في الأسفل الأقمار في الأعلى إذا كانت بدوراً أم أهلة. أما في الزوايا فكان يختلس النظر إلى العاشقات، إلى الأيدي وهي تتسرب تحت القمصان وتحت التنورات لتستقر على تكورات الجسد حيث يفيض السيل والدفء بين الأفخاذ.

قالت له أداليد: يفتتح هذا البهو في المساء ويظل حتى آخر ساعة من الليل حيث ينهمك الناس هناك برقص صاخب، ومجنون.

ـ آه جميل.

ـ هل تعرفت إلى وزير عربي من قبل...؟

ـ أنا؟

ـ نعم! ما بك؟

ـ أبداً لم أتعرف لا إلى وزير عربي، ولا غير عربي.

ـ هل تريد أن تتعرف إلى واحد منهم؟

ـ لا... أبداً... إلى وزيرة ربما... ولكنهن قليلات في العالم العربي... ويتزوجن وزراء.

استمرت أداليد تتحدث له عن الوزير العربي:

ـ الجميع يعرفه هنا، لقد جاء هارباً بعد أن عصفت بكرسيه الثورات العربية.

ـ ماذا يفعل هنا؟

ـ إنه شاعر أيضاً.

ـ لا أعرفه أبداً.

ـ ستتعرف إليه...

ـ ولكن ماذا يفعل في هذا المكان؟ سأل جلال أداليد.

ـ إنه يتنقل على الدوام بين طاولات الفتيات الجميلات. يقال إنه سرق مليون دولار قبل هروبه.

ـ آه فهمت.

ـ هل هن طالبات؟ بدا على جلال أنه مهتم بهن أكثر من اهتمامه بالوزير.

ـ بعضهن طالبات فوضويات منحدرات من عائلات ثرية، والبعض الآخر يعملن في محال متنوعة على الطريق.

غير أن جلالاً فهم من إشارات أداليد أن الفتيات الجميلات اللواتي يرافقن الوزير العربي في المجمل هن أوكرانيات، جورجيات رومانيات أو ممن ضللن طريقهن، وقدمن إلى بروكسل عبر مهربين محترفين، أوهموهن بالعمل في محلات السوبرماركتات فوجدن أنفسهن في محلات دعارة.

* * *

أدرك جلال المكان الذي هو فيه. مع ذلك أكدت له أداليد أن هذا المكان هو ليس مكان دعارة أبداً، ولكن العاهرات يختلطن بالطالبات الفوضويات القادمات من العائلات الثرية، وبهذه الطريقة يتعرفن من وقت إلى وقت على بعض الأثرياء أو السياسيين المنكوبين في هذا المكان، وهم

في الغالب في المطعم وفي البار، وليس في البهو السفلي حيث يرقص البوهيميون والطلاب والفوضويون، حتى ساعة متأخرة من الصباح.

* * *

هبط جلال مع أداليد إلى المرقص الموجود في القبو، بحثاً عن أصدقائها الفنانين. بعد عشر دقائق تقريباً من وصوله وجدتهم أداليد في زاوية قريبة من الدي جي، يشربون أنخاب الفودكا من فم الزجاجة مباشرة، وكان يغلب على الموجودين هناك العنصر اللاتيني، إسبان، برتغاليون، والكثير من الفتيات القادمات من أميركا اللاتينية، ومن دون شك هنالك عدد كبير من البلجيكيين، ولكن حضور الكولومبيات كان واضحاً، وربما جمالهن المتميز، ومرحهن الذي لا يرتوي هو الذي أصاب الجميع في ذلك اليوم بعدواه، فأخذ الجميع يرقص مع رقصهن.

وقد تعرف جلال إلى الجميع. كان أحد أصدقاء أداليد عربياً، اسمه جورج سليم يعمل رساماً. والآخرون إسبان. عازف هارب عاش فترة من الزمن في البيرو. رسام شعره أجعد، يكاد يكون بلون القرفة من غرناطة. وآخر أشقر درس الفن في المكسيك، والثالث يمكن أن يكون برتغالياً، له وجه شاحب، وعينان زرقاوان وشعر أسود. وهنالك ثلاث فتيات من تشيلي يدرسن الفن في مدينة غنت، وواحدة برازيلية تدرس السينما. فتوقف جلال معهم عند البار يشرب كأساً جلبتها له أداليد على حسابها، وأخذ يتابع الإيقاع الذي لا ينتهي لموسيقى السامبا، والمارشينا، والباتوكادا التي أحدثت فيضاً حقيقياً من البهجة على وجوه الجميع.

* * *

لم يطق جلال صبراً. لقد عاش العدوى التي سرت به قادمة من هذه

الإيقاعات اللاتينية. أخذ يرقص بعد أن شرب الكأس الثالثة من الفودكا مع أداليد. ثم ذهب ليشتري لها أيضاً فودكا. وقف أمام الويتر وعد أوراقه القليلة واحداً بعد آخر. فهرعت نحوه أداليد، قالت له:

ـ اسمع أنا دعوتك سأدفع أنا لأني أخذت مبلغاً من المال لقاء عملي في الغاليري...

ـ لا،لا،لا سأدفع أنا هذه المرة...

ـ اسمع هنالك طريقة يمكننا أن نشرب كأساً أخرى مجاناً...

ـ كيف؟

ـ نجلس مع الوزير...

ـ آه وسوف يدفع عنا المشروب؟

ـ الوزير يجد دوماً من يجلس إلى جانبه من العرب ويدفع لجميع الجالسين...

ـ لم أفهم!

ـ ستفهم فيما بعد...

حملا الكأسين وذهبا كي يدخنا في البهو المقابل لصالة المطعم، كان المكان ممتلئاً تقريباً بالمدخنين، ولكن ما لحظه جلال حينها أنه لم يكن التدخين للتبغ وحده، إنما كان عدد لا بأس به ممن يدخن الحشيش. فوقف وظهره إلى الحائط. ووقف قبالته الفنانان كلاهما، وإلى جانبه وقفت أداليد. وقد دار الحديث مباشرة عن الوزير العربي الذي يرتاد كازا ليول من أجل النساء.

فسأل الفنان الإسباني جلالاً:

ـ هل تعرفت إلى الوزير العربي؟

ـ لا، لم أتعرف في حياتي كلها إلى وزير عربي.

قال البرتغالي الأشقر:

ـ من مزايا الثورات العربية جعلت الوزراء بالمتناول ستتعرف إلى هذا وأنا متأكد أنك ستتعرف إلى الكثير منهم.

في البداية لم يكن جلال متحمساً للجلوس مع الوزير، فمعرفة وزير لا تعني له شيئاً على الإطلاق، ولكن نفدت الأوروات من جيبه وجيب أداليد، وكانت لديهما رغبة كبيرة في الشرب.

ـ شرب كأس أو كأسين على حساب الوزير أو على حساب المتملقين الذين يجلسون معه، أمر ليس سيئاً جداً. قالت له أداليد وهي تغمز له بعينها اليسرى.

سار هو وأداليد ودخلا إلى صالة الطعام، كان الوزير جالساً، وإلى جانبه فتاة رومانية وشخص رثّ الملابس يبدو أنه هو صاحب الدعوة. وما إن جلس جلال على كرسيه حتى جاء النادل وهو يحمل للوزير طبقاً من القريدس المشوي، صاح الوزير:

ـ ذروة المطبخ في العالم!

لقد أهمل الوزير جلالاً وأداليد وانهمك تماماً في صحنه. وقبل أن ينطق أيّ شخص على المائدة بأيّ كلمة أسهب الوزير في مدح هذا الطبق.

ـ نحن في العالم العربي لسنا متعودين على أكل هذه الأطباق.

ـ نعم صحيح أنت محق. قال له الرجل ذو الملابس الرثة.

ـ الغذاء العربي فقير جداً!

ـ نعم هذا صحيح والتفت إلى جلال ليأخذ موافقته. غير أن جلالاً لم يتحرك وبقي ساكناً، فأشر الرجل لكليهما:

ـ تشربان فودكا؟

ـ نعم... قال جلال وأداليد معاً.

تلفت الرجل يميناً وشمالاً وأخرج من محزمه قنينة فودكا وصب في كأسي أداليد وجلال بسرعة لكي لا يلتفت النادل له. فانفجر جلال بالضحك، رأى فيه شخصية مرحة تشبه شخصيات الصعاليك في شارع الرشيد في بغداد.

استمر الوزير مسترسلاً في حديثه عن هذا الطبق الذي تذوقه أثناء خدمته كوزير أول مرة، ولم يستطع نسيانه قط. وقد تناوله بعد ذلك في أماكن أخرى، حول البحر المتوسط وبحار أخرى، لكنه لم يجد ما يمكن مقارنته بالطبق في هذا المكان.

بالمقارنة مع صديقه الجالس إلى جانبه كان شيئاً فاجعاً، فالوزير طويل القامة، أبيض الشعر، يرتدي طقماً فاخراً أسود اللون. لا شك أنه جاء من منحدر فقير، لكنه محاط بهالة من الوقار، أما الشخص الثاني فقد كان نحيفاً بعينين غائرتين، لقد كان رث الحال فعلاً، بعد ذلك عرف جلال أن اسمه أحمد، في الخمسين من عمره، عمل فترة بحاراً في بلده، وهو من بلد الوزير أيضاً.

* * *

أخذ جلال يرقب الوزير ذا الرأس النيكل، وهو يواصل شرب النبيذ الأحمر،

ويلتهم الطعام بصورة عجيبة. كان ينظر مباشرة نحو الطبق. يستخدم يداً واحدة في تفتيت الطعام، يعامل الأشياء المشوية مثل جراح، ويأكل بشهية نادرة. لقد التهم طبق القريدس تماماً، كما لو كان الأخير في العالم. التهمه وقد امتلأت عيناه بالدموع، مسحهما بمنديله هو يتمتم:

ـ يا له من طعام شهي...

الأمر كان بائساً بالنسبة لجلال، ولكن ما جعله يواصل الجلوس هو هذا الشخص المرح، أحمد البحار، الذي دعا الوزير إلى عشاء وبقي يشرب مشروبه بالسرقة. قال أحمد لجلال وأداليد إنه لا يملك غير ثمن عشاء الوزير في جيبه، ولكنه يمكنه أن يجعلهما راضيين هنا بوسطة قنينته الموضوعة في حزامه.

ـ ماذا؟ قال جلال، لأنه لم يفهم ما قاله أحمد بالضبط.

ـ اسمع أنا سأدفع كلفة عشاء الوزير... هو فقط ما أملكه في جيبي ولا أملك شيئاً آخر فاعذراني، ولكني اشتريت قنينة فودكا رخيصة من السوق المقابل للبار، فهنا الفودكا غالية كما تعلمان... ووضعتها في محزمي كي لا يراني النادل... يمكننا أن نشرب دون أن ندفع شيئاً...

انفجر جلال وأداليد بالضحك.

لم يستنكر جلال فعلة هذا الرجل الرث الذي جاء فقط من أجل أن يدفع للوزير كلفة عشائه، إنما أحبه، ولكن جلالاً بقي مستفهماً، فهو لا يعرف ما الذي يجعل هذا الرجل الرث يدعو الوزير إلى العشاء سوى أنه يشعر ببرستيج أن يكون مجالساً لوزير إلى مائدة.

مع ذلك شعر جلال أن هذا المشهد لا يتكرر في الحياة كثيراً. فيمكنه أن يرى لاجئين كثيرين، لكن وزيراً مخلوعاً، مطروداً بانقلاب أو بثورة، سارقاً

لمليون دولار من خزينة الدولة قبل هروبه أمر لا يتكرر فعلاً. كما أنه تعرف إلى أشياء مثيرة أخرى في حياة هذا الوزير العاشق للنساء: شاعر غامض، شخصية غريبة الأطوار، سكير، خليع، يتكلم بغموض في أحيان كثيرة... في العقد الخمسيني من عمره. أنيق على نحو لا يضارع، يحمل فـي يده اليمنى منديلاً أبيض، يرتدي ربطة عنق ألمانية الصنع، من الحرير الطبيعي، مزينة بأزهار جميلة، وعريضة جداً تغطي صدره بالكامل. أمامه وجبة من القريدس المشوي، يأكلها بشهية، وبحاراً يمارس الجنس لا رجلاً يأكل.

ثم بدأ جلال يتعرف إليه شيئاً فشيئاً، من الأشياء التي عرفها في ذلك اليوم عنه ومن هذه الجلسة بالذات أن السياسة هي آخر اهتماماته. ومع أنه مخلوع، أو مطرود، أو مطارد، لكنه لا يتنازل عن مهنته كوزير أبداً، أو على أقل تقدير كوزير سابق. أما أسلوبه المميز فقد بانت براعته في استخدام الشتائم على نحو لا يضارع مطلقاً. والأكثر أن جلالاً عرف أن هذا الوزير ضليع فـي معارف غير مجدية، مثل قراءة الكف، والتنجيم، والسحر. أما أكثر شيء مثير في حياته، فهو بطل عالمي فـي حل الكلمات المتقاطعة، وهاوٍ كبير للقصص الإيروتيكية، وبعض كتب الحياة غير الواقعية، مثل الفنتازيا وغيرها.

أما في النقاش فإنه شخصية عجيبة، فعندما يجد شيئاً مهماً، يدوّنه على قصاصة من الورق. لذلك هو يعود إلى بيته بجيوب ممتلئة بهذه الملاحظات، ويُخرجها حسب مسار الحديث ويقرؤها. وحينما لا يجد القصاصة التي يحتاج إليها، أو الملاحظة الدقيقة للاستشهاد يقرر تغيير الموضوع، إلى موضوع آخر، أو يؤجله إلى مناسبة لاحقة.

* * *

خرج جلال وأداليد متعتعين من السكر، سارا في الشارع المظلم بخطوات

هادئة. مد جلال يده ليلامس خصرها، ثم أنزلها شيئاً فشيئاً إلى الأسفل حتى وصل المنطقة العلوية من مؤخرتها، فارتجف كل شيء في جسده. سارا في أفنيو لويز الذي خلا في تلك الساعة من الليل من المارة والسيارات، وهما في قمة الإثارة والرغبة، وكان جلال بين آونة وأخرى يوقف أداليد، يلتصق بها، ويقبلها بقوة. تنفلت من يديه، وتركض أمامه، فيلحق بها، يمسكها بقوة وهي تمانع في البداية ثم تستسلم لقبلاته بزفرات ساخنة.

كان القمر الليموني المعلق في سماء بروكسل في ذلك اليوم على غير عادته يسترق النظر إلى كل الفواحش التي تحدث في ظلمات هذه المدينة وزواياها، وشعر جلال أن القمر وحده شريكه في الفسوق في ذلك اليوم حين تذهب عيناه مرة إلى صدر أداليد ومرة إلى مؤخرتها. أما في المرات التي يغيب بها مع أداليد في ظلام الشوارع والأزقة حيث البارات المفتوحة والمحلات التي تبيع الكحول والتبغ ليلاً، فإن أضواء الشرفات المنزلية هي التي تشهد على يده التي تنسرب تحت قميصها، ليس هذا وحده إنما تضيء أيضا حياة بروكسل الداخلية وهي:

الوجوه البارزة من الصور القديمة ذات اللون البني. المناظر الرومانسية. الموائد الخشبية. الشموع المعطرة. لمعة الأواني والسكاكين في المطبخ. وهنالك أصوات أخرى أيضاً من بينها الأنين العذب للآرائك المخضبة بالشهوة، والصوت الشجي القادم من بعيد، صوت كالنحيب الأزلي من الباكين على الإمام في بلاده.

ظل هذا النحيب حياً في داخله حتى وهو يفك أزرار قميص أداليد على الفراش في منزلها.

الفصل الرابع:

دلال والعصابة الرومانتيكية

من أوراق جلال

الورقة IV

البرد يشتد، بينما يقف الجمهور هناك، جمهور الرابحين الذين صفقوا للرصاصة، وجمهور الخاسرين الذين عليهم أن يدفعوا ثمن الرهان. الجميع وقف ذاهلاً من النتيجة.

والدم...؟

ـ الدم... انتشر على الستارة البيضاء التي خلفه...

ـ والدخان...؟

ـ ما به؟

ـ دخان الرصاصة، دخان الرأس... دخان...

حجب الجميع... حجب الفضاء... حجب لاعبي البلياردو وهم يمسكون عصيهم وينظرون بذهول للمشهد. حجب وجوه الروس ذوي الأسماء المستعارة والوجوه الشاحبة، النادلة التي تكره التدخين، حماة البيئة، التاجرين اللذين افتتحا مطعم البيتزا، الكرواسون الساقط على الأرض، الجدران المكسوة بالأزهار... كل شيء اختفى خلف الدخان... كل شيء... كل شيء... كل شيء.

الاتفاق الكبير

خرج الأستاذ ودلال من شقته في حي ماتونغه من ضاحية إكسل واتجها إلى حي السان جوس حيث يقطن جلال، في ساحة مادو. تقع ساحة مادو على تقاطع جادات وبوليفارات عدة. هناك جادة لوفان، شارع سكيلكن هو التقاطع الأشهر. ربما كانت جزءاً من السور الحربي في العهد الهولندي، حيث كان اسمها فيما مضى بوابة لوفان، ومن ثم تم تغيير الاسم على اسم الرسام جان بابتيست مادو. وكان جلال يتفاخر أمام الأستاذ أنه يقطن في مكان على اسم فنان عظيم من مدرسة الرسم البلجيكية الأشهر في العالم. وأن بيت البلدية فيها هو قصر قديم لعازف الكمان الأشهر شارلري بيريوت، وأن هناك في سنوات الثلاثينيات كان العديد من السينمات التي تدار من قبل بوريس بالاشوف والد ديمتري بالاشوف، ولكنها اختفت الآن، وكان هنالك كازينو ومتاحف رسامين وأتليات في شارع الشاريتيه حيث تقع أبرشية سانت جوليان... يتحدث جلال بغموض عن أشياء اختفت في هذا الحي الذي يحبه جداً والذي يجعل الأستاذ متضايقاً منه، لأنه لا يتكلم عن ماتونغه إلا بوصفها حياً صمم على شكل حي في كنشاسا في العهد الاستعماري.

* * *

وضع الأستاذ يده على كتف دلال وهو يسير إلى جانبها وباليد الأخرى كان يضع السيجارة ويدخن. لقد مرّا في الطريق بحشود من البشر، بعضهم

ذاهبون لمظاهرة الأكراد ضد السفارة التركية وهم يحملون صور أوجلان، بعضهم مثليون متأنّقون أشبه بمصمّمي الأزياء يقفون عند بار إيطالي. آخرون يرتدون سراويل الجينز الضيقة ويتطلعون في وجوه النساء، وبعضهم من عازفي الشوارع الذين يدافع عنهم الكتّاب الملتزمون في الصحافة اليسارية، وفي مقدمة كل هؤلاء رأى الأستاذ بعض السياسيين الذين من السهل تمييزهم عن الآخرين من خلال سحناتهم التي تشبه سحنات مغتصبي الأطفال.

دعاهما جلال منذ الأمس كي يقضيا أمسية هذا اليوم عنده وليشربا النبيذ. أثناء مروره تعلقت عيناه باليافطة الزرقاء التي تحمل اسم الحي:

«سان جوس دي نود»

اليافطة المعلقة في بداية شارع مادو الواسع حيث يربط هذا الحي الذي يقطنه المغاربة بحي سكاربيك الذي يقطنه الأتراك. وتساءل الأستاذ في نفسه لماذا يسمي البلجيكيون أحياءهم بأسماء مسيحية؟

ربما تخيل في تلك اللحظة سيدة في هذا الحي وهي تشتري الآن علبة الكوندوم والمزلق الحميمي من أجل أمسية نبيذ وفسوق مع تركي أو مغربي، كان جدها فيما مضى من أتباع ملك بويون مثلاً، غودفوروا الذي قاد الحملة الصليبية على الشرق، وأخذ معه مربي الخنازير، وصائدي الصقور، وقاطعي الطريق، إلى مدينة القدس ليحررها من الكفرة. التحق جدها بالحملة الصليبية على الحمار، حمار الرب المصلوب، وحمل أسلحته من السكاكين والفؤوس والأدوات القالعة، وارتدى الدروع الحديدية المزنرة، ليذهب إلى الأرض المقدسة، وليذبح المحمديين مع شياتهم ذوات الأنوف السائلة! ويشبع من رائحة الدم، الدم الذي يحوم الذباب الكبير بلونه الأزرق حوله.

كل هذا، بطبيعة الأمر، كي يمنع بغاء المسلمين أن يصل إلى هذا الحي، حي السان جوس دي نود، حي المسيحيين المؤمنين.

لكن حفيدته خرقت كل هذه الحصانة التي بذل فيها الجد دم قلبه، وها هي الآن تضاجع من تراه وسيماً دون أن تسأله عن دينه.

* * *

تطل شقة جلال على ميدان مادو، حيث تبدو صلبان الكنيسة من النافذة شاخصة، تنعكس عليها أشعة الشمس كلما أشرقت وكلما أغربت. كما تكشف نافذته عن مجموعة من البقالات التركية حيث الناس تروح وتجيء في عيد الهلاوين. في ناصية الشارع تقع مغسلة. عبارة عن حانوت تنظيف رمادي كئيب، تطالع فيه العجائز دوران الماكينات مثلما يطالعن مسلسلاً في التليفزيون، في الشارع يقف مجموعة من المراهقين الذين يرتدون الكاسكيتات يتحدثون مع طالبات صغيرات محجبات، وهنالك مجموعة من البلجيكيات يمررن في الشارع بسيارات فارهة، يرتدين ملابس فاخرة ويضعن دبابيس على الصدر، وهنالك بعض العجائز اللواتي يقدمن الخبز للطيور في الشارع.

* * *

بعد أن دخل الأستاذ ودلال الشقة ابتهج جلال بهما. جلسوا متقابلين كما لو كانوا في بار. راح إلى الثلاجة وجلب النبيذ، كانت ماركة سيسيليا، الماركة الإيطالية التي تبيعها شركة آلدي الألمانية. لم يشتره من النوع الرخيص جداً إنما أراد أن يحتفي بهما. كان مبتهجاً حقاً... وهو يصب النبيذ الأحمر في الكؤوس الثلاث، ويسحب أقدامه سحباً على الأرضية الخشبية، بصندل جلدي كبير، على قدمه، قياس خمسة وأربعين، اشتراه من محل

ملابس مستعملة «بالات» يملكها تركي يقع في ساحة مادو، في منطقة السان جوس، ولم يكن هذا القياس قياس قدمه، فقياسه هو اثنان وأربعون، مع ذلك اشترى هذا الصندل لأنه رخيص جداً.

أخذ الثلاثة يدخنون ويشربون النبيذ.

ـ اسمع لا يمكن لنا أن نحقق خطتنا بالإيقاع بالوزير العربي إلا بعد فحص شارع لويز بشكل جيد. يجب أن تأتي ونستطلع المنزل ونتعرف سراً إلى حياته هناك، وربما علينا أن نراقبه لفترة طويلة وهكذا أنا أحتاجك لهذا الأمر...

رفض الأستاذ أول الأمر، أن يذهب إلى أفنيو لويز.

ـ لويز لا... لأن الأمر فيه خطورة... وأنت تعرف أنا لا أجازف.

أخذ جلال يرتب الغرفة، كانت هنالك بقايا ملابس في الخزانة:

ـ هذه الملابس لا أريد أن ألبسها بعد اليوم. هل تأخذها؟

أهمل الأستاذ أمر الملابس، واستمر في مجادلته في أمر الذهاب إلى لويز واستطلاع المكان.

ـ لا أظن أن الأمر فيه خطورة...

ـ كيف ليس فيه خطورة هل تمزح؟

ـ لا أمزح!

ـ كيف يا رجل تقول هذا؟

ـ ولكنك في العادة تمشي في كل مكان... والشرطة في كل مكان!

ـ الشرطة في هذه الأماكن أكثر حساسية إزاء الغرباء...

ـ كيف يعني؟

ـ لا أعرف كيف، ربما لأنه حي أغنياء، وكل غريب، أو أسمر يمشي هناك، بالنسبة للشرطة، هو لص محتمل... لا أريد هذه التجربة...

ـ مررت بأكثر من دورية ولم يكشفوا أمرك...

ـ صحيح ولكني لا أذهب بأقدامي لهم كي أرى إن كانوا سيكتشفون أمري أم لا...

* * *

أخذت دلال تشرب البيرة وتتكئ على كتف الأستاذ، كانت تحب أن تستند إلى ذراعه الصلبة وكتفه القوي، يا ما تخيلته مروض نمور أو أسود، أو لاعب جمباز. وهو على خلاف جلال ذي البنية النحيفة والوجه الشاحب، فقد اعتنى الأستاذ بجسده، وبعضلات يديه وصدره، ولا سيما بعد أن تعرف إلى دلال، فقد أخذ يذهب للبيزك فت، أو صالة الألعاب القريبة من منزله، وبشكل متكرر، وأصبح يزن نفسه كل يوم تقريباً، قبل أن يغسل وجهه وينظف أسنانه بالفرشاة، يقف على الميزان أمام المرآة ويقرأ وزنه، لقد أصبح، للمرة الأولى في حياته، مهتماً ألا يكون له كرش، وألا يكون له كاحل مثل إطار سيارة، لقد نما صدره وارتفع إلى أعلى، أصبحت لديه عضلات قوية وصلبة تحب أن تتكئ عليها دلال كلما شربت أو أحست بوحدتها، فتعطيها القوة وتعطيها الأمان. وهكذا كانت تتفق معه حينما يقول لجلال:

ـ لا أذهب إلى هناك... لا أذهب إلى لويز... قالها وهو يمسد بيده على رأس دلال المستند إلى كتفه.

ـ لا تريد هذه العملية إذن...؟

ـ لم أقل إني لا أريد هذه العملية، أنا قلت لا أذهب إلى لويز.

ـ كيف تتم العملية من دون الاستطلاع في لويز؟

ـ إذا كان في الأمر مخاطرة أنت تعرف وضعي...

ـ ولكن لا أحد يصمد أمام هذا الإغراء: مليون دولار! نساعد به اللاجئين! ونصبح أثرياء ومشهورين!

ـ أنت محق فيما يخص العملية ولكن الأمر هنا صعب...

ـ ما صعوبته؟

ـ أنت تعرف...

ـ خلاص اترك مخاوفك وتعال معي!

ـ لا... فربما يمكن أن نتدبرها في مكان آخر.

ـ أيّ مكان آخر يا رجل ماذا تتكلم أنت؟

ـ علينا أن نجد عملية أخرى!

ـ هل أنت مجنون؟

ـ لا لست مجنوناً!

ـ بل مجنون...!

ـ كأنك لا تعرفني...

ـ بل أعرفك...

ـ إذن لمَ تقول هذا؟

ـ لأن هذا مليون دولار... هذه ليست مزحة... كما أنها مضمونة أيضاً!

ـ مضمونة؟ لا شيء مضمون هنا...

ـ بل مضمونة صدقني... وسنكون على أول طيارة أنا وأنت نحمل المساعدات... حينها لن تكون أنجلينا جولي أجمل مني أو منك!

ـ ...

رفعت دلال رأسها عن كتف الأستاذ والتفتت إلى جلال، الذي ظن أنها ستتدخل في الأمر وتقول كلمتها ـ إلا أنها سألته:

ـ هل جهزت البيتزا في الأوفن؟ فأنا أشعر بالجوع قليلاً، ثم وضعت سيجارتها في المنفضة وشربت آخر ما تبقى في علبة البيرة التي في يدها، وقد سالت قطرات منها على حنكها مسحتها بالكلينكس الذي في يدها.

ـ ستجهز بعد قليل... قال جلال مبتسماً، وقد عرف أنه قصر في حقها قليلاً، ولم يبدِ أيّ اهتمام بها، لم يكن مهتماً بغير هذه العملية وإقناع الأستاذ أن يأتي معه في اليوم التالي لاستطلاع المكان في لويز.

نهض من مكانه، وذهب مباشرة للمطبخ بعد أن ارتدى صندله الواسع، ليرى ماذا حل بالبيتزا التي فاحت رائحتها في الغرفة. أعادت دلال رأسها إلى كتف الأستاذ الذي أخذ يمسد لها بصورة رقيقة على شعرها.

جلب جلال البيتزا وهو يتكلم مع الأستاذ:

ـ تعال، الأمر سهل وبسيط ومن دون تعقيدات...

ـ حسن فقط دعني أفكر!

ـ تفكر؟

ـ أريد أن أفكر بالموضوع!

ـ أيّ موضوع يا رجل... دعك من هذه المخاوف والخيالات!

ـ ولكن؟

ـ ولكن ماذا... انتهى الامر غداً سنذهب إلى هناك.

ـ ...

وضعت دلال قطعة البيتزا المرغريتا في الصحن أمامها، فاحت رائحة الجبنة السائلة ودخلت في أنفها، قطعتها قطعاً بالشوكة والسكين وأخذت تأكل، بينما مسك كل من جلال والأستاذ قطعتيهما باليد مع الكلينكس وأخذا يقضمانها بأطراف أسنانهما لأنها ساخنة وهما صامتان.

مادو ذكرى الجندي القتيل

لقد شربوا كثيراً، كانت علب البيرة تفرغ واحدة بعد الأخرى، كانت السلة القريبة تمتلئ لا بقشور الفستق فقط، إنما بعلب البيرة الفارغة. أصبح الصوت بالكاد يفهم، وأخذت دلال تذهب للحمام مرة بعد أخرى.

حين نهضت واتجهت للحمام هذه المرة، ابتسم جلال للأستاذ، أراد أن يقول شيئاً، وقد انتظر منه أن ينطق، غير أنه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة. وهكذا تناول برتقالة من الصحن وأخذ يقشرها بالسكين الصغيرة التي أخرجها من جيبه. فاحت رائحة البرتقال الشذية مختلطة بالدخان الذي يغطي الحجرة مثل سحابة ثقيلة.

كان نور الغرفة يتأرجح على الستارة والأستاذ ينظر إلى الفراغ. أخذ يتساءل في نفسه فجأة:

ماذا لو كانت هذه العملية خدعة وليست حقيقة... خدعة من جلال لتوريطه، ودفعه إلى أفنيو لويز من أجل إزاحته والتخلص منه، والتفرغ لدلال؟

هكذا مرت هذه الفكرة القبيحة والسيئة في ذهنه. وهي فكرة عابرة لم يستطع قهرها، ومن النادر ألّا تمر صور مثل هذه الصور القبيحة عن أصحابه، في ذهنه، كلما تمكنت الكحول منه!

في السكر يتحول الأصدقاء في ذهن الأستاذ إلى سيئين وأشرار، إلى

أعداء يريدون الإيقاع به، وهو أمر معاكس للصورة التي تراود جلالاً عن أصحابه، عند سكره أو شربه للخمور، إذ يتحول الآخرون، حتى الأشرار منهم، إلى أشخاص وديعين، وسيمين، وأخيار بالمطلق.

لم يكن الأمر سيئاً إلى هذا الحد، فالأستاذ مثل كل البشر لا يمكنه أن يزيح عن خيالاته الجامحة أفكاره الرديئة حتى عن أقرب الأصدقاء له. وهذا الأمر هو أمر بشري، من دون شك. وربما ذكوري! هكذا مرة حدث دلال عن هذا الأمر، وقال لها إنه طبيعي إن لم يظهر على الدوام بشكل معلن ويبقى حبيساً في داخله.

لقد مرت هذه الفكرة الحزينة والمخيفة، في ذهنه مثل خاطرة عابرة، مرت واختفت بسرعة فائقة. فهو يعرف أن جلالاً غارق في علاقة غامضة جديدة، لا يعرف ما هي، ولا يعرف مع من، ولا يعرف كنهها، ولكنه يعرف في الوقت ذاته أن له عاطفة ثابتة من دلال، عاطفة مكشوفة قد استدل عليها الأستاذ من المرة الأولى التي رأى جلال فيها دلال تسير معه. إن عاطفة جلال نحو دلال قوية. واضحة. ولكنها صامتة. لم تخرج إلى العلن أبداً، ولكن الجميع يعرف هذا!

كيف يعرفون؟ لا أحد يعرف.

من جهة أخرى فإن جلالاً يعرف حدوده. ذلك أن علاقة الحب بين الأستاذ ودلال علاقة مقدسة، علاقة جدية، وراسخة. وهو يتعامل معها بمنتهى التهذيب، وبأخلاق عالية. لكن هذا التهذيب هو الذي يفضح عاطفته نحوها. مع ذلك كانت له رغبة صادقة في ذلك اليوم أن يحدثهما عن علاقته بأداليد. ولكن شيئاً ما منعه، كان يريد ولو من باب إثارة الغيرة، كما يعتقد هو، أو من باب التحدي، أو من باب إثارة شيء ما، كان يود أن يقول للجميع إنه

قادر أيضاً على إغواء فتيات جميلات، ويجلبهن إلى حجرته! كان يريد أن يتباهى كما يفعل أغلب الرجال أيضاً، كما يفعلون فيما بينهم، أو حتى أمام الفتيات، في القول والفعل، في الخيال وفي الحقيقة عن حياتهم، مع أن الجميع يعرف أن الرجال، جميع الرجال تقريباً يكذبون في تفاصيل حياتهم الجنسية، غير أن جلالاً، لم يجرؤ، لم يستطع أن يتفوّه بكلمة عن علاقته الجديدة بأداليد، ربما لأنه حتى الآن لا يعرف! فيما إذا سوف تستمر هذه العلاقة أم لا...!

ولكن الأستاذ ودلال عرفا شيئاً غريباً قد حدث في هذا المنزل. فقد وجدا على الكنبة بعض الآثار النسائية: كلينكس، علبة حمرة شفاه. مناكير فارغ. قلم وردي، نسيته فتاة ما هنا مع مفكرة صغيرة.

* * *

انشغلت دلال بالتلفون وأخذت تحكي مع صديقة لها. جر الأستاذ نفسه بهدوء وانزلق إلى التواليت، وبعد أن خرج قال لجلال إنه يريد أن يعود إلى المنزل. نظرت إليه دلال باستغراب أول الأمر، فقد ظنت أن السهرة سوف تطول أكثر من ذلك، غير أن الأستاذ كان مصرّاً على مغادرة المنزل الآن، لم تفهمه جيداً، لكنها شعرت أنه مشغول وقلق أيضاً.

صافحه جلال وقال له:

ـ قرب مترو البورت دو نامور هنالك عمارة، اسمها لومومبا... الموعد تحت اليافطة في الصباح.

لم يقل الأستاذ شيئاً لجلال، صافحه واستدار، ليسحب دلال من كتفها، قبل أن تسلم على جلال وهي خارجة، جرها نحوه واحتضنها بذراعه،

واستدار الاثنان وهبطا السلم، وبعد ثوانٍ أصبحا في الشارع فأخذا يسيران بهدوء معاً.

* * *

كان الليل صامتاً وهادئاً وجميلاً في بروكسل. سار الأستاذ ودلال في الشارع معاً.

تعلقت دلال بذراعه أول الأمر ثم لفّت يدها على ظهره، بينما وضع يده على كتفها وسحبها نحوه، وهكذا كانا يسيران وقد التصق جسداهما معاً. لم يكن القمر الذي تعود في هذا الوقت من الليل مراقبة الفواحش الخبيئة في بروكسل ظاهراً، لكن القطط الباحثة عن أكياس الزبالة الموضوعة عند عتبات المنازل بانتظار سيارة البلدية في الصباح تكفلت بالمهمة، فهي وحدها التي تنظر مبتسمة للسيقان الذاهبة للسرير في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وللأصابع الباحثة من تحت الملابس عن مكامن اللذة.

عند المترو توقفت سيارة فولكسفاكن موديل بيتل ترجل منها شاب أنيق مع صديقته السكرى، كانت ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً شفافاً، وما إن هبطت حتى جثت على ركبتيها وأخذت تتقيأ، بينما وقف صديقها إلى جانبها ليساعدها.

* * *

شعر الأستاذ بحرية كبيرة وهو يسير مع دلال متجهاً إلى محطة مادو حيث تقطن دلال ليوصلها، ويواصل السير هو إلى البورت دو نامور.

كانت ساحة مادو هادئة في ذلك اليوم، وهي تذكر الأستاذ بطريقة ما بالحكايات التاريخية عن الاحتلال الألماني في أربعينيات القرن الماضي،

هناك في ذلك المكان كان الألمان قد أعدموا أحد البلجيكيين، ربما كان من رجال المقاومة، أو كان فاراً من الخدمة العسكرية. أكثر من مرة شرح هذه القصة لدلال كلما مرّا من هذا المكان... إنه ينسى أنه سبق له أن خبرها، وهي لا تقول شيئاً، ولا تعطيه أية ملاحظة فيما يخص هذا الموضوع:

ـ يقال إنه فر من سياراتهم حيث كانوا يقتادونه في سيارة ترفع في مقدمتها علماً صغيراً مرسوماً عليه شعار النازية.

ـ من هو؟ تقول له دلال... فيسترسل هو بالحديث

ـ الشاب الأشقر...

ـ من؟

ـ أوه، لم أخبرك كيف أعدم رجال الأس. الأس. هنا أحد البلجيكيين...

ـ ...

ـ هناك وقف العريف الألماني... العريف الصارم الوجه والذي كان يحمل على صدره علامة الأس. أس. والذي يستقل دراجة نارية، ويرتدي معطفاً أسود طويلاً، وخوذة حربية، صوب على الهارب برشاشته ثم أطلق النيران. فسقط الشاب سريعاً مضرجاً بدمه.

لم تقل دلال أية كلمة، لم يخطر في بالها أيّ تعليق... لقد سارت إلى جانبه بهدوء، بينما هو واصل التفكير في نفسه:

البلجيكيون ليسوا محاربين ولا مطالبين بالحقوق ولا ثواراً ولا أيّ شيء من هذا. ولكن ربما في لحظة من لحظات التاريخ كانوا مضطربين لذلك، ربما كانوا متوترين من الاحتلال، وهذا جعلهم ناقمين تقريباً، لكن ثورتهم هادئة فسرعان ما أخمدت وانتهت، وتحولت إلى مكان هادئ يزوره أغلب الناس في بروكسل.

هكذا فكر. وبعد أن وصلا إلى الشارع، تساءلت دلال لماذا يفكر الأستاذ بهذا الصخب الميت، الصخب الذي رحل تماماً عن المكان وحل محله هذا الهدوء النسبي؟

ـ آه، إنه يوم جميل، ورائع، وهادئ! قال الأستاذ وهو يسير إلى جانبها ويمرر أصابعه في شعره. بينما تفكيره لم يتوقف بل رحل بعيداً أيضاً، رحل ليفكر بهذه الساحة مجدداً، ففي لحظة ما من لحظات التاريخ كانت هذه الساحة التي بنيت في العام 1860 عبر بيوت كلاسيكية جميلة اختفى معظمها هذه الأيام، تحفل بالأعلام المرسومة عليها العلامة النازية سافتيكا. أما اليوم فهي مكان هادئ حيث لا فتوحات ولا انتصارات عسكرية. لا أوامر ولا تعليمات ملكية. لا خيول تجتاح المدن ولا رؤوس متدحرجة من المقصلة. لا عساكر غاضبون يحتلون المداخل ولا رجال أمن صارمون يراقبون كل شيء. لا خونة مقبوض عليهم ولا نساء يعملن كعاهرات في كازينوهات الضباط المحتلين. لا دبلوماسيون يبتسمون ابتسامات خادعة ولا أصحاب شوارب يقودون سياراتهم بسرعة جنونية في هذا الوقت من الليل، كما كان يشهد هذا المشهد في مثل هذه الساعات في بغداد، وجلّهم من رجال الأمن.

* * *

كانت هناك قطرات مطر سقطت على شعر دلال وقد أحببت من قلبها أن يمسحها الأستاذ بيده، لكنه كان مشغولاً بعقد هذه المقارنات السريعة، وهي تبرز في ذهنه كلما سار في شوارع بروكسل مع دلال في الليل، فلم يلتفت لبضع قطرات بللت شعرها، مع ذلك لم تحزن فقد كانت سعيدة جداً، وقد اتكأت بكليتها على جسمه الصلب، إنه مثل جدار، تشعر به وقد

طوقها بقوة ليحميها من كل سوء. كان معطفها الطويل قد تبلل، وأخذ يصد عنها المطر ويجعل قطراته تتدلى على رباط حذائها.

سارا حتى وصلا إلى منزلها، حيث هنالك كشك قريب لرجل مغربي يقدم أقداح القهوة في الليل للعائدين إلى منازلهم.

ـ ألا تأتين معي؟

ـ كلا أنت تعال معي لأن الطفلة وحدها...

ـ لا أستطيع أذهب معك، أما سمعتِه؟ فعليَّ أن أخرج في الغد صباحاً باكراً إلى لويز...

ـ إذن ستذهب إلى لويز؟

ـ أما رأيت؟ فهو مصرّ.

ـ أنت قلت له إنك لن تذهب...

ـ سأذهب...

ـ حسن خذ بالك من نفسك.

ـ وأنت أيضاً... خذي بالك من نفسك ومن الطفلة أيضاً...

قبّلها قبلة طويلة. كان المطر ينزل على أنفيهما ويختلط بشفاهما، لقد كانت قبلة ساخنة مطعمة بقطرات مطر باردة، ورائحة سكر، ورغبة، وحب، وعطر خفيف يفوح من قميص دلال، وطعم بيرة وأشياء أخرى. ارتخت يدا دلال، سحبت شفتيها من شفتيه دفنت رأسها في حضنه، شدته بقوة، ثم دفعته وانزلقت بسرعة وذهبت راكضة نحو المنزل.

واصل الأستاذ طريقه إلى شقته في ماتونغه، بحث في جيبه عن علبة

سجائره الغلواز فلم يجدها... أين ذهبت... بحث في جيبي الجاكيت... فارغين... في جيب البنطلون... لا شيء...

ـ يا للّه محتاج لسيجارة الآن... أين ذهبت سجائري...

بالأمس كان عنده من الغلواز أربع علب، حصل عليها من جنازة داود... داود العراقي المسيحي... داود السكير الذي مات في ساحة البيان فوتير في سكاربيك... سقط من طوله هو والكيس الذي يحمله... فأخذوه الى المستشفى ليتأكدوا من موته، ثم نقلوه إلى الكنيسة للقداس، بعد أن عروه، خلعوا ملابسه، ثم ألبسوه بدلة سوداء وربطة عنق ووضعوه في تابوت مملوء بالزهور كأنه هدية عيد ميلاد... ووضعوا أسماله في كيس وبعثوهن إلى النفاية، وحين سارت الجنازة من الكنيسة إلى المقبرة، اتبع الأستاذ كيس الأسمال الذاهب إلى النفاية، وهنالك حصل على أربع علب غلواز ونصف قنينة فودكا، وكتاباً عن الحرب في العراق.

دلال، الحب الذي حل

تعرف الأستاذ إلى دلال قبل عامين أثناء وجوده في كامب اللاجئين، حيث كانوا يتجمعون في البهو الخاص بوجبة الطعام فتعثرت دلال على الدرج حاملة بيدها سندويش الجبنة غودا الرخيصة المشتراة من محلات الأل. دي. وكأس الشاي. فساعدها ممسكاً بمعصمها بينما كانت تلهث، ومن خلفها تتصاعد غيمة من أرض بروكسل مثل مظلة.

خاف الأستاذ عليها أن تموت حين رآها بهذه الحالة، إلا أنها طمأنته بابتسامة سريعة ما إن ظهرت حتى اختفت بسرعة. لكنها علامة من دون شك على قوة داخلية كانت تملكها، قوة تقول له اطمئن أنا من سوريا لن أموت ميتة فجة شبيهة بميتة الكلاب اليابانية التي هجرها أصحابها، أنا من سوريا لن أموت إلا في الهواء الطلق، أو غارقة في البحر، أو محاربة تنزف بعد المعركة على أرض موحلة.

جاءت دلال إلى بلجيكا في سن السادسة عشرة، وهي حامل، حيث كانت ابنة صاحب خمارة في الغرب السوري، وقد دأبت على علاقات جنسية مع رجال بعمر أبيها، حتى حملت من أحدهم. كانت سنواتها المبكرة، مملوءة بالتهور، فهي لم تتلقَّ تعليماً مدرسياً إنما تعلمت القراءة والكتابة في منزلها، كانت جامحة وصخابة. ومنذ الرابعة عشرة بدأت علاقاتها مع الرجال، حتى التقت بتاجر لبناني فتح متجراً في مدينتها، وما إن وقعت أنظاره عليها حتى أعجب بها وقد واعدها.

فهو لم يسبق له أن رأى فتاة متمردة ووقحة وصخابة مثلها، فعاشرها حتى حملت منه، وبالرغم من أنه كان مخادعاً إلا أنها تمتعت معه، وشعرت بأنهما ليسا على وفاق فقد كانت لامعة وحيوية ومدهشة. لها وجه ملاك وقح، بشعر أجعد قصير، وعينين واسعتين. وكان جسدها صغيراً ونحيلاً وصبيانياً. وكان هو برغم عمره الكبير إلا أنه امتلك ابتسامة ساحرة، ومظهراً جميلاً، فقد كان شديد التأنق متقد الذهن ولكنه بمظهر لا أبالي تماماً.

وقد وجد مقتولاً في منزل كان يملكه ويواعد فيه دلال، لهذا اتهمت هي بمقتله. لم تثبت عليها هذه التهمة، إلا أن العيون ظلت تلاحقها، العيون والألسن والسكاكين أيضاً. فهربت فيما بعد مع أحد المهربين حتى وصلت إلى بلجيكا.

* * *

كانا في ملجأ في بروكسل يطلق عليه الشاتو، وقفا عند البوابة الكبيرة، بينما تصر هي أنهما كانا في الطابق الثاني، قرب مطعم المساعدين الاجتماعيين. ناولها سيجارة، أخرجها من باكيت مارلبورو أحمر كان قد سرقه من بائع باكستاني في بداية الشارع، ووضعه في طوية قميصه:

ـ هل تدخنين. ابتهجت دلال، تناولت السيجارة منه بفرح وقالت:

ـ نعم أدخن... شكراً. ابتسم لها وهو يضع السيجارة في فمه، أشعل القداحة وقدمها لها، أشعل سيجارتها أولاً ثم أشعل سيجارته. قال لها بصوت خفيض:

ـ عرفتك عربية... من أول ما شفتك عرفتك عربية، بالأمس رأيتك وأنت تحملين حقيبتك ودخلت إلى المساعدة الاجتماعية في الكامب.

قبل يوم جاءت دلال ودخلت إلى هذا المكان، فأعطوها صابونة، وسندويشة وبطانيتين ووسادة، كي تنام في الملجأ، كأول يوم لها في كامب اللجوء. مع أنها أعجبت بالأستاذ الذي كلمها بكل أدب إلا أن كلماته بدت لها كأنها كلمات مجاملة، وكان عليها أن ترد عليه:

ـ آه عرفتني عربية... لكن كيف؟

ـ من سحنتك!

ـ هل يمكن التعرف علي بهذه البساطة!

ـ تقريباً...

أخرجت قلم روج وأخذت تصبغ شفتيها.

ـ هل أبدو شاحبة؟ سألت الأستاذ بنبرتها الطفولية.

ـ لا أبداً! قال الأستاذ، وكانت قد استغربت من تقربه لها، لأن الرجال يتحاشون الحامل عادة، لعدم المقدرة على إقامة علاقة معها، غير أن الأستاذ لم يتوقف فقط عن إطراء جمالها إنما أبدى اهتماماً بصحتها وصحة الجنين الذي في بطنها.

ـ أعتقد أن الدخان ليس جيداً لا لك ولا للطفل الذي في بطنك، قرأت عن هذا مرة في مجلة.

ـ صحيح؟ كانت مندهشة جداً. وقد نظرت للسيجارة وهي تطلق دخانها باتجاهه.

ـ نعم صحيح!

ـ انا لا أعرف هذا الشيء، اليوم سيأخذونني للفحص عند الطبيبة.

ـ أنا أنصحك ألا تدخّني.

ـ ولكنها تسليتي الوحيدة.

ـ يمكنك أن تتركيها ريثما تنجبين.

ـ عندك حق.

ـ هل أبوه معك؟

ـ ليس له أب!

ـ حسن، ليس هذا مهماً، أنا آسف!

ـ لا أبداً...

ـ ما اسمك؟

ـ دلال!

ـ آه اسم جميل، جميل جداً كأنه خلق لك.

ـ وأنت؟

ـ أنا اسمي أمين... اسمي جورج... كما تشائين ولكن يسمونني هنا الأستاذ!

ـ وماذا تريد أن أسميك؟

ـ الأستاذ...، كما تشائين معك الأمر أقل صعوبة.

ـ لماذا؟

ـ هكذا...

ـ حسن أستاذ!

ضحك من قلبه... قالتها كما لو كانت تلميذة...

ـ هل هكذا أفضل...؟ قالت له.

ـ ليس كثيراً... ولكن ماشي الحال.

* * *

يقال إن دلال أحبت الأستاذ حباً جنونياً، وقد تعلقت منذ الأيام الأولى التي رأته فيها في الكامب. على الرغم من أنه يكبرها بحوالي عشرين عاماً، فهو في السادسة والثلاثين من عمره حين التقاها، وهي في السادسة عشرة. وقد رعاها هو بحنو كبير، وبعاطفة كانت تفتقر لها، ولا سيما حينما كانت حاملاً، ولاجئة وصلت حديثاً إلى بلجيكا. لقد ساعدها كثيراً في شراء بعض المتطلبات التي تريدها ولا تستطيع الذهاب بمفردها لشرائها من السوق، كما أنه انتشلها من الضجر والمكان المضجر حيث قضت معه أكثر وقتها في الملجأ، وبالرغم من تحذيره من قبل المسؤولين لأنها ما زالت قاصراً، إلا أنه طمأنهم بأنه لن يقيم معها علاقة بسبب فارق السن بينهما.

ـ أعرف هذا! أعرف القوانين.

قال للمشرفة الاجتماعية وهو يأخذ أوراقه منها، ويخرج مسرعاً من الكامب.

كان مرتبكاً، متلعثماً، فقد تم رفض طلبه في الحصول على اللجوء للمرة الثانية، وعليه الخروج من الكامب سريعاً. لم يستطع توديع دلال، وكانت حسبت هي أنه لن يعود ولن تراه مرة أخرى، حين سمعت الخبر صعقت، كاد أن يغمى عليها وهي حامل، شيء ما في داخلها آلمها، عادت إلى حجرتها، دفنت وجهها في الوسائد وبكت عليه بحرقة.

نامت مبكرة من دون أن تأكل. ظهر لها في الحلم بصورة غير متوقَّعة. هو ذاته لكنه بهيئة مختلفة. وسيم مثل الرجال الذين يظهرون في الأفلام السينمائية. بل كأنما هو فيلم... كأنما تنظر إليه هي على شاشة بحيث يظهر مُضخَّماً. لم يكن الأمر صادماً في بداية الأمر كانت تقوم من مكانها وتتقدم نحوه لملاقاته، وكانت تشعر أن الضوء مُسلَّطٌ عليه بطريقة كثيفة.

ربما لإحداث التأثير اللازم عليها. قبل أن تصل إليه تمر سيارة سريعة بينهما. يخرج منها رجل ضخم، يرتدي بدلة كحلية وكرفات سوداء رسمية. رجل عجوز لكنه صحيح الجسم. يسحبها من يدها بقوة، يمنعها بأيّ وسيلة من الوصول إليه. تحاول أن تفلت يدها من يده بقوة، تستنجد بالأستاذ تصرخ عليه، تناديه، لكنه غارق في الضوء مثل طفل. مثل شخص يعيش نوعاً من الاستغراق الذاتي في حياة منعزلة. فتقفز من النوم تبكي قليلاً مثل طفلة، تحضن الوسادة كما كانت تفعل في بلدها، وتنام حتى الصباح، حزينة كسيرة القلب.

* * *

استيقظت في الصباح ارتدت ملابسها على عجل، وقبل أن تذهب للفطور أرادت أن تذهب إلى المساعدة الاجتماعية علّها تعرف العنوان الجديد للأستاذ كي تذهب إليه، وما إن خرجت من الحجرة حتى واجهها هو قادماً نحوها، باحثاً عنها مثل مجنون في الممر. استيقظ في الصباح الباكر وجاء إلى الكامب، كي يرى دلال، كي يخبرها كم يحبها، ليقول لها إنه لن يتخلى عنها مهما حدث.

حين رأته دلال صرخت فجعلت كل اللاجئين في الحجر يخرجون ويشاهدون مظهر الطفلة الحامل وهي تحضن الأستاذ، اللاجئ المرفوض وهي تبكي.

* * *

عند أعياد رأس السنة وقبل ولادتها لابنتها حصلت دلال على بطاقتين مجانيتين من الكامب، للسفر في القطار إلى مدينة بروج، على بحر الشمال، وعلى حجز في أوتيل جميل لليلة واحدة. فاصطحبها الأستاذ وذهبا معاً،

وهناك قويت العلاقة بينهما، بل ترسخت. فقد سارا في الشوارع مبتهجين بالرغم من الوضع السيئ الذي كان عليه الأستاذ إلا أنه ما زال يحمل تفويضاً من الشرطة ببقائه ثلاثة أشهر أخرى في البلاد ريثما يتدبر وسيلة ويخرج نهائياً من أوروبا.

جلسا في كازينو بسيط قرب البحر يأكلان الفريت، فليس لديهم ثمن أيّ طعام سواه، هو الأرخص والألذ ربما أيضاً، يأكلان بصورة بطيئة وهما يحدقان بالبحر وبالسفن التي ترسو في عرض البحر بانتظار عبورها إلى لندن. اشترى علبتي بيرة رخيصتين من خمارة كأنها خمارة إنكليزية وهي الأرخص في المدينة، وسارا في شوارع المدينة المائية وهما يشربان ويستمعان إلى موسيقى الفرقة التي تعزف حيث النساء يرقصن أمام البلدية، سارا معاً يداً بيد في السوق المفتوح أمام أكوام الملابس المستعملة. ثم عادا في منتصف الليل إلى الفندق، جلسا في البالكونة متأملين السيارات المتدفقة، وليستمعا لصخب الليل، صفارات الشرطة، وسكارى الكازينوهات القريبة.

* * *

وهناك شعرت بألم المخاض...

ـ آه...! صرخت دلال... وضعت يدها على فمها... ابتسمت للأستاذ وأنزلت رأسها شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، دون أن يفهم هو إشارتها...

ـ ماذا... ما بك... هل تشعرين بشيء؟

ـ نعم... أظن... أن الطفلة تريد أن تخرج...

ـ ماذا؟

ـ مثلما قلت لك...

ـ أنت في الشهر السابع...

ـ ربما تأتي في الشهر السابع... أنا جئت في السابع...

ـ لا تكوني غبية... هذا ألم عارض سيذهب بعد قليل... تناول سيجارة من العلبة... وذهب بعيداً عنها ليدخن، ما إن وضعها في فمه وأشعلها بالقداحة... حتى صرخت دلال:

ـ آه...

لكن الصرخة هذه المرة خرجت بصوت عميق، وبألم واضح... شيء ما خرج من جوفها وقد قطع لها نفسها... ثم شعرت بمياه ساخنة تندلق منها...

ـ اسمع عليك أن تفعل شيئاً الآن...

ـ هل أنت جادة...

ـ لقد انفجرت المشيمة... لا وقت لدينا...

ـ ماذا؟

ـ أقول لك افعل شيئاً...

ركض الأستاذ الى التلفون مضطرباً... اتصل بالاستعلامات ولكن كلامه كان مضطرباً متلعثماً لم يفهم أحد منه شيئاً... لكنه سرعان ما استعاد هدوءه واتصل بالإسعاف وأعطاهم عنوان الأوتيل، ثم ركض نحوها وحضنها، وضع يده على جبينها ليعرف حرارتها... قبلها... انهمرت دموعه فوقها...

طمأنته...

ـ سأكون بخير سأكون بخير... لا تخف... ومسدت على شعره بأصابعها...

ثم فجأة سمعا صوت الإسعاف بعيداً في البداية ثم أخذ يقترب حتى

انتهى أمام الأوتيل، حيث هبط أربعة رجال يحملون سدية بأيديهم وهم يركضون. وبعد لحظات دخل إليها رجال الإسعاف ووضعوها على السدية وغطوها بشرشف أبيض... هذه المرة الأولى التي يراها فيها هكذا ملفوفة برداء أبيض ويخرج بها رجال غرباء محمولة، بينما بقيت عيناها معلقتين به... صرخت بهم... طلبت منهم أن ينتظروه، ليلحق بهم... رمى كل شيء من يده مثل مجنون وهرع نحوها... لا، لا يمكن أن أتركها وحدها... أنا ذاهب معها...

ـ هل أنت زوجها؟...

ـ لا... أنا...

... ركض معهم... وهو يضع يده في يدها، وحين حملوها ووضعوها الى الخلف في الإسعاف جلس إلى جانبها، يده في يدها حتى وصلت إلى المستشفى، حيث أغمضت عينيها من الألم... وكانت تتعرق بشدة... ثم أهبطوها بسرعة وركضوا بها إلى صالة العمليات، منعوه من الدخول وأدخلوه إلى صالة الانتظار...

* * *

بعد ساعتين طلبوا منه أن يدخل...

دخل بهدوء... كان وجه دلال شاحباً، وقطرات العرق تنز من وجهها، والطفلة ملفوفة برداء أبيض وموضوعة في مهد صغير... وآثار دم عليها...

انهمرت الدموع من عينيه، وركض إليها ليحضنها.

الفصل الخامس:

الأستاذ ولعبة الروليت الروسية

من أوراق جلال

الورقة V

عندما تؤوب الدراجات النارية من الأفق، سوف لن تعود دراجته معهن. الدخان يملأ الفضاء ودراجته ساكنة وصامتة.

إنّ الشيءَ الوحيدَ الذي أحبه دراجته الناريّة والبنت وصديقته. أوّاه! حين كان يعود سريعاً لصديقته، على تلك الدراجة وهو يصرخ بصوت عال... كان يقول إن أعظم ما خلق اللّه على وجه الأرض هي هذه الدراجة النارية وفستان صديقته المفتوح من عند ساقها.

يا لهذا الجمال الذي يجعل الطيور تذرق من الفرح وتجعل الكلاب تتبول حالمة عند أسفل الشجرة.

أين هو؟ هل ما زال نائماً... ودراجته النارية على حالها؟... والكلاب الحالمة والطيور والذروق...؟

الشمس ما زالت تشرق، تشرق، وتشرق.

لويز منطقة العمليات

إنه أفنيو لويز، الأفنيو الذي سمي على شرف الأميرة لويز، الابنة البكر للملك ليوبولد الثاني، وعلى مقربة من نقطة تلاقي الترامات، تأتي ساحة ستيفاني الواسعة نسبياً التي سميت على اسم شقيقة الأميرة لويز، لتتحول هذه البقعة بعد سنوات إلى البقعة الأكثر أناقة في بروكسل برمتها، ليس بمحلاتها الراقية فقط إنما بما يتخللها من بقع خضراء وشجر معمر أيضاً.

تتصدر هذه البقعة من الشارع شقق هؤلاء السياسيين المنكوبين في عمارات فخمة ذات واجهات أنيقة، محاطة بالمحلات التجارية الفاخرة، والفنادق الدولية، والمطاعم الراقية، وهنالك العديد من المتاجر الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من محلات الماركات العالمية والتي تتنوع نشاطاتها بين الملابس، العطور، المجوهرات، الأكسسوارات، الأحذية وغيرها بالإضافة إلى وجود مجمع باركات مريحة للسيارات، قبالته بوتيكات متوسطة الأحجام تبيع الملابس الثمينة، والفراء، وعند ساحة ستيفاني هنالك متاجر الساعات مثل رولكس وفندي وستزن وغيرها، وينتهي الأفنيو بمحطة المترو، مترو لويز الذي يربط بين البور دي نامور ومحطة القطارات الجنوبية لا ستاسيون دو سود، مما جعل هذه المنطقة حيوية جداً.

ومن الملاحظ أيضاً أن هذا المكان يوفر للسياسيين المنكوبين حياة أخرى، حياة هادئة، آمنة، مستقرة، غير حياتهم القلقة المحفوفة بالمخاطر

في بلدانهم، فيمضون النهار بالنوم والليل في السهر في المسارح الكبيرة، والحانات الراقية، والمطاعم ذات النجوم الخمس حتى الصباح.

كما أنهم من جهة أخرى أحيوا هذا الشارع بقدرتهم الشرائية العالية، فجلّهم جاء من بيئات اجتماعية وثقافية متدنية، فقيرة، ويشكل العوز العامل المشترك بينهم جميعاً تقريباً، لذلك نرى أن التحضر عند هؤلاء يرتبط دائماً بالإنفاق غير المحدود، ليس على الأشياء الضرورية فقط، إنما حتى على الأشياء غير الضرورية.

* * *

كان جلال بعد الاستقصاء قد عرف أن هذه الدراما الصغيرة التي تحدث في مناطق بعيدة نسبياً في العالم تنتج هنا في العاصمة بروكسل، عاصمة الاتحاد الأوروبي في الوقت الحالي، صورة أخرى، صورة مغايرة بالمطلق عن الصورة الأولى. ذلك أن الانقلابات التي تحدث بصورة تراجيدية هناك تنتج هنا صورة مقلوبة للوزراء المنكوبين ولعائلاتهم. فهم يأتون مع عائلاتهم بعد أيام من الانقلاب مباشرة هم وثرواتهم التي جمعوها هناك أو التي راكموها في بنوك هذه المدينة أيام توليهم السلطة، أو التي نهبوها في آخر لحظة من الحكم، يأتون هم وأموالهم وحقائبهم الثقيلة، وملابسهم الراقية أشبه بسائحين، ليقيموا إقامة طويلة في بروكسل. وللعيش في هذه المدينة التي تقدم لصاحب المال كل ما يرغب به.

قال الأستاذ لجلال:

ـ لكن لماذا يفضل السياسيون المنكوبون العيش في حي لويز؟

ـ وماذا تريدهم... يعيشون في ماتونغه؟

ـ أكيد لا... ولكن لماذا لويز؟

ـ تقدم لهم حياة اللوكس، أي حياة أثرياء أوروبا، ويستمتعون بالحياة الباذخة، والعالية المستوى.

ـ لكن من دلَّهم على لويز؟

ـ يا رجل أنت تسأل دائماً أسئلة لا علاقة لها بجوهر الموضوع!

ـ وما هو جوهر الموضوع؟

ـ المليون!

ـ أيّ مليون؟

ـ أنت تريدني أن أجن...

ـ هههه أمزح معك...

* * *

كان جلال يعرف أن بروكسل تقدم لهم حياة لاهية لهم ولعائلاتهم، فيتقاسمون مباهج المدينة الأوروبية المتعددة، مع أبناء كبار الصناعيين في بروكسل، أو أثرياء أوروبا والعالم بشكل عام، وهنالك الكثير من المعلومات تنقلها الصحف الصفراء في الغالب، ذلك أن الصحف الرصينة التي تتقيد بقوانين النشر لا تذكرهم مطلقاً. وتنقل هذه الصحف أيضاً تدفق الوزراء العرب الذين أطاحت بهم الثورات إلى بروكسل... وكيف أخذوا يشبعون رغباتهم التي لا حدود لها على الأرجح بواسطة ما ينهبونه من ملايين الدولارات أثناء هروبهم، وعلى الأكثر، ما ينهبونه في ليلة سقوطهم، أو بما يهيئونه لهذه اللحظة من تهريب أموال وتكديسها في البنوك أثناء حكمهم.

ثم بعد ذلك يأتون هم وعائلاتهم للسكن في شقق فارهة في هذا الأفنيو

الواسع الذي تم تشييده في العام 1847، لربط وسط المدينة إلى بوا دو لا كامبري وغابات سونيان بواسطة طريق ضخم، مستقيم، تحيط به أشجار الكستناء، وتخترقه سكة الترام من وسطه، وعلى جانبيه تنتصب البنايات الحديثة الراقية.

* * *

قال جلال مرة للأستاذ:

لا تستغرب أن يقف أمامك وزير في السوق، أو رئيس وزراء أمام البقال. وأنت تسير تصادف وجهاً مألوفاً، رصيناً، وصامتاً، يسير وهو بكامل أناقته، وأقصد بكامل أناقته، أن يرتدي بدلة رسمية حديثة، وربطة عنق غالية الثمن، وحذاءً جلدياً فاخراً. تلتقي به بمحض المصادفة وهو يسير بسرعة فائقة كأنه ذاهب إلى مكتبه في الوزارة، لا تعرف إن كان يتصنع ذلك أم إنه تعوّد على المشي السريع، ليقدم دليلاً حقيقياً على أهميته، أو على الأقل ليترك الانطباع عند من يعرفه أنه لم يفقد الأهمية بعد. أو ربما ما زال لديه عمل حقيقي هنا بعد أن فقد منصبه... من يعرف؟!

وفي بعض الأحيان، بل في الكثير من الأحيان، هنالك شخص ما أقل أناقة وأفقر سحنة برفقته، يسير خلفه أو إلى جانبه، وربما هنالك سائق، وهنالك سيارة فارهة تحت تصرفه. ولا تعرف إن كان قد اصطحب هذا المرافق أو السائق معه من أيام الوزارة الذي كان في خدمته، أم إنه وجده هنا في هذه البلاد الغريبة بعد أن وصلها مخلوعاً من منصبه. على العموم وبسبب الأموال التي يسرقونها، أو التي يجلبونها معهم، ستجد العديد من الأشخاص الذين يكرسون أنفسهم لخدمتهم، فهنالك ملايين من الدولارات المسروقة التي تأتي برفقتهم أو تأتي وراءهم، وسيكون من

السهل عليهم جداً أن يجدوا خدماً وأتباعاً، كما كانوا يجدونهم أيام كانت لهم سلطاتهم ونفوذهم.

* * *

وليس من المستبعد أبداً، وأنت تسير في شارع لويز، أن تسمع حديثاً بين وزير عربي ومرافقه، أو تسمعه وهو يتكلم بالهاتف مع زميل له بصوت عال في الشارع، أو تراه وقد استوقفه أحد مواطنيه. أو يتحمل سخرية أحد المارة ممن عرفه. أو تراه وهو يهرب من بعض العرب، في ذلك الوقت، الذين يقيمون بعض الاحتجاجات أو التضامن مع مواطنيهم في الدول العربية.

قالت أداليد لجلال إن السياسيين يفضلون المنفى في بروكسل لأن النهب الذي بحوزتهم يمكنهم تدبره بقوانين، فيعيشون هنا حياة الطبقات الأوروبية الثرية في السكر والصخب والتبختر، كما أن أموالهم الكثيرة سوف تمكنهم من فعل أشياء كثيرة: السفر، تأجير الشقق الراقية، ركوب السيارات الفارهة، كما تسمح لهم بالحياة كما لو كانوا في عطلة كبيرة في التنزه الحر في الشارع الواسع الذي يضم أرقى أنواع المحلات، ليونداز، هاغان دازس، أنيك غوتال وغيرها، كما أنها تمكنهم من حضور الأمسيات الجميلة في مواسم الفرق النحاسية التي تأتي من جميع أنحاء أوروبا إلى ساحة ستيفاني وتقدم في فصل الصيف أحلى عروضها. مع هذه الموسيقى غير الهادفة سينتهي قلقهم سريعاً، سيزول، بعد أن تعبوا من تلقين الناس أغاني النصر الحماسية، والرنة المختالة للأناشيد الوطنية التي كان من شأنها أن تجعل شعوبهم تحبهم، غير أن ذلك لم ينفعهم بشيء، فالانقلابات لا بد أن تحدث، والشعب سرعان ما يغير رأيه، وكأنه

أمر حتمي، فيفرون بالخزينة إلى أوروبا. حصة بلجيكا منهم الكثير، إذ تجدهم منتشرين في أفنيو لويز.

* * *

لقد استنتج جلال أن موسم الصيف قد تأخر هذا العام قليلاً، ومع ذلك سيجدهم منتشرين في كل مكان. وسوف يسمعهم في كل مكان: في المطاعم، في النوادي، في البارات. سيتعرف إليهم سريعاً من لكنتهم، ومن المواضيع التي يتكلمون بها، فهم يتحدثون عن ولعهم بركوب الخيول، ولعب التنس، والتنزه في غابات سونيان، حيث العشب الأخضر الطري وقد تغلف بغلالة ناعمة من ضباب الصباح الأزرق الداكن، والذي يزول ما إن يرتفع النهار.

بعضهم يفضل التنزه في نهاية شارع لويز، عند قصور السفارات الأجنبية، المشيدة بالآجر، وقد انتشرت أمامها المروج الخضر، فهم يسيرون ومعهم كلابهم الكثة الشعر، وما إن تضرب قوادمها الأمامية الأرض حتى تركض خلفها الصبايا وهن يرتدين الموسلين الشفاف، متضاحكات.

أما في الليل فيبدأ الرقص، يمتد طيلة الليل، قالت أداليد لجلال:

ـ حتى في هذا الوقت، في هذه الساعة، فإن نساء السياسيين المنكوبين ينطلقن بسياراتهن لقضاء مشاغل عديدة، والجوهريون يعلقون في واجهاتهم الحلي الذهبية والأحجار الكريمة من الماس، بواسطة دبابيس نظيفة زرقاء زرقة البحر في آخر طراز لإغرائهن.

ـ حياتهم عطلة كبيرة! قالت له أداليد التي خبرت هذا الأمر لأنها من أميركا اللاتينية المكان الأكثر قرباً للعالم العربي في كثرة وجود الحكومات الفاسدة، والمطاحة بانقلابات عسكرية.

في الليل يوقدون الشموع، يضيئون الأنوار، يقيمون حفلاتهم الصاخبة حتى الفجر. وفي الصباح يتنزهون عند البحيرات القريبة من ساحة فلاجيه، يتضاحكون وهم ينظرون البط السعيد الوئيد، والطيور البطيئة تتهادى على الماء، فيرمون لهن فتات الخبز وهم يقفون على الحاجز وظهورهم إلى بناء إذاعة فلاجيه والمقاهي الفلامانية المنتشرة هناك.

* * *

لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الأمر. إنما يتعداه. ذلك أنهم لا ينعمون، وهم يرون المال ينفد بعد سنوات من المعيشة الراقية، بالسكينة، إنما ينخرطون في مؤامرات لا حدود لها من أجل العودة مرة أخرى إلى الحكم. بعضهم يفشل ويطاح برأسه. وبعضهم الآخر ينجح ويتسلق إلى الحكم مرة أخرى، بانتظار انقلاب آخر ليعود مرة أخرى إلى بروكسل إلى الحي الشهير نفسه، وهو حي لويز.

إما للحكم، إما للمقبرة، إما للويز، هكذا يتناقلون أخبار بعضهم البعض في البارات والمطاعم المنتشرة هنا، بصورة تذكر بما يفعله الرياضيون في المسابقات الكبيرة وحصولهم على الجوائز وتحطيم الأرقام القياسية.

وفي العديد من المرات سمع جلال أحاديث بصوت عال بين وزراء عرب مخلوعين واصلين حديثاً إلى بروكسل مع زوجاتهم، أو مع أولادهم أو مع بناتهم. ومرات عديدة سمع شجارات، أو خلافات حول تأثيث البيت الجديد، أو شراء أدوات المطبخ، أو الحقائب الثقيلة التي جلبتها الزوجة معها دون إرادة الوزير... وهكذا.

عالم الصراع

ـ يا له من رقم مخيف، يا له من حظ عظيم لو نجحت الخطة...

كان الأستاذ يفكر في نفسه.

كلام جلال بسيط ومقبول من الناحية المنطقية، والرقم الذي يلفظه كبير جداً. لكن الأحداث تمر بصورة غريبة، فالمشاكل تدور عليه بعود أبدي، تدور عليه بصورة دائرية، مع أنه يقول إنه ماركسي، لكنه لا ينظر إلى التأريخ كتقدم مستمر، إنما هنالك عود مستمر لأحداث وانتكاسات في حياته تتكرر بصورة مستمرة، شيء نيتشوي يركض خلفه، لذلك حين رفض الذهاب إلى لويز فإن ذلك بسبب الخوف والخشية من السقوط في مستنقع لا يمكنه أن يخرج منه، كان يتحاشى أن ينزلق إلى وضع أسوأ مما هو عليه الآن. فمن جهته هو لا يمكنه العودة إلى بلده في الوقت الحاضر، كما أنه لا يريد أن يغادر هذا المكان. ليس لديه أيّ معرفة بالمستقبل. هو يشعر أنه متوزع في ثنائية إن كانت هذه الكلمة مُفيدة في الاختبار الموضوعيّ عن حالته، إنه في فراغ. لا يرغب في التدحرج نحو الهاوية. أراد أن يعيش حياة داخلية، جوانية لا ترتبط بمشاكل الخارج... أي بمعنى آخر أن ينزلق داخل وجوده فقط.

* * *

هكذا كان الأستاذ يسير في الشارع وهو يفكر، بينما أخذ الضباب الكئيب

يتدحرج بلون النيكل منخفضاً حتى وصل إلى الأرض، جارفاً كل شيء معه في ظلمة شاحبة.

* * *

دخل شقته في ماتونغه، كان السكون يعم الشقة تماماً، جلس على الأريكة مفكراً، أخذ النفس الأخير من سيجارته، ثم أطفأها في المنفضة، بعدها أخذ ورقة وقلماً وأخذ يخطط. كان يعرف أن هذا الأمر فيه الكثير من الإغراء، ولكن وجوده في لويز ليس مزحة أبداً.

* * *

خلع ملابسه ونزل تحت الغطاء، شعر بالدفء رغم الاهتزازات اللينة للستائر التي يدفعها هواء بارد قادم من الخارج.

كان وجهه حزيناً وغاضباً، ودخان السيجارة يتصاعد في الحجرة ويتلوى، بل غرقت الحجرة بالدخان كما لو كانت هناك عدة سجائر مشتعلة في وقت واحد. كان يشعل السيجارة من السيجارة القديمة ويطفئ الأخرى في المنفضة.

* * *

فكر في جملة جلال الأخيرة:

الموعد عند عمارة عليها يافطة لومومبا...

مرت في ذاكرته قبل أن ينام صورة قديمة... صورة منقولة من مكان ما في أفريقيا، تظهر فيها صورة لومومبا. لا يعرف بالضبط من أين أتته هذه المعرفة والألفة لهذا الوجه، ربما شاهده في التلفزيون، ربما قرأ عنه في صحيفة. كان بين ثلاثة سجناء سود تم دفعهم في سيارة أمريكية

الصنع، ربما هي شوفروليت أو فورد. وسيارات جيب أيضاً، لا يعرف عددها. في السيارات الأولى جلس وزراء كبار ومعروفون للجميع، كانوا قد قاموا بانقلاب مؤخراً بالتعاون مع الجيش البلجيكي الذي استعمر هذا البلد، في ذلك الوقت.

في السيارة الرابعة ليفتانتت بلجيكي اسمه غات، له وجه لا يكف عن الابتسام، يحلق وجهه بشكل مستمر ويضع ماء الكولونيا، له شعر أشقر خفيف وعيناه زرقاوان ماكرتان. وشوفير اسمه فرشير، بلجيكي أيضاً، كان أسود الشعر، شاربه العريض وخطه شيب خفيف، وعيناه حادتان جداً، يحمل رتبة عريف، يفتخر بها.

السجناء كانوا من الحكومة السابقة. أودعوا في الخلف بشكل مهين وهم مقيدون بسلاسل ضخمة، لا يعرفون بطبيعة الحال، إلى أين هم ذاهبون، في هذه الساعة من الليل. كان شيئاً غامضاً يدب في الأفق، لا أحد يعرف ما ستؤول إليه الأحداث بعد يومين من الانقلاب الذي أطاح بحكومتهم بمساعدة الجيش البلجيكي.

وفي السيارة الخامسة عناصر من الشرطة العسكرية، وهم في كامل عدتهم العسكرية وقيافتهم، حيث كانت بزاتهم الكاكية مكوية كأنهم ذاهبون إلى حفلة، وأسلحتهم المزيتة جيداً بلجيكية الصنع، يعرفون أنهم ذاهبون في مهمة خطرة، ربما هي الأخطر في كل حياتهم العسكرية.

انعطف الموكب نحو اليمين تجاه مفرق طريق مشجر، وبعد مسافة قصيرة، ربما لا تتعدى عدة مئات من الأمتار، أخذ الموكب مساراً ضيقاً إلى اليسار، ثم اتخذ شارعاً واسعاً يؤدي إلى مدينة أخرى. كانت سيارة الليفتاننت غات والعريف فرشير هي من يقود كل هذا الموكب.

انطلقت السيارات الأمريكية بسرعة، بل إن فرشير أخذ يضغط على الدواسة وكأنه يسابق الوقت، كان يريد أن يصل إلى المكان، قبل أن يطلع الصباح. فلا بد لهذه العملية أن تتم في الليل. وصلت السيارات إلى مفترق طرق، ثم تابعت مسيرها في طريق يؤدي إلى مدينة مشهورة بشلالاتها. منطقة مستنقعية وموطن لأسراب الطيور، ربما هذا هو المكان الذي سيشهد هذه اللحظة التاريخية، حيث ستطوى صفحة قديمة في أفريقيا، وتأتي صفحة بعدها.

على بعد ثلاث مئة متر من هذه المستنقعات المائية، وصل الموكب إلى فسحة معشبة ومشجرة. كانت الساعة العاشرة وخمساً وأربعين دقيقة ليلاً، كان فرشير هادئاً خلف المقود، الليفتاننت غات كان هادئاً هو الآخر، مع أنه بدا مضطرباً قليلاً وهو يخرج من جيبه علبة سجائره، تلمس بأصبعه السيجارة الغلواز، أخرجها، عدّلها بأصابعه، وضعها في فمه وأخذ يدخن بهدوء شديد.

تجمعت سيارات الشرطة لتنير بقعة محددة بالأضواء الأمامية. هبط المفوض فرشير، وسار وسط هذه البقعة التي أنارتها ليظهر مداها وسعتها الى الليفتاننت. أشار الليفتاننت إليه بالموافقة، ونظر إلى ساعته بانتظار بقية الموكب. بعد دقيقتين وصلت جميع السيارات. هبط الليفتاننت واتكأ على بنيد السيارة وهو ينظر إلى فرشير الذي أخرج تورجاً صغيراً من جيب بنطلونه وأشعله، ثم سار نحو أفراد الشرطة العسكرية الذين ترجلوا من سياراتهم... بنوره الضئيل الذي وجّهه إلى وجوه الشرطة العسكرية اختار تسعة أشخاص منهم للتنفيذ. كانت هناك شجرة مهيبة ترتفع إلى حوالي عشرة أمتار ويبلغ قطرها متراً واحداً فقط. أشار إليهم للتوقف بشكل مستقيم أمام الشجرة وليأخذوا وضعية التأهب بالسلاح.

خرج الجميع من سياراتهم وانضموا إلى الشرطة، ما عدا السجناء بقوا هناك في الداخل لا يعرفون ماذا يحدث، ربما أحدسوا شيئاً ما في هذه الرحلة الغامضة، ربما شعروا بأن عملية ما ستحدث مثل مسرحية شكسبيرية... فكرة ما... نقاش... ولكن من دون شيء محدد أبداً.

تبادل الليفتاننت غات بضع كلمات مع الوزراء الأفارقة الذين كانوا واقفين هناك، كانوا في مزاج جيد وأطلقوا عدة نكات، وقالوا إنهم مستعجلون جداً ليروا رفاق الأمس معفرين بالدم والتراب، إنه ثمن سيزيري، ولن يسمعوا منه الجملة الشهيرة التي ربما ستجعل بروتس يخجل منها على مدى التاريخ... لا... سيكون كل شيء معد من مائدة الخمر والدم... والصوت سوف يختفي تحت وابل الرصاص حتماً.

كان أحدهم عصبياً يدخن السيجارة تلو الأخرى.

نريد أن نراهم تحت ضوء السيارة لا تحت ضياء القمر.

حسن... قال فرشير وهو يبتسم بهدوء كبير.

أمر اثنين من الشرطة العسكرية أن يُخرجوا السجناء من السيارة. فتحوا الأبواب وجروهم بعنف، كانوا حفاة لا يرتدون سوى بناطيلهم وستراتهم. بهدوء شديد اقترب منهم فرشير وأزال عنهم قيودهم، نظر في وجه أحدهم هو الأصغر والأوسم، ولكنه كما يبدو هو القائد، وابتسم له... أراد أن يقول له شامتاً:

ـ هذا جزاء من يقف في وجه الرجل الأبيض.

دفعهم بيده وأمرهم بالمسير... التفت إليه هذا السجين وسأله:

ـ ستقتلوننا، أليس كذلك؟

رد فرشير ببساطة: نعم، ماذا تعتقد؟ هل سنأخذك في هذا الوقت من الليل إلى حفلة.

ضحك الوزراء السود بينما تقبل السجين بجرأة إعلان موته الوشيك، تقبله وهو يسير بعرج خفيف في قدمه اليسرى جراء الضرب الذي أكله قبل يوم على يد فرشير.

وقف السجناء الثلاثة في الممر يحيط بهم الجنود ورجال الشرطة، كانوا قد تحملوا الضرب في الساعات السابقة.

أخبرهم فرشير بأنهم سيطلقون عليهم الرصاص، وأعطاهم الوقت ليتلوا صلواتهم.

ـ لا... هذا مناقض لكل القوانين... هذا انقلاب غير شرعي دبرتموه ضد مصالح بلادنا... الكلمة الأخيرة التي سمعت من هذا الرجل.

* * *

استعدت فرقة إطلاق النار الأولى المكونة من جنديين يحملان بندقيتين وشرطيين برشاشين، ويبدو أن أحداً ترنم بلحن محلي.

أخذ فرشير أحد السجناء إلى الشجرة، وأوقفه عندها. قال السجين وهو يواجه موته:

ـ أطلب منك شيئاً؟

ـ ما هو؟

ـ أن تعتنوا بزوجتي وأولادي.

قال فرشير ساخراً:

ـ سيعتني الرب بهم.

اتكأ الرجل مستسلماً إلى الشجرة، ووجّه وجهه نحو فرقة القتل التي أخذت وضعية التأهب بالسلاح على مبعدة أربعة أمتار فقط. ثوانٍ وقد انهمر وابل قصير من الرصاص، سقط على أثره ميتاً. بينما ابتسم الليفتاننت غات وهو يشعل سيجارة أخرى.

ركض بضعة جنود إلى الجثة وسحبوها إلى حافة حفرة قريبة. سار فرشير وسحب السجين الثاني وأسنده إلى الشجرة التي تثقبت بالرصاص وبقع الدم، ثم انسحب ليرى تحت النور السجين الثاني وهو يغمض عينيه أمام فرقة الإعدام الثانية، وحين سمع الليفتاننت الجولة الجديدة من الرصاص ابتسم أيضاً، وقد رأى من مكانه كيف تلوى السجين وسقط على وجهه، وقد حصل على رشقة رصاص أخرى وهو على الأرض.

وأخيراً اقتيد الشخص الأهم...

السجين... القائد الوسيم...

الكل تأهب ليرى هذا المشهد الذي حلم به منذ زمن بعيد. حتى الليفتاننت غات رمى سيجارته من يده ووقف على طوله بعد أن كان متكئاً إلى البنيد، بينما تزاحم الوزراء كي يروا ما سيحدث لهذا المتمرد الذي شق عصا الطاعة.

سحبه فرشير من يده... فسار معه باستسلام كامل. كان صامتاً مذهولاً تماماً وعيناه زائغتان، ولم يبد أية مقاومة، كان يرتجف. فرح الجميع برؤيته هكذا...

واجه زمرة القتل الثالثة ووابلاً هائلاً من الرصاص، وأصبح جسد باتريس لومومبا كالغربال لكثرة ثقوب الرصاص.

* * *

بعد التنفيذ، كانت الأرض قد امتلأت بنحو نصف كيلوغرام من الرصاصات الفارغة.

* * *

منذ ثلاثة وخمسين عاماً تقريباً وهذه الشجرة لا تزال مثقبة بالرصاص.

أنجزت العملية كلها بحوالي خمس عشرة دقيقة. وتم التخلص نهائياً من الجثث بعد أربعة أيام بتقطيعها إلى قطع صغيرة وإذابتها في حمض الكبريتيك. ونفذ هذه المهمة ضابط شرطة بلجيكي اسمه جيرارد سويت، وكان الحمض في شاحنة مملوكة لشركة تعدين بلجيكية. وقد اعترف سويت بذلك في لقاء تلفزيوني أجري معه عام 1999، وقال إنه احتفظ باثنين من أسنان هذا القائد كـ«تذكار» لسنوات عدة، ثم تخلص منهما بإلقائهما في بحر الشمال.

* * *

كل هذا كان يعرفه الأستاذ ويتخيله بدقة شديدة كلما يسمع بهذا الاسم، ولا سيما عندما يشعر أن لجوءه قد رفض في هذا البلد أيضاً.

لو كان لجوؤه قد قبل من قبل السلطات هناك... لما مر هذا المشهد الشنيع الذي حدث لهذا البطل الأفريقي، في ذهنه. ولكان قد نسي هذا المشهد التراجيدي والمخجل تماماً، وحينها سوف لن يرى في بلجيكا غير النساء الجميلات اللواتي كن يرقصن في الساحة في استقبال اللاجئين السوريين...

ولكن آه قد فاتت الفرصة على بلجيكا، وعليها أن تواجه فضيحتها كل يوم في مخيلة هذا الأستاذ الماركسي الذي رفضوا لجوءه لأنه يذكرهم بتاريخهم المخزي إزاء العالم الثالث.

شخص غير مرغوب به

أفنيو لويز يغوص الآن في عتمة الصباح. إنها الساعة السابعة تقريباً، وعلى الأرض طبقة من الجليد لم تذب بعد، بينما ظهر الموظفون بأناقتهم الرسمية، من خلف الزجاج، يجلسون في المقاهي يتناولون القهوة، مع الخبز المحمص الممسوح بالزبدة، يستمعون إلى الموسيقى الهادئة، ويقرؤون الصحف، مثل «لو سوار» بالفرنسية، أو «دو ستاندارد»، الصحيفة الفلامانية التي أُسست في العام 1918 في بروكسل، قبل أن يتجهوا إلى المترو لأخذ القطارات حيث أعمالهم ومكاتبهم في الضواحي.

* * *

بكّر كلاهما بالنهوض من النوم بالرغم من سهرتهما في الليلة الفائتة، حتى ساعة متأخرة.

في منزل جلال في السان جوس، خلفت السهرة الجميلة، كؤوس النبيذ غير المغسولة. كوماً من القناني الفارغة. المنافض الطافحة بأعقاب السجائر والرماد. فتات الخبز والجبنة. نوى الزيتون. وأخيراً الصحون والملاعق والشوكات التي بقيت كلها متناثرة على المنضدة.

نفض جلال البطانيات بقدميه، أشعل سيجارة قبل أن يتناول قهوته، وأخذ يراقب صعود الدخان من سيجارته المارلبورو وهو يتلوى إلى أعلى. سيجارتان له في العلبة، واحدة أشعلها والأخرى أبقاها كي يدخنها عند

خروجه مع فنجان القهوة المهيلة ماركة النجار التي اشترى أوقية منها من محلات السوري في أول جادة لوفان قرب بلاس دو مادو، لأن دلال إذا جاءت مع الأستاذ عنده لا تشرب إلا هذه الماركة.

* * *

غير أن مكوثه في الفراش قد أخذ وقتاً طويلاً نوعاً ما، بقي ساكناً مخدراً في فراشه الدافئ. بينما نهض الأستاذ سريعاً، رفس الفراش وقفز من مكانه، ارتدى الصندل قرب السرير، وهرع إلى الحمام، أخذ الدوش وغسل شعره بالشامبو، آخر قطرات في العلبة، إنها من ماركة لوريال مين توتال كلين التي يفضلها على كل أنواع الشامبو، وذلك لرائحتها الشذية، المشكلة أنه لا يتنازل عن حياة اللوكس الذي يريد أن يحياها حتى لو كان هنالك آخر أورو في جيبه.

حلق لحيته أمام المرآة بعد أن وضع الكثير من رغوة الحلاقة على وجهه، ومسحها بعد ذلك بالمنشفة كي يبقى وجهه طرياً، رطباً. ثم ارتدى ملابس أنيقة حافظ عليها على الدوام من سنوات، لأنه يعرف أنه لا يمكنه أن يستبدلها بجديدة في الوقت الحاضر، مطلقاً. توقف أمام المرآة ليتأكد من أن أناقته على أكمل وجه، قبل أن يخرج ويغلق الباب بالمفتاح.

* * *

خرج جلال من شقته على عجل، لم يكمل شرب قهوته التي كانت ساخنة جداً، ولم يكن ينتظرها كي تبرد، رشف منها رشفتين أو ثلاثاً وهي ساخنة جداً بحيث أشعلت له لسانه، ثم هرع خارجاً. كان يرتدي ملابس نظيفة لكنها غير مكوية، وكانت لحيته نابتة، وضع سيجارته في فمه، وأقفل الباب وأعاد المفتاح إلى جيبه. لقد شعر بأنه قد تأخر كثيراً على الموعد، وكان

يدرك أنه لن يصل في الوقت المناسب، ولا سيما أنه قرر أن يتخذ الطريق من مادو إلى لويز سيراً على الأقدام. في الطريق أدرك أنه نسي تلفونه البورتابل في المنزل. ارتبك قليلاً أراد أن يعود ليجلبه، لكنه عدّل رأيه، فلو ذهب لتأخر كثيراً.

* * *

وفي الوقت المحدد، أي في الساعة السابعة صباحاً بالضبط، وهو الوقت الذي حدده جلال لهذه المقابلة، وصل الأستاذ إلى ساحة لويز مسرعاً، كان قلقاً، لكنه وصل ولم يتأخر عن الموعد دقيقة واحدة.

توقف عند بوابة المترو، عند السلم الكهربائي بالضبط، رفع رأسه إلى أعلى شاهد يافطة مكتوباً عليها باتريس لومومبا... ثم صار تقريباً في مواجهة الحشود المتدفقة من الدهليز القادم من تحت الأرض إلى شارع لويز. شعور بالحرج والتوتر، شعور سيئ بالاضطراب. لذا قرر أن يتحرك من هذا المكان إلى المكان المقابل.

وضع سيجارته في فمه. دس يديه في جيبي معطفه الأسود وتحرك سيراً على الأقدام، سار سيراً بطيئاً حتى وصل إلى ساحة ستيفاني. كان البرد قد اشتد مع قدوم المساء وحلول الظلام. موسيقى الصباح تنبعث من بار قريب بصورة هادئة ولكن متواصلة. رائحة القهوة الدافئة تمزق غلالة البرد المحيطة به كلما مر من مقهى وقد انفتح بابه إلى أحد الزبائن. عطور نساء جميلات يسرن بهدوء يرفرفن بأهدابهن الطويلة دون أن ينظرن إليه. نساء جميلات يرتدين معاطف سوداً طويلة مصنوعة من الصوف الناعم. ذاهبات إلى المتاجر أو المكاتب القريبة أو الى محطة المترو. وحين تجاوزت الساعة الموعد بعشر دقائق، قلق من تأخر جلال... أخرج تلفونه واتصل به

ليستعلم منه أين هو، لكن جلالاً لم يرد، فازدادت مخاوفه. لقد انعدم عنده الزمن، شعر بالغضب فهو لم يتفق مع جلال على موعد إلا وأخلفه، وها هو اليوم يكرر الشيء ذاته، من دون أن يعير الأستاذ اهتمامه، عليه أن يعرف قال الأستاذ في قلبه وهو يصل إلى محلات زارا الواقعة على الجهة اليمنى من شارع لويز:

في حالته هو، لا يشعر في هذه الأماكن الراقية بالراحة. فهي تحوي على كل ما يجذب الشرطة: من وزراء هاربين، من سياسيين محترفين، من تجار، إلى محلات تحتوي على أهم الماركات العالمية، ولهذا السبب أيضاً هنالك الكثير من رجال البوليس، الذين يمرون بدورياتهم في المكان، يراقبون كل شخص يقترب من هذه الأماكن الراقية،... وهو لا يملك سوى أوراق مزيفة.

صحيح أنه فلت بها عشرات المرات، ولكنه يعرف أنه في يوم من الأيام سيكون عرضة للانكشاف، وسيتهدم كل شيء.

* * *

لقد تأخر جلال عليه كثيراً جداً، نصف ساعة ولم يأت، لا يعرف ماذا يفعل، لا يعرف كيف يتصرف. شعر بألم ما في قلبه، يصل أحياناً إلى معدته، يعطيه شعوراً برغبة بالتقيؤ، شعور بالغثيان والقرف في وقت واحد. فكر في نفسه، إن الشعور الذي يحمله في تلك الساعة كان مذلاً، فشعوره بنفسه خائفاً مرتعداً لأنه من دون أوراق صحيحة، بأوراق مزورة لا يعرف متى سوف يكشف عن زيفها ويقتاد حينها لا بسبب عدم امتلاكه للأوراق فقط إنما بسبب التزييف أيضاً هو الشعور ذاته لإنسان محطم أو مهدم، كما لو كان من دون يد، أو من دون عين، أو من دون أنف أو من دون لسان.

اتكأ على حافة عمود كهربائي وأخذ يحك أنفه بأصبعه، أخذ ينظر إلى

الناس ولكن بيأس هذه المرة. صعد ألم محض من داخله، جعله يقول في نفسه:

ـ ليتني لم أقبل بهذه العملية...

سار قليلاً في الشارع ثم عاد ليتكئ على عمود الكهرباء، نظر إلى ساعته، لقد تأخر جلال وهو لا يشعر بالراحة في هذا المكان أبداً.

«لماذا تأخرت يا جلال؟» قال في نفسه.

تذكر كيف كان يسير في شوارع بغداد في المساء وكان خائفاً أيضاً، كان خائفاً بسبب الحرب الطائفية، وكان يحمل في جيبه أوراقاً مزورة، واحدة تثبت أنه شيعي وأخرى تثبت أنه سني. خطأ واحد وتحل الكارثة. فلو قدم أوراقه الخطأ للجهة الخطأ حينها سيكون دمه مهدوراً لا محالة. حين طرقت هذه الفكرة دماغه لم يهدأ له بال، بعدها أخذت المخاوف مع الوقت تتصاعد في قلبه، تتضخم بطريقة غير معقولة. وهو الخائف، والمرتعب أصلاً، وربما شعر في ذلك الوقت بالتدني أيضاً، هذا الشعور أخذ يرافقه منذ أن رفضت السلطات البلجيكية منحه اللجوء. فشعر وقتها بأنه ليس بشرياً أبداً، هو حشرة ربما، ذبابة على أيّ حال، خنفساء كريهة، بل هو قمامة تعيش على حافة الكون، قمامة ولا أكثر، بل لا يمكنه أن يكون من الكائنات الطبيعية العاقلة، أبداً، أبداً.

وقد أثر هذا الشعور على سلوكه.

في البداية وصل في شطحه الجنسي إلى رحلات عوليسية في تخوم عوالم الحس والشهوة حيث تحولت الرغبات الجامحة لديه إلى مركب سكران لا دفة له ولا مجذاف، ثم انتقل بعدها إلى صداقة مع مجموعة من الرجال الشريرين المحكومين بالعبث والهوس والمخاطرات، وقد جرب

كل ما يمكن أن يصنعه اليأس له من هلوسات وهذر، ثم انتهى إلى عصابة للتهريب، تنجح مرة وتفشل مرات، إلا أنه لم يصل معها حتى الآن إلى الموت المحتوم.

* * *

شعر بالكآبة في تلك اللحظة، لقد شعر بنفسه مثل حشرة هائمة على وجهها في هذا الكون، والكل يطاردها كي يسحقها. شعر بنفسه أنه عنكبوت لا أكثر في هذا العالم، إنه بعوضة هائمة، مثله مثل الذين شردهم الليل وتاهت بهم الحياة، إنه سقط متاع لا أكثر ومطلوب على الدوام من جهة ما، شعر بنفسه مثل طريدة، طريدة دمها مهدور من كل شخص، من كل شخص يريد قتلها أو تصفيتها.

شيء شبيه بما كان يطلق عليه بالرجل المقدس Homo socer في القانون الروماني، وهو شخص ألغيت حقوقه المدنية لجريمة ما قد ارتكبها، فيصبح دمه مهدوراً من أيّ شخص في الطريق، أيّ شخص يمكن أن يقتله، أيّ شخص يمكنه أن يتعدى عليه ويهينه ويسلبه حياته، وهو صامت، خائف وذليل.

مهنة القتل

«لو كان لي مسدس فلاديمير للعبت فيه لعبة الموت...».

قال الأستاذ مرة لجلال. إنها لعبة فلاديمير في المقهى، لعبته الأثيرة كل يوم أحد تقريباً، يضع في الساقية الدوارة لمسدسه التي تحتوي ثقوباً لست طلقات رصاصة واحدة، وهي ما تسمى عادة بالبكرة، يدير البكرة، ثم يصوب إلى رأسه، ويطلق النار، فتكون فرصة نجاته واحداً من ستة. اللعبة المعروفة بالروليت الروسية، قد تصيب فيموت وقد لا تصيب ويحيا، وكل مرة يحيا فلاديمير بقدرة لا أحد يعرف أحد ما هي، أو من أين تأتيه، أو كيف يتوصل إليها، ثم يجمع المال من الزبائن لقاء ارتعاشتهم لهذا الحدث، لتكفيه أسبوعاً كاملاً من الطعام وشرب التكيلا والإنفاق على صديقته.

الروليت الروسية التي يمارسها فلاديمير في كل يوم أحد تجعل قلوب الجالسين تتوقف من الرعب. ولهذه اللحظات المرعبة فإنهم يدفعون المال لفلاديمير. بالنسبة لفلاديمير هي تسلية، تسليته المفضلة، ولا سيما حينما يشرب قنينة كاملة من الفودكا، أو حينما يشرب عدداً كبيراً من شوتات التكيلا. وحين ذهب الأستاذ مرة مع جلال إلى المقهى، ورأى فلاديمير يصوب إلى رأسه ويخطئه القدر، أحب من قلبه أن يجربها، وقد قال مرة لجلال:

ـ أريد أن أجرب هذه اللعبة من كل قلبي!

ـ ماذا قلت... هل أنت مجنون؟

ـ لمَ لا؟

ـ لأنك لو لعبتها ستموت حتماً... قال جلال بثقة كاملة.

توقف الأستاذ قليلاً، ثم أدار وجهه صوب جلال وقال:

ـ سيكون لديّ حينها شعور بالغبطة لا يوصف... لقد رأيت فلاديمير وهو يفلت من القدر كل مرة، كنت أرتجف من السعادة وأنا أراه كل مرة يفلت من قدر كئيب.

ـ ولكنك لن تفلت...

ـ وكيف لا أفلت وقد فلت هو مرات ومرات؟

ـ ببساطة شديدة لأنه روسي.

ـ ماذا يعني؟

ـ لا أعرف ماذا يعني ولكنها تسمى الروليت الروسية!

ـ يعني لو كان اسمها الروليت العربية سيتغير الأمر؟

ـ نعم لكان قد مات من زمان...

ـ لماذا؟

ـ أنت قلت لي مرة... هذا الأمر...

ـ ماذا قلت لك؟

ـ قلت لي كل شيء فيه عربي نهايته سيئة!

ـ هذا صحيح... ولكني قلتها عن البيتزا...

ـ وماذا يختلف؟

ـ يختلف بالتأكيد...

بدا الأستاذ غير راضٍ عن ملاحظات جلال. وقد سمع بعد ثوانٍ من الصمت صوت جلال:

ـ خذ حذرك هذا موت وليس تسلية. قالها بكثير من الجدية...

لكن الأستاذ استغرب إيمان جلال المبالغ فيه بالحياة:

«ألأنه فقط لديه أوراق، وقد حصل على اللجوء هنا، لذلك هو يشعر بتعظيم كثيف للحياة...

الموت... ما به؟ إنه جميل أيضاً. ربما أكثر من أية حياة».

ـ من هو...؟

ـ الموت! قال الأستاذ وكان قلبه يخفق مثل قلب المراهقة، وقد أثارتها الشهوة.

ـ عماذا تتكلم أنت؟

صمت كلاهما... غير أن الأستاذ وضع قدمه على الكرسي الذي أمامه وأخذ يدخن. كان يفكر في مملكة الموت، حيث لا توجد جدران، ولا أسماء، ولا أرقام، ولا ملفات شرطة، حيث لا توجد سجلات عائلية، ولا عقود محررة أمام كاتب العدل، ولا علامات مرعبة منقوشة على الأذرع، وفي باطن الأقدام، ولا ثقوب ناتجة عن وخزات البيرسنغ في الفم والأنف، وليس هنالك لا طوابع ولا صور، ولا بصمات إبهام، ولا مشدات تحيط المعاصم أو جوارب مشدودة على كواحل الأرجل.

ليس هناك ربما سوى القمر وهو يرتفع كثيراً في السماء، ولا يأتيه من الأرض سوى صوت الكلاب البريئة وهي تعوي نحوه. صوت هائل! ولا يرى من الأرض غير عيون النساء مثل عيون الآلهة وهي تلمع.

جلال والعصابة الألبانية

وقف الأستاذ قليلاً أمام باص في ساحة ستيفاني ثم أخذ يذرع الشارع جيئة وذهاباً.

نظر إلى ساعته مستاء وقد تجاوز الوقت الموعد بأكثر من نصف ساعة، حينها قرر أن يغادر المكان حالاً لأن جلالاً قد تأخر كثيراً... فسار مسرعاً متجهاً جنوباً إلى أن وصل إلى محطة المترو، وقبل أن يعبر الشارع إلى الرصيف الآخر ويغادر كلياً حتى شاهد جلالاً مقبلاً من بعيد وهو يسير بصورة سريعة... ففرح جداً، رفع يده من بعيد ليدّله على نفسه، بعد أن حجبته مجموعة من الموظفات الواقفات عند إشارة المرور كي يعبرن إلى الجهة الأخرى.

من الواضح أن جلالاً لم يره، حينها تحرك الأستاذ قليلاً أمام الكشك كي يكون مرئياً من قبل جلال... ولكن جلالاً لم يره أيضاً، مع ذلك مد يده إلى جيبه وأخرج علبة سجائره وتناول سيجارة أشعلها وأخذ يطلق الدخان في الهواء، منتظراً جلالاً ريثما يصل.

كان يعرف أن جلالاً لا بد أن يمر بهذا الطريق ويلتقيه ليس له أيّ مناص آخر. ذلك أن الموعد هو تحت عمارة لوموبا، وها هو واقف تحتها... فأخذ يتخطى بهدوء قلق قرب فوهة المترو حينها سمع مجموعة من الدراجات النارية وراءه، التفت فشاهد مستغرباً خمس دراجات نارية: اثنتان من نوع هارلي وواحدة أم. زد. واثنتان سازوكي. عليها شبان يرتدون اللون الأسود

ويضعون على رؤوسهم قلنسوات سوداً أيضاً، تبينهم جيداً فأدرك أنهم العصابة الألبانية يقودهم سارق التلفونات... وكانت الدراجات قد أبطأت السرعة عند الرصيف، ومن الواضح أنها كانت موجهة لجلال، غير أن جلالاً لم ينتبه لها.

ركض الأستاذ بهدوء دون أن يثير انتباههم، أراد أن ينبه جلالاً، فرفع يده إلى أعلى وأطلق صيحة غير مفهومة، علّ جلالاً أن ينتبه لها ويرى أمامه العصابة، فيهرب، أو يعود من حيث أتى. غير أن جلالاً لم يره، واستمر ماشياً بسرعة، ظناً منه أنه يسير ليلحق بموعده مع الأستاذ، ومن دون أن يشعر وقع في الفخ، أي بين دائرة الدراجات النارية، والشبان المسلحين بالسلاسل والسكاكين.

* * *

رفع جلال رأسه فوجد نفسه وسطهم، وهم يدورون حوله حلقة، وهم يضحكون ويطلقون الصراخ، ففر أكثر المارين من هذا المكان، حيث رأوا مشهداً مخيفاً، مرعباً، لم يروا من قبل، مثله، أبداً. ثم أخذوا يضيقون الحلقة شيئاً فشيئاً حوله، فعرف أنه إن ركض هكذا أمامهم فسيكون ظهره حينها مكشوفاً لهم، فأخذ يتراجع بسرعة إلى الوراء، وعيناه تراقبانهم من أجل أن يجد مسافة صغيرة مكشوفة يفلت من خلالها ثم يدخل في فوهة المترو، حيث لا تستطيع الدراجات متابعته، وهكذا سيفلت منهم.

غير أن أحدهم كان في مواجهته تماماً، أدار مقود دراجته يميناً بيده اليسرى، وباليد اليمنى التي تمسك السلسلة هوى على جلال بضربة موجهة نحو بطنه، وهو يطلق صرخة عالية. إلا أن جلالاً قفز منها مسرعاً، ولكنه لم يفلت منها كلياً فقد لاحته قليلاً في يده، أوجعته في رسغه، أراد أن

يطلق صرخة غضب غير أنه كظمها، كما أن كمية الخوف التي هيمنت عليه لحظتها منعته من أيّ رد فعل سوى أن يفكر بكيفية الهروب والخلاص من هذه الدائرة القاتلة.

لقد اندفعت نحوه دراجتان راكباها يحملان أسلحة، الأول كان يحمل سكيناً والآخر سلسلة، غير أنهما تصادما قبل الوصول إليه وسقطا أرضاً، وهكذا قفز جلال بسرعة نحو الفوهة إلى أن أحدهم عاجله بضربة أخرى على قدمه فسقط جلال أرضاً، وهكذا تجمعت الدراجات حوله.

* * *

كاد قلب الأستاذ أن يتوقف وهو يرى جلالاً وسط الدراجات وقد حمل كل واحد منهم سلسلة أو سكيناً، من الواضح أن سارق التلفونات الألباني أراد أن ينتقم من جلال بعد أن رافق فلاديمير الروسي في البار وقد أهاناه إهانة كبيرة، فتقدم نحو جلال ولطمه بقدمه على وجهه، فانكفأ جلال. ثم تقدم نحوه بجزمته الجلدية وأراد أن يسحق رأسه بالحذاء، حينها بدأ يسمع الأستاذ أصوات سيارات الشرطة وهي تقترب من المكان، من الواضح أن شخصاً ما قد اتصل بالشرطة ليخبرهم بهذا المشهد الغريب غير المألوف في بروكسل.

ارتبك الألبان حين سمعوا أصوات النجدة، وركبوا دراجاتهم بسرعة، ضربوا على بايدراتها فارتفع الدخان في الهواء ثم انطلقوا، متفرقين كل واحد منهم إلى جهة مختلفة عن الآخر، تاركين جلالاً وحده قرب المترو ممدداً على الأرض.

وصلت الشرطة وتجمعت حول جلال الممدد على الأرض، ساعدوه على النهوض تأكدوا من سلامته وتكلموا معه.

من الواضح أنه لم يتأذَّ، ولم يرَ الأستاذ وهو ينظر إليه من بعيد، غير قليل من الدم عند أنفه، ولكنه اطمأن من أنه بصحة جيدة، لا شيء خطير على هيئته، لا كسور ولا رضوض ولا دماء ولا عرج ولا أيّ شيء.

عندها أمسك شرطيان بذراعيه واقتاداه إلى سيارتهما، كان الشرطيان عابسين، بينما كان جلال مبتسماً، ونظراته في عيون الناس التي تجمعت كي ترى المشهد تلمع مثل سكين. أركباه مركبة البوليس وانطلقت به، والأستاذ لا يعرف إلى أين يأخذونه بالضبط.

الوزراء المنكوبون والملك الظليل

بعد أن أركبوا جلالاً في سيارة الشرطة ورحلوا به بعيداً عن المكان. سار الأستاذ وحده في الشارع، وقد كان هذه المرة أقل خوفاً، وأكثر هدوءاً. وأثناء مسيره في الشارع شاهد بعينه هذه الظاهرة التي كلّمه عنها جلال وهي كثرة العائلات العربية الثرية في أفنيو لويز. فقد شاهد بعض وجوه الشخصيات المعروفة لديه من التلفزيون أو في الصحافة وهي تسير في الشارع.

* * *

هبط أحدهم من سيارة التاكسي التي أقلّته مع زوجته، ومن الواضح أنه قادم من المطار، وحين سمع الأستاذ أنهما يتكلمان فيما بينهما بالعربية توقف ولم يعبر الشارع، تشاغل بشيء أخرجه من جيبه وكان يرهف سمعه إليهما:

ـ ألا تحمل هذه الحقيبة عني...؟

ـ ألا ترين أني حملت الحقيبة الكبيرة...

ـ ولكن هذه الحقيبة ثقيلة عليَّ!

ـ قلت لك لا تأخذي ملابس كثيرة ولكنك أصريت على ذلك.

ـ أحتاج هذه الملابس...

ـ كل هذه الملابس... يا اللّه... كم قلت لك ذلك...

ـ أنت تنتقدني اليوم على كل شيء!

ـ حذرتك من أنك لن ترتدي كل هذه الملابس...

ـ أنت تحذرني من كل شيء.

ـ لقد أخذت ملابس أكثر... قلت لك ربما نعود...

ـ أين نعود؟

ـ كفِّي عن هذا الكلام أنت أخذت ملابس أكثر من اللازم تريدينني الآن أن أحملها عنك...

ـ ألا تتوقف عن ملاحظتك...؟

ـ أنا قلت لك هذا الأمر قبل أن نحزم الحقائب...

* * *

سار الأستاذ أمامهما. كان الأفنيو مزدحماً بالمارة. الشمس كانت ساطعة، هبات الهواء تأتيه باردة منعشة. قطع مسافة ليست طويلة جداً، ولكن صوتهما الذي يأتيه من بعيد، أخذ يخفت بين أصوات العابرين حتى تلاشى. كما أنهما تلاشيا من ذاكرته تماماً بعد خمسين ياردة تقريباً، لم يعد يفكر بهما مطلقاً.

كل شيء ذاب في الطريق. كانت البنايات الهائلة، المتراصة؛ ببدنها ذي الأحجار الدائرية وأسوارها الضخمة، تربض تحت أشعة الشمس. وهنالك منزل كبير كان قد ملكه فيما مضى ملك مخلوع لا يعرف الأستاذ من هو بالضبط. ملك من أفريقيا أو من آسيا لم يعد يتذكر، كان قد جاء بعد

ثورة عارمة ضده، قد أنتجت فوضى وحرباً أهلية بعده، وهرب إلى هذا المكان كي يشارك السياسيين المنكوبين حياتهم، ومكانهم، والفسحة التي يشغلونها في التاريخ ذاتها.

فكر الأستاذ في نفسه أن هذا الملك بقي متشبثاً بصورة الملك الحقيقية، ولم يهبط لرتبة الوزراء، وذلك بتعاليه وترفعه واختبائه في منزله، فمن النادر أن يراه أحد في الشارع أو في المطعم أو في أحد المحلات، لقد حجب نفسه خلف هذا المنزل الكبير الذي تشمخ من أحد جانبيه مدخنة طويلة مثل قرن، أما الشرفات والدربزونات فتلمع تحت بريق أشعة الشمس، فتضيء زجاج نوافذها كأنها عيون.

* * *

بقي الأستاذ ساكناً متأملاً ذلك المنزل الذي يشبه القصر، وتخيل الملك المخلوع جالساً على أريكة فسيحة، وحيداً متأملاً صوره الموضوعة على الجدار. وفي لحظة ما كان قد لمح، لا يعرف كيف، لا يعرف إن كان ذلك حقيقة أم خيالاً، كانت هنالك قامة رجل يطل نحو الخارج، وفكر ربما هذا هو نفسه، إنه الملك ذاته، وقد أخذ ينظر نحوه. فشعر بقشعريرة سرت في بدنه كله، فتحرك وغادر المكان على الفور، وحين وصل إلى منزله، أخرج قطعة بيتزا من الثلاجة ووضعها في الفرن، ثم جلس وأخذ يتصل بدلال ليخبرها بما حدث لجلال في هذا اليوم.

الفصل السادس:

جيوفاني جونتيله، الفاشي والكومبارس

من أوراق جلال

الورقة VI

وقف ليستمع لصوت الحارة، صوت الحارة الأفريقية. لينصت إلى ضجيج شوارعها، إلى حركة المرور المزدحمة، إلى أسواقها في الهواء الطلق يوم الأحد.

هناك حيث يلعب البهلوانيون الأكروباتيك، ويعزف الموسيقيون الموسيقى الشعبية.

هناك!

حيث الشوارع تكتظ بالسابلة، بسيارات التاكسي، برائحة الدواجن، بالزيت الحار، بالسمك المقلي، ورائحة الفواكه المتعفنة.

ـ هل جاء الربيع؟

ـ نعم جاء إلا أنه لم يعد موجوداً البتة!

موعد في بروكسل

قبل أن يصل جلال إلى بار اللوكوك قرب البورصة. شعر وهو سائر في الطريق أن هذا العالم كله ينطوي على فعلين اثنين هما الرغبة والمكر!

كانت هنالك مجموعة من المشاعر الغريبة التي تنتابه في ذلك اليوم، ممزوجة مع نوع من التقزز حيال الأفكار المتناقضة التي سمعها من الوزير حين التقى به، بالأمس مساء! مشاعر متناقضة وحزينة في الوقت ذاته، لكنها تنطوي على فعل واحد هو القسوة...

وقد جاء اليوم إلى بار اللوكوك على موعد مع الأستاذ ودلال ليحدثهما عما دار بينهما في ذلك اللقاء الذي حدث في منزل الوزير عقب يومين اثنين بالضبط من إطلاق سراحه من قبل الشرطة البلجيكية، عندما قبضت عليه بعد أن ضرب وأهين من قبل العصابة الألبانية عند المترو.

وقد تحادثا هو والأستاذ بالتلفون بعد ذلك ولكنهما لم يلتقيا.

ـ خفت عليك يا رجل... قال له الأستاذ وهو يلهث حينما سمع صوت جلال بالتلفون... وأكمل:

«حينما رأيتهم أحاطوك من كل جانب بالدراجات والسلاسل قلت إنك ستقتل لا محالة...».

ـ لا... لا يستطيعون قتل الشيطان... ألم أقل لك إني شيطان... قال له جلال وهو يضحك.

ـ هل أنت بخير... هل تأذيت...؟

ـ لا أشياء بسيطة...

ـ أنا أقول إنك تتركهم أفضل...

ـ لن أتركهم سنطاردهم أنا وفلاديمير...

ـ هل ما زال حياً هذا المجنون أيضاً...

ـ إنه حي... كل أحد يلعب لعبة الروليت الروسية في المقهى وتخطئه الرصاصة...

ـ ولكن كيف؟ سأل الأستاذ بشغف.

ـ نصف شيطان نصف إله...

ـ بطل من أبطال روسيا العظيمة...

ـ أنت معجب به...

ـ أنا مغرم بما يفعل... أتمنى أن أعيش هذه التجربة يوماً!

ـ كفَّ عن هذا الهراء...!

قال جلال متضايقاً... لكن اسمع هل عرفت أني التقيت الوزير مرة ثانية...

ـ ماذا قلت؟ كررها لي مرة أخرى.

ـ التقيت الوزير مرة أخرى!

ـ ههههههههه متى؟

ـ بالأمس!

ـ عظيم... عظيم لا أتمالك نفسي من الفرح... لحقت أن تفعل كل هذه الأشياء من ورائي بعد أن خرجت من مركز الشرطة...

ـ طبعاً علينا أن نعمل...

ـ وماذا دار بينكما؟

ـ حينما نلتقي... سأحدثك!

ـ حسن، اسمع يمكننا أن نلتقي في بار اللوكوك غداً... ماذا تقول؟... كما أن دلال تريد أن تراك أيضاً...

ـ أوه أنت حدثتها عما دار لي مع العصابة الألبانية...

ـ نعم...

ـ لا! لمَ فعلت هذا؟

ـ لم يكن ممكناً أن أخفي عنها هذا الموضوع لقد خفت عليك كثيراً يا رجل...

ـ ولكن ما كان عليك أن تحدثها أما قلت لك أسرار الرجال يجب أن تبقى بين الرجال...

ـ هي رجل أيضاً!

ـ ولكن إياك إن رأيت أداليد أن تحدثها أيضاً... فهي لا تعرف أيّ شيء عن حياتي...

ـ لا، لا، هذا إن رأيناها... فأنت وعدتنا أننا سنلتقي الأربعة ولم تفعل...

بعد قليل من الصمت سأله:

ـ هل ما زلت تلتقي بها...؟

ـ نعم... نلتقي من وقت إلى وقت!

ـ وكيف تسير الأمور معها...

ـ ماشية... لا بأس ولكن لا أعرف أين تتجه هذه العلاقة...

ـ حسن، دعنا نتحدث عن هذا لما نلتقي.

ـ أوكيه نلتقي غداً في اللوكوك ونتحدث...

ـ طيب أيّ ساعة يناسبك...

ـ الخامسة...!

ـ أوكي الخامسة!

ـ أورفوار

ـ أورفوار...

ـ اسمع...

ـ ... أغلق جلال السماعة بسرعة ولم يستمع لما أراد أن يقوله الأستاذ.

* * *

التقى جلال الوزير قبل يوم من لقائه بالأستاذ ودلال في مقهى اللوكوك، ويقال إن من دبرت له هذا اللقاء هي أداليد صديقته الفلامانية، دون أن تعرف عن نواياه أيّ شيء، وذلك بوساطة فتاة رومانية تعرفها، اسمها ساندرا، تعمل في بوتيك ماكياج في جادة إكسل، وقد تعرف إليها الوزير مؤخراً، في سهرة في بار الكازا ليول، فشغف بها.

وزير خليع، سكير، كثير الاهتمام بنفسه، سارق لمليون دولار وهارب من بلده، هو محط اهتمام الكثير من الفتيات الفقيرات والمهاجرات في هذا البلد الغربي، حيث أية فاتورة فيه، كأنها اقتطعت من قبل عصابة من قطاع الطرق.

السلفي الجديد

دخل جلال أفنيو أنسباك من جادة البورصة، سار تحت الظلال الشتوية الناعمة لشمس الغروب التي رسمت على الأرض دانتيلا حمراء. تخاريم قد ارتعشت من آخر نور من هذا اليوم مع اهتزاز بضع شجرات في الشارع. وحين اقترب من مبنى البورصة وجد العديد من الرجال العرب، قلة من النساء، الذين يجلسون على مدرجاتها، ويحملون شعارات الربيع العربي، وأكثرهم من اللاجئين الجدد، أو من المؤمنين بالتغيير السياسي الذين وجدوا فرصة في الانتفاضات الشعبية على الحكومات، من أجل إحداث تغيير سياسي. أما جلال فقد كان يشعر على الدوام باستحالة التغيير في مجتمعات غارقة في جهلها ومؤمنة بقوى غيبية تحركها. أراد أن يتحاشى المظاهرة، أن يتحاشى حتى النظر إليها، وحين تجاوزها وصلت حالة الحزن عنده مبلغاً كبيراً:

ـ «أف مشهد يتكرر على مر التاريخ... حشود بشرية متفائلة...» قال بصوت مسموع وهو ينفث الدخان من سيجارته بغضب.

سحب نفساً أخيراً من السيجارة التي في يده، أراد أن يرميها على الأرض ويسحقها بعقب حذائه كما كان يفعل في بلده، إلا أنه وجد العديد من الأشخاص الذين سينتقدونه، أو الذين لن يسمحوا له أن يفعل ذلك، تقدم نحو حاوية الزبالة ورماها فيها. أراد أن يعبر الشارع فمرت حافلتان للشرطة... توقف، نظر إلى هؤلاء الرجال والنساء الذين يحملون الأعلام

وشعارات الحرية... شعر بالحزن، ذلك أن نخبة صغيرة في هذه المجتمعات، نخبة صغيرة على الدوام هي التي تؤمن بهذه الشعارات، شعارات الحرية، المساواة، العدل. ماذا لو كانت هذه النخبة أكبر؟ ماذا لو كانت هذه النخبة هي التي تشكل عموم المجتمع؟ فالطبقة الرثة... هي الطبقة التي تستحوذ على المجال العام وتسيطر على الشارع، ماذا لو كان هناك نخبة كبيرة من المتأثرين بعصر التنوير، من المؤمنين بالعدل بوصفه القوة الحقيقية القادرة على تنظيم الحياة.

شعر في تلك اللحظة بحزن يصعد في داخله، نوع من اليأس، قهر، غمّ، كان يود أن تكون هذه النخبة من كل قلبه نخبة كبيرة، نخبة واسعة، قوية، نخبة تسيطر على المجال العام، قوة يمكنها أن تصنع تغييراً حقيقياً!

لكن ماذا يصنع جلال؟ كان يدرك أن هذه النخبة هي على الدوام صغيرة، هامشية، مقصية! والأكثر من كل هذا، أن هذه القيم، قيم الحق، العدل، الحرية، المساواة هي قيم غربية بالكامل، وهي من جهة أخرى غريبة على هذه المجتمعات! إنها قيم هامشية، مقصية، هي تسلية ليست هماً حقيقياً، وهي همٌّ مصطنع عند الكثير منهم.

أما النخبة التي تؤمن بها حقاً، فإنها سرعان ما ستضمحل، تتلاشى، تنعدم مع أول هبة جماهيرية لتكتسحها، ويظهر من تحتها شعب القاع، شعب القاع الذي سيحتل كل شيء، الشارع، والبيت، والقصر، والزمان والمكان... سيحتل أيّ فضاء ممكن. إنه الوقت الذي ستظهر فيه الطبقة الرثة، والمتكونة من الفئات الهامشية، من فقراء المدن، من سكان الصفيح، من حطام الطبقات وشظاياها، من الشرائح والفئات المخلوعة... وعندئذ ستسحق كل أحلام الحرية.

مد يده في جيبه ليخرج سيجارة أخرى ويشعلها، سحب نفساً عميقاً

وأطلقه في الهواء. فجأة ظهر أمام عينيه جيوفاني جونتيله المفكر الفاشي الإيطالي... الكاتب الذي نظر إلى هذه الطبقات الرثة التي كانت تجتاح أوروبا في الثلاثينيات، باعتبارها ممثلة للأمة... أراد أن يحتويها عبر الفاشية، أراد تكييفها للقوة الحديدية النافذة لتحطيم كل مبادئ وقيم عصر التنوير الغربي. وربما لم يخطئ! فهو السلفي في هذه الأيام، في العالم العربي والإسلامي، السياسي السلفي هو الذي يريد هذه الطبقات ممثلة للأمة.

كانت هذه الطبقات في أوروبا الثلاثينيات هي الآلة التي حطمت الديمقراطية، هي التي جعلتها ركاماً بعد ان اكتسحت كل شيء... وهكذا بزغ له جونتيله في تلك اللحظة بصورة بطيئة ليصعد أمام عينيه:

صورة ظلية للمفكر الذي قرأه وهو في بغداد. صورة من الأسود والأبيض وهي تصعد ببطء شديد أمام عينيه. لكن جونتيله هذه المرة، لا يرتدي زيه المعتاد، إنما يرتدي زياً آخر، إنه يرتدي الزي الأفغاني وله لحية شبيهة بلحية السلفي، ويضع على رأسه عمامة سوداء... يقف على منبر وهو يبشر هذه الطبقات المخلوعة التي انحازت مثل كل مرة في التاريخ، إلى الحركات الفاشية متلقفة خبل العنف، وسُعار التعصب القومي والطائفي، بالعنف، كما لو أنه الطريق الوحيد الى الخلاص.

* * *

حينما كان جلال يسير في أفنيو أنسباك، أخذت مجموعة من الصور المتنوعة تتلاحق، لترتسم في ذهنه، صور عديدة تظهر وتنطفئ، صور تأتي إلى ذهنه بصورة سريعة ولكن متواصلة أيضاً ـ صور لأوروبا الثلاثينيات، حيث اجتاحتها الطبقة الرثة، حيث حشود بشرية من قطاع الطرق ومن فقراء المدن، ومن سكان بيوت الصفيح قاموا باجتياح المدن، محاولين السيطرة

عليها، ومن ثم تهديمها وتخريبها والقضاء عليها. هذه الحشود تقودها نخبة صغيرة تؤمن بمجتمع الوفرة والرفاه الاجتماعي، تؤمن بالحق العام وبالحريات، لكن هذه الانتفاضة كانت بجموعها تتكون من الطبقة الرثة، طبقة عنيفة، لا تفكر. تتقدم لاحتلال مركز المدينة. إنهم حشود من الفقراء الموسومين بالقوة، يسيرون مثل الجراد في شوارع برلين، ويحطمون النظام بأيد قوية مثل فك التنين. ضحكاتهم الهستيرية تتصاعد إلى أعلى، جنونهم المنفلت يتجلى في قتالهم الذي لا نهاية له، أيديهم القوية لا تفل وهي تضرب كل من يقف أمامها... طبقة رثة تجري بأسمالها، بأرجلها اللاحمة، بفكوكها القوية وبإعجابها بالوشوم التي ترسمها على كل مكان من جسمها.

جلال لا يدين الطبقة الرثة لأنها رثة، إنما لا يؤمن بها، هكذا فقط، إنه لا يؤمن بها، لا يثق بها، يخاف منها، كما أنه لا يؤمن مطلقاً بقدرتها على التغيير...

ما يريده هو أن يغير هذه الطبقة الخطرة، ما يريده هو أن يحولها عن اتجاهها الذاهبة فيه، ما يريده هو أن ينهيها، يجعلها ملتحقة بالنخبة الثرية، النخبة العارفة، ببساطة أن تكون من النخبة. هدف الفكر الذي يحمله هو أن يقضي على هذه الطبقة ليس جسدياً إنما اقتصادياً، إذن الأمر مختلف عما تفعله هذه الحكومات بإبادتها جسدياً، هو لا يؤمن بعنفها ولا بالعنف الموجّه ضدها.

* * *

يرتسم في ذهن جلال في ذلك الوقت كل تاريخ أوروبا في العشرينيات والثلاثينيات، غير أن التناقض الذي كان يعيشه في هذه اللحظة له دلالته، ذلك أن جلالاً لا يخفي طبيعته الثورية ولا إعجابه المطلق بالقيادة الثورية

لروزا لوكسمبورغ ولنبوغها، وفي اللحظة التي يبرز فيها جيوفاني جونتيله السلفي بلحيته وعمامته الجهادية، تبرز هي حينما تكتب مقالتها الأخيرة عن الاسبارتاكيين قبل يوم من اختطافها وإعدامها، تجلس إلى مكتبها وتدخن، تضع قلمها على الورقة وتكتب ساخرة من حراس النظام، ومن طبيعته الدموية العنيفة. جلال يصغي في تلك اللحظة بالذات إلى روح روزا لوكسمبورغ وهي تتساءل حقاً:

هل يستحق النظام العام كل هذه الذبائح البشرية؟

لقد اجتاحت برلين هذه الحشود البشرية من الطبقات الرثة وقد سحقهم نظام اشتراكي أيضاً. ومع أن جلالاً يدرك أن المنتفضين في أوروبا، أو على الأقل قادة الانتفاضة منهم، هم ورثة عصر التنوير الأوروبي، من دون شك، وانتقال السيادة من الغيب إلى الإنسان، في حين إن الفصائل في الثورات العربية تعيد الناس إلى الغيب عنوة. وهكذا شعر جلال أنه لا يمكنه أن يبحث بين هذه اللحى المقاتلة عن روزا لوكسمبورغ، لكنه لو أراد أن يبحث، فإنه سيعثر ببساطة على جيوفاني جونتيله، وعلى فاشيته التي تقتل كل وجدان تحرّري، ذلك أن الثورات العربية هي ببساطة ثورات رجعية. انتفاضات لا تنتمي إلى مرجعيات عصر التنوير، بل تنتمي إلى مرجعيات مناوئة للتنوير. وهكذا شعر عندها بالإحباط، وتساءل عندها كما تساءلت روزا لكسمبورغ:

أيهما أفضل نهاية مرعبة أم رعب بلا نهاية؟

* * *

مر من مكتبة باسبورتا وقد صفت على الواجهة صور كتب، مجلات، بوسترات، إعلانات. توقف. هناك حمامتان تدرجان فوق الرّصيف الرمادي

أمام قدميه تلتقطان بقايا ما يتركه المارة من فتات. واجهه ملصق بورتريه شاعر فلمنكي على باب المكتبة الزجاجي، شاعر بشحوب رومانسي، أنيق، قلق، شاب بشوارب شقراء رفيعة. أنف دقيق ممتد، ونظرة ثابتة كأنه ينظر إلى شيء في البعيد. يشير الإعلان عن قراءات شعرية بعد يومين. تحرك وانطلق في الشارع نحو حانة اللوكوك بعد أن قاربت الساعة الخامسة.

شعر بحب كبير في تلك اللحظة لمدينة بروكسل. شعر أنه يحبها في ذلك اليوم أكثر من أيّ يوم مضى.

لا يعرف لماذا!

ولكنه شعر بخيط رفيع يربطه بهذه المدينة الجميلة، التي تختلف عن كل المدن الأخرى، فهي ليست باريس ولا لندن ولا برلين... إنما هي ببساطة بروكسل، المدينة التي أحبها، في أول يوم وطئت قدماه أرضها لاجئاً من العراق، أحب أرصفتها القديمة، مقاهيها المتواضعة، كراسيها الموضوعة على الرصيف. ستارات منازلها... أحب شوارعها التي تموج بالبشر من كلّ الأجناس والملل. أحب حركة السيارات التي لا تهدأ، حمامها الوديع، أشجارها العملاقة، بيوتها بسقوف الأردواز. أحب ساحاتها، قصورها التاريخية الشاهدة على ذلك العصر البطولي.

إنها بروكسل الضائعة بين باريس وأمستردام!

حدائقها الصغيرة. تماثيلها المطلة في الساحات. كنائسها. كاتدرائياتها ذات الأبراج. محطات المترو المزدحمة. مقابرها الكائنة تحت الأرض حيث يجاور الموتى شبكة سكك الحديد. بروكسل التي تنتصب على لا حصر له من جماجم الموتى الذين مضوا بأسرار المدينة وأسرارهم.

دفء جديد ومحبة غامرة

دخل جلال بار اللوكوك فوجده مزدحماً، فوقف جانباً لبرهة من الوقت بهدوء شديد، وأسند ظهره إلى الجدار. كان البار مزدحماً، لأنه يوم أحد، بل كانت جميع بارات بروكسل ممتلئة. وهو واقف هناك تناهت إلى سمعه من المسرح المجاور اندفاعة من أصوات ثملة ودافئة، كان هنالك مجموعة من الشباب والصبايا الخارجين من بوابة المسرح ضاحكين، ومممازحين لبعضهم. نظر إليهم بشكل خاطف، ثم استدار ليستطلع البار بعينين متغضنتين، بسبب العتمة، حتى بلغت عيناه أخيراً طاولة في الرُّكن كان الأستاذ ودلال جالسين عليها.

كان يرتدي في ذلك المساء بنطلون جينز وجاكيتاً رمادية، اشتراها من محلات رخيصة في شارع لانف، وكان مفصلاً بدقة على جسمه. المرة الأولى التي يراه فيها الأستاذ ودلال يرتدي شيئاً جديداً، فالملابس كانت آخر اهتماماته، بالعكس من الأستاذ الذي ارتدى جاكيتاً جميلة، وقد سرح شعره إلى الخلف بعد أن وضع عليه كريم ويلا، زيت الشعر المفضل لديه منذ كان في بغداد، فبدا مصففاً ومعتنى به، وبالرغم من أن وجهه كان منهكاً، وشاحباً، ولكنه كان أيضاً فتياً ومنبسطاً، وقد ارتسمت ابتسامة جميلة على فمه. كانت جميع الطاولات في البار مشغولة. وهنالك طاولة كبيرة في الوسط من الواضح أنها تقام فيها حفلة، توسطها شاب وسيم وقد كحل عينيه وارتدى ملابس بلونين أخضر وأبيض، ينير وجهه في العتمة لهب الشموع

الجلي. إلى جانبه فتاتان ترتديان بنطالين واسعين من الصُّوف وسترتين، تمسكان بعضهما ذراعاً بذراع، فجأة تناهت إلى أذنيه أصداء هستيرية عند دخول مجموعة من الشباب إلى البار.

أول ما رأى الأستاذ جلالاً وقد وقف في نهاية البار باحثاً عنهما، أشر له بيده.

ـ جلال...! صرخ الأستاذ.

أشر لهما جلال أيضاً بيده وتقدم نحوهما. مشى بتبختر جميل، حتى وصل إلى الطاولة، مسَّ وهو في طريقه إليهما مرفق امرأة بدينة ترتدي السَّاتان الأسود وتجلس إلى طاولة الشاب الوسيم، التفتت إليه فانحنى لها بكياسة متأنقة، عندما وصل عانق دلال والأستاذ كليهما. جذب كرسيّاً وجلس دون تغيير في قسمات وجهه الشاحب القاسي.

كان النادل أشبه بوكيل المراهنات في الريسز، طويل وله شعر يصل إلى كتفيه، ضخم البنية تقريباً له أنف متورِّد وعينان زرقاوان بليدتان. تقدم من جلال وسأله:

ـ ماذا تشرب؟

ـ ألا أجلس بالأول...

ـ أنت جلست... قالها بعصبية...

غير أن جلالاً لم يعجبه الكلام فالتفت إليه وهو يخلع جاكيته ويضعها على الكرسي، وللسخرية سأله إن كان يملك حصاناً يدعى باترك، امتطاه يوماً أحد الفرسان الفلمنكيين وفشل في السباق أمام حصان والوني اسمه فرانسوا.

غير أن النادل كان فظّاً ولم يكن يحتمل النكات، خصوصاً مثل هذه

النكات، فكادت أن تنشب معركة بينهما لولا تدخل دلال. على العموم افتقد جلال في ذلك اليوم النادل يواكيم المحب للفلسفة، والذي يحمل كتاباً معه على الدوام... وفي الغالب كانا يتناقشان حول أحد فروعها كلما التقيا في هذا البار، في شارع دنسارات، جنب المسرح الفلاماني والذي يؤمه الفلامانيون على الدوام.

ذلك الأصيل. شرب الثلاثة الويسكي مع الصّودا، إذ جاءهم بها، نادل آخر، له وجه مقامر بالفطرة، ترتسم على شفتيه ابتسامة مضبوطة تعبر بدقة عن مأزق دائم، بين الخوف والقسوة. يرتدي رداء أبيض وحذاءً أسود.

أخذ جلال يلاطف الكأس بيديه الناعمتين الصغيرتين، وقد أحاط بمعصمه سوار رخيص اشتراه من محلات زارا صلصل على حافة الطاولة. بعد تدوير الكأس بين راحتيه، شرب الويسكي صرفةً في جرعتين شديدتين فجأة. وضع الكأس بحدة. وقال:

ـ بصحتكم... فضحكوا له.

كانت الجلسة حميمية جداً، وقد تبادلوا فيها كل عبارات الحب في ذلك اليوم من دون تكلف، حتى دلال كانت معه أكثر انفتاحاً، وأكثر راحة...

ـ لقد خفت عليك يا جلال... قلبي توقف حين سمعت أنهم أحاطوك من كل جانب...

ابتسم لها بودّ كبير، وقال مفتخراً بنفسه:

ـ لا تخافي على الشيطان... سوف ننتقم منهم...

ـ لكن كن حذراً منهم أرجوك...

ـ لا تقلقي... أنا لست حملاً وديعاً أيضاً...

ـ أعرف ولكنهم...

ـ سأكون بخير صدقيني!

كان سعيداً جداً بهذه الملاطفات، سعيداً بهذا الحب الذي أحاطوه به، كاد أن يبكي من الفرح، فهو من زمن بعيد لم يشعر بهذه الحميمية الخالصة، وهذه العاطفة النقية، كان يحلم بها، يطلبها، غير أنها كانت بعيدة المنال منه، كان يشعر بها في بعض الأحيان مستحيلة، وهو لا يعرف لماذا يشعر مواطنوه بالخجل من العواطف، بالخوف منها، حتى المحب الحقيقي لا يجرؤ أن يدلي بذلك، فهم يعتقدون أن العاطفة ضعف، مهانة، استصغار للذات.

وبعد أن شربوا الويسكي جاءت فكرة البحث عن طعام، فقرروا المغادرة والبحث عن مكان آخر. فارتدوا جاكيتاتهم بشيء من الضحك والممازحة مع الجالسين في البار وخرجوا، دفعوا بوابة البار وانطلقوا في الشارع، بحثوا عن مطعم رخيص فوجدوا واحداً قرب كنيسة السانت كاترين يقع في الزاوية المقابلة من الشارع، يقدم أطباقاً رخيصة من الرز والمرق.

ـ حتى في بلجيكا رز ومرق...؟

قال الأستاذ ساخراً من عزومة جلال، لأن هذه الوجبة هي الشائعة في العراق، وكان يعتقد فيما مضى أنها غير موجودة إلا في العراق.

جلسوا إلى طاولة في الخارج، جاءتهم الأطباق مزينة بالبقدونس. طلب جلال البيض أيضاً، وضعت النادلة طبق الهليون والخبز، وطبقاً من الزيتون الندي، وثلاثة أطباق من البطاطا المقلية، وقد أكل كل منهم صحنه، وبعدها دفعوا الحساب وتمشوا في الشارع حتى وصلوا الى شقة الأستاذ في ماتونغه. وهنالك حدثهما عما دار بينه وبين الوزير.

لقاء في حلقة الرحالة

كان جلال قد التقى الوزير في بار اسمه حلقة الرحالة قرب الساحة الكبيرة في بروكسل، وكان يوماً من الأيام المشمسة النادرة في أواخر شتاء بروكسل. الطقس ساخن تقريباً، وقد جلس الوزير في الخارج، حركة الشارع تشي بقدوم الموظفين الجدد المتوافدين من كلّ أصقاع العالم إلى عاصمة الاتحاد الأوروبي: وجوه شقر بدأت تغزو الشوارع وأرصفة المقاهي، وجوه سمر من جنوب القارة، أما الوزير فإنه يجلس إلى طاولة طرفية أمامه كأس بيرة لا تنتهي، وأوراقه مفردة على الطاولة، بعضها صحف قديمة أجرت مقابلات معه، يوظفها في الغالب في الدعاية لنفسه.

حين جلس جلال قبالته تبين للمرة الأولى سحنته جيداً، فكانت له سحنة ريفية يشوبها اصفرار ما، وقد فك أزرار معطفه الترانشكوت المطري الرمادي فبان قميصه وربطته الحريرية الأنيقة، أما سيجارة الغلواز فإنها لم تفارق فمه. لم يقدم نفسه لجلال في ذلك اليوم كوزير في حكومة فاسدة، أو كما كان يقدم نفسه في السابق كمزيج من قومية واشتراكية وعلمانية، إنما كإسلامي متنور...

ـ ماذا؟ قال جلال مستغرباً.

بالرغم من أن هذا الشخص الجالس أمام جلال هو وزير إلا أن له شكل صعلوك متمرّد صاحب مطالب، رجل استفزازي ذكي وساخر.

أراد جلال أن يسأله عن شعره، فلم يجبه في البداية. ولكنه بعد أن شرب

الكأس كاملة وطلب كأساً أخرى، قال له إن الكتب التي كان يقرؤها في ذلك الوقت قد ألقت به في أعماق التأمل، وأخذ يجتر لفترة طويلة على كتب السحر وقراءة الكف مخلوطة مع أفكار حديثة، وهكذا تراكمت لديه مادة تأملية كبيرة ومتنوعة، وبذرت بذرتها للتفكير العميق الذي سيثمر في يوم من الأيام أساس شعره.

كان جلال مستغرباً هذا الخليط العجيب الغريب فيما قاله عن مصادره، ذلك أن أفكاره ذاتها كانت مركبة بطريقة تدعو إلى السخط والاضطراب معاً، كان يدعي أنه قومي، علماني، وحتى اشتراكي، أما اليوم فهو إسلامي، ذلك أن الوضع العام قد اقتضى ذلك، ولكنه كان يؤمن بالسحر إيماناً مطلقاً، بل قال له إن هنالك امرأة ساحرة معروفة في بلاده سوف تساعده مساعدة كبيرة على عودته كوزير!

لم يكن تفكيره يريد مغادرة هذه النقطة أبداً، العودة لمهنته الأصلية كوزير، بل كان متعلقاً بهذا الأمر تعلقاً كاملاً. فهذا العمل بالنسبة له مهنة اختص بها، وكان يتكلم عنها كما لو يتكلم نجار، أو حداد، أو إسكافي عن مهنته، إنها حرفة، وهو وزير ليس بالمصادفة المحضة، إنما حرفي. ولم يكن سهلاً في النقاش والدفاع عن هذه النقطة بل كان محاوراً بارعاً. وفي غمرة النقاش أظهر كل شخصيته كمتذوق للطعام والشراب، فقد شرب ثلاث كؤوس كبيرة من أفضل البيرة في المحل، انتقاها بعناية فائقة، والتهم طبقاً من السمك، وأصر بالرغم من شربه للخمرة على أنه مفكر إسلامي.

ـ ولكنك تشرب الخمرة...؟

ـ ممكن...! لو كنت في بلد إسلامي ويطبق الشريعة فيه سألتزم... ولكن هنا... لا!

الأمر واضح بالنسبة لجلال فبعد الثورات العربية لمع نجم الإسلاميين والكثير من السياسيين السابقين أخذوا يجربون استخدام هذه الوصفة ليجدوا لهم مكاناً في الساحة الجديدة، والضحك مرة أخرى على الناس التي خرجت للشوارع مطالبة بالخبز والعدالة.

* * *

بعد أن شبع الوزير المخلوع التفت إلى جلال وقال له إنه لا يرتضي لنفسه أن يكون شاعراً فقط، إنما هو مفكر وفيلسوف، وكان الأمر غير مقنع لجلال بالمرة، فهذا الوزير رغم طول شعره الكث، والشاربين الصغيرين المرسومين بدقة على وجهه النحيل الداكن، الذي منحه شكل شاعر راهب أو مفكر، لكنه خليع وفاسق.

الوزير الفاسق

إن صور الوزير المخلوع المنشورة في صحف عديدة من عهد ما قبل الثورة التي أطاحت به، تقدمه إلينا في أوج تألقه، وأناقته، كما تظهره شخصاً له قابليات متنوعة وطاقات مختلفة، فضلاً عن رأسه الكبير الذي تميز به ولمعة الذكاء في نظرة العينين السوداوين.

وهنالك في القسمات وفي القامة طبعاً، بل وحتى في نظرة العينين شيء مختلف عن كل المحيطين به، هنالك خليط من اللعنة والمباركة الشيطانية، عزاها الكثير من معاصريه، إلى صراعه المرير لإثبات نفسه وسط بحر متلاطم الأمواج من السياسات المتقلبة في الشرق الأوسط وكان عليه أن ينجو من كل هذه التقلبات.

وفي الحقيقة لا يعرف الواقع السياسي العالمي شخصيات أكثر تعقيداً وتناقضاً من شخصيات الوزراء في العالم العربي، وهذا الوزير المخلوع بثورة، لا هو ثوري مغامر، ولا هو عسكري قاد انقلاباً عسكرياً، ولا هو بلطجي ترقى بسبب سرعة ارتكابه للجريمة السياسية، مثل التعذيب والاغتيال! ولا هو ثري دفع أموالاً طائلة ليحصل على منصبه، إنما هو كاتب... ببساطة كاتب، وإن ظهور كتّابٍ ومثقفين بين السياسيين ليس أمراً نادراً في الشرق الأوسط.

لكنها صورة تزويقية، صورة هلامية! غير متوافقة مع صورة السياسيين التقليديين، ولكنها ضرورية... هكذا كان هذا الوزير في بلاده الذي عاش في

صراع دائم مع كل الذين عاصروه، ولكنه أثبت بجدارة قدرته على الصمود وسط هذا الموج، والأكثر من كل هذا، قدرته على النفاذ إلى بحر الفساد الذي جاء بعد التغييرات السياسية في العالم العربي، لكي يخوض تجربة جديدة بإهاب السياسي المسلم.

* * *

حين راق له الكلام كثيراً استرسل الوزير بالحديث عن نفسه. لحظتها أدرك جلال أنه من هذا الطراز الذي يبتكر أشياء كثيرة لا صلة لها لا بالتاريخ ولا بالواقع، أشياء مخترعة ومن كثرة ترددادها حفظها، وجعلها جزءاً منه، فتحول شيئاً فشيئاً إلى شخص آخر في نظر نفسه غير حقيقته، وبما أنه قادر على الكتابة فهو يكتب الآن كتاباً يعري فيه الحكومة السابقة لصالح الحكومة الجديدة.

ساعتان وهو يتكلم عن كتابه الجديد.

قال لجلال إنه يكتب هذا الكتاب بسبب معرفته بأحوال الناس فكان على عكس الوزراء الآخرين أكثر صلة بالشعب ولم يلزم نفسه بمكتبه إنما كان عمله الوزاري وخدماته متنوعة للغاية، وتطلبت منه تجوالاً وترحالاً في طول البلاد وعرضها.

ـ مهرجانات شعرية أنت تعرف... وهكذا تجولت في البلاد كلها، وهكذا اطلعت على حياة أناس كثيرين من مختلف الطبقات وقد كانوا مثيرين ومدهشين.

وبعدها امتدح نفسه، ذلك بما أن شخصيته القوية الفذة هي التي اجتذبت إليه أناساً بارزين، لذلك ربطت عرى الصداقة بينه وبين العديد من المعارضين، وإن الأجواء بينه وبين المعارضة صافية والأجواء شفافة، ولم يكن هناك، حسب الظاهر، ما يشير إلى كارثة.

ثم قال إنه كان نفسه يقدر كل التقدير ذلك الزخم الحياتي الذي اكتسبه أثناء الخدمة، فما كان مرغماً على أن يشق طريقه إلى الشعب وحياته من خلال الكتب والمفاهيم الجاهزة، إنما كرس نفسه ليدرسه عن كثب. ومع أن بعض الكتب قدمت له عوناً جيداً لكن الشعب هو مدرسته التي علمته. وهذه من الكليشات التي تقولها الأحزاب الثورية عن نفسها، وقال إنه يفضل خبز الشعب الأسمر الذي يعطيه هذا الزخم الإرادي المتحمس على هذا الخبز الأوروبي لأن الخبز الأسمر هو الذي يمنحه ريشته الساخنة!

كانت هوية هذا الوزير الطبقية غامضة لجلال أوانذاك ـ لكنه شرحها له فيما بعد:

لقد كان من طبقة فلاحية مهاجرة إلى المدينة، وهي التشكيل الحقيقي لجميع السلطات العربية بعد الخمسينيات، جميع السلطات جاءت من منبت فلاحي أو من عائلات فلاحية هاجرت إلى المدن، وقد بقيت علاقاتها ملتبسة بالمدن التي حكمتها واتسمت بعلاقات غير ودية تنعدم فيها الثقة.

* * *

تعلق هذا الوزير في طفولته الفقيرة بإحدى العائلات التي تقربه والتي انعتقت من الفقر وأصبحت في مصاف الطبقات الكبرى، ومع أنه تأثر جداً بالفكر الاشتراكي، بسبب فقره الذي خلق لديه حقداً لا يرتوي على الأغنياء والطبقات الموسرة، وليس بسبب حس العدالة الذي توفره الاشتراكية، إلا أنه جاهد أن تكون علاقاته مقتصرة على صنوف الناس الأثرياء فقط، وكانت لديه، من جهة أخرى، طموحات نحو الثراء لا تحد.

لقد استشف جلال في ذلك اليوم من الوزير أنه كان اشتراكياً على شاكلته، وحداثياً على شاكلته وشاعراً على شاكلته، فقد حافظ هذا الحداثي على

نوع من العلاقات الأبوية العشائرية التي كانت عائلته الفقيرة تخضع لها، ولم يتخلَّ عنها، من الواضح أنه أراد أن يفيد من هذه العلاقات بتوطيدها لا بردمها. كما أنه لم يتخلّ عن الحسّ الطائفي في تعامله مع الطوائف الأخرى، إنما بقي لديه شعور مستديم بكراهية جميع الطوائف المختلفة عن طائفته، شعور كان يخفيه بشكل موارب بولعه السطحي العابر بحرية الأفكار والمعتقدات التي نادى بها المثقفون في زمنه. كان بوسعه أن يسير في هذا الاتجاه الآن طالما أن الحكومة التي أعقبت الحكومة المنقضية هي حكومة دينية فسرعان ما خضع هو للإرادة الأقوى التي لها مصلحة في جعله يتبنى معتقداتها، أي للإرادة الطائفية، ومهما يخفي هذه المشاعر البدائية والغرائزية ولكن ما إن يحتدم النقاش سرعان ما تبرز بقوة حتى تبدّد إنسانيته المرائية وحينها لا يبقى منها أيّ أثر.

* * *

فمع صعود الاتجاهات الدينية بعد الثورات العربية، ظهر السياسيون الجدد، والمثقفون القدماء بشكل مختلف عما كانوا عليه، وسرعان ما تبنوا الاتجاهات الطائفية الرائجة. وذلك فإن أكثرهم قد قدموا من بيئات متحجرة ومن مواقع تدين شعبي، سرعان ما اختلط بالسياسة، وهذا الوزير الذي له رد فعل شديد الانفعال، وفي العادة أثناء النقاش لا يفكر في عواقب تصرفاته، لذا أضفت الطائفية على كلامه صبغة الفضيحة الصارخة والمخجلة أيضاً.

* * *

إلا أن الشيء العجيب الذي صدم جلالاً في ذلك اليوم هو حينما قال له الوزير إنه مع الثورة التي أطاحت بالحكم الذي كان هو أحد وزرائه. بل أخذ يدافع عن الثورة بصورة كاملة، وعن شرعيتها، وعن الحق في قلب نظام

الحكم، ويعدد الأسباب التي أدت للثورة وكأنه أحد أقطاب المعارضة وليس أحد أقطاب النظام. وقد أجهد نفسه بالتفسيرات التي كانت شائعة في تلك الأيام في الصحف، ولم يزد عليها معلومة واحدة، ومن ضمنها فساد النظام.

ما لفت انتباه جلال أن الوزير كان يتكلم عن الفساد بوصفه مظهراً من مظاهر الحكم لكنه لم يقل شيئاً واحداً عن نفسه أو عن وزارته.

ـ كيف؟ قال جلال له مستغرباً.

ـ نعم كانت ثورة حقيقية أطاحت بحكم فاسد وقبيح. قال ذلك بصورة واثقة.

ـ ولكنك كنت وزيراً في النظام.

ـ نعم هذا صحيح...

ـ كيف؟ لم أفهم...

ـ أنا كنت أعمل ضد النظام من داخل النظام... كنت مع الثورة...

حاول جلال تمالك نفسه وكتم شتيمة قوية كادت تنفجر من فمه.

ـ وقبل الثورة؟ سأله.

ـ كنت أحاول إصلاح النظام، ولكن شعرت في فترة ما لا فائدة...

هنا تناول جلال كأس البيرة وشربها كلها لكي يتمالك نفسه، وسأله بهدوء تام:

ـ وكيف قبلت بمنصب في نظام فاسد...

ـ لا... لم أقبله مباشرة... فلما عرضوا عليّ المنصب... فكرت كثيراً... لم أقبله مباشرة... كدت أرفض، ولكن بعدها فكرت فاستنتجت أن العمل ضد النظام يجب أن يكون من داخل النظام وهكذا أصبحت وزيراً...

ـ واستمريت في عملك مع النظام؟

ـ ولكني لم أكن راضياً عن الأوضاع...

ـ ماذا يعني أنك لم تكن راضياً عن النظام هل كنت معارضاً؟

ـ لا أحد يستطيع معارضة النظام علناً... هذا جنون... أنت تطلب شيئاً مستحيلاً... ولكني كنت أعمل سراً...

ـ مع من تعمل سراً؟

ـ وحدي...

ـ شيء لا يصدق!

ـ نعم هذه حقيقة حتى وإن لم تصدقها أنت...

ـ ومن صدقها؟

ـ كنت اتصلت باللجان الشعبية أول الأمر لكنهم رفضوا، وحين ركب الإسلاميون الثورة اتصلت بهم وقلت لهم أنا معكم...

ـ وصدقوك...

ـ نعم ولكنهم طلبوا مني أن أستقيل من الوزارة...

ـ ولم تستقل أنت؟

ـ لا، لم أستقل من الوزارة لو كنت عملت ذلك لنبهت النظام على انشقاقي...

* * *

لقد بقي الوزير لا يدافع عن الثورة فقط، إنما يدافع عن نفسه بوصفه أحد الثوار، وقال لجلال إنه يحاول الآن الاتصال بشريحة من الذين استولوا على السلطة بعد الثورة للعودة إلى البلاد والعمل في الحكومة الجديدة، بوصفه مفكراً إسلامياً متنوراً، ومؤمناً بالديمقراطية وأحد محاربي الفساد في

النظام القديم، بل سمع جلال منه أشياء كثيرة تتعلق بهذا الأمر وكأنه أحد أقطاب المعارضة لا أحد أقطاب النظام.

* * *

وحين عارضه جلال، قال له لا يمكن له أن يدعي كل هذه الادعاءات وقد بقي أكثر من عشرين عاماً في السلطة، فهاجمه بقوة:

ـ اسمع أنت تتميز بالمكر في حديثك، وتريد أن تحرف النقاش دوماً لصالحك، من تكون لتقول هذا؟ كل شيء فيك يفضحك، لا أقوالك فقط إنما حتى شكلك... عيناك الماكرتان تتحركان بسرعة، وأنفك القصير، وصلعك الذي دب من الخلف، كلها أشياء تقول إنك لست بريئاً أبداً، أنت ذكي نعم ولكن لا تتصنع البراءة والحيادية... ولا سيما أمامي، فأنا أكشفك سريعاً.

صمت جلال ولم ينطق كلمة أمام هذا الهجوم العنيف والذي وجهه الوزير له، وقد انحدر من أقواله إلى شخصه وشكله. وهذه طبيعة السلطات في تلك المنطقة، حكومة ومعارضة، إذ تنحرف في الغالب من تفنيد الأفكار إلى التهديم الكلي لأجساد المخالفين لها... أما سبب صمته فهنالك أيضاً شيء آخر، إذ خرجت امرأة جميلة، يبدو أنها من بلده، ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً أبيض يضغط من الأعلى بقوة على صدرها. خرجت من الحمام وقد توجهت نحو الوزير وعانقته.

ـ ابن القحبة! قال جلال في نفسه... كيف تسنى له أن يعرف هذا العدد الهائل من النساء بظرف قصير من وجوده في بلجيكا.

التفت الوزير إلى جلال وقدم السيدة له بعبارات مهذبة جدّاً، فجلست معهما.

* * *

لقد تغير مجرى الحديث فيما بعد تماماً، لقد شعر جلال أنه لا بد أن يجامل الوزير ولو قليلاً، فمن أجل الحصول على المليون لا بد له أن يقدم له بعض التنازلات وأن لا يبقى حبيس الانغلاق الكلي ولا سيما فيما يتعلق بمصير الوزير السياسي، فقد كان حساساً حساسيةً كبيرة إزاء هذه النقطة وعلى جلال أن يخضع بعض الشيء لكل ما يتعلق بهذا الموضوع.

* * *

كان الوزير يتكلم مع هذه المرأة عن وزير آخر قد اصطدمت سيارته التي كان يقودها بسرعة كبيرة بعمود كهرباء، في يوم تعيينه وزيراً، فقتل في الحال. وقد سجي في نعش بعد أن كسي بغطاء رقيق ووضع عليه إكليل.

لا يعرف جلال لمَ شعر الوزير لحظتها بالحزن من ذكر هذه الحادثة أمامه. شعر بالتطير لحظتها، ماذا لو توفي هو في لحظة عودته كوزير؟ ربما لأنه شعر بنوع من العبث الوحشي في أحداث الموت المفاجئة.

وتساءل جلال لمَ يبحث عن عودته كوزير إذا كان الموت نوعاً من الخديعة السخيفة للحظ؟

ـ وزير ويموت... قال الوزير.

ـ في اليوم الذي أصبح فيه وزيراً مات! قالت السيدة.

ـ يا للحزن... قال الوزير.

ـ ولا سيما أنهم وجدوا في جيبه تذكرة قطار كان يمكن أن يذهب بها، غير أنه قرر أن يغير رأيه في اللحظة الأخيرة. قالت السيدة.

ـ يا للحظ التعس! قال الوزير.

الفصل السابع:

الخيانات الكبيرة للفتيات الصغيرات

من أوراق جلال

الورقة رقم VII

كنا نراك من بعيد، مثل تمثال إله مغروس في حديقة. أما الآن، فلست سوى شبح نائم في صندوق. يسترك الظلام.

لقد رحلت وعلينا أن نعتاد على العيش وحيدين من دونك. ننام وحيدين مثل نساك مدفونين في حديقة. سوف نتعلم أن نفعل أشياء كثيرة من دونك:

المشي، والحب،

الكذب والصدق،

الضحك والبكاء، الأكل والقفز،

الضجر والسكر،

النوم والخصام،

وحتى الموت من دونك.

سوف نتعلم المضي وحيدين مثل الكركدن في الظلام، حتى يبلغ الضجر أقصى الحدود أو نفقد الصوابَ.

الأستاذ والأحلام العظيمة

حينما غادر جلال المكان انتشى الأستاذ بأحلامه، لقد شعر أن المليون أصبح قريباً جداً من يده، أصبح في متناوله تماماً، ربما مخفي عن عينيه الآن، ربما مطموس تحت أيد خفية، ربما ممحو بغشاوة خفيفة ولكنه ليس مستحيلاً في المستقبل القريب ولا اختفاؤه أبدياً، كما أن ثراءه ليس مستحيلاً ولا فقره مقدر عليه أبدياً. لقد أصيب الأستاذ بفرح آسر، أصيب بجذل مفاجئ، بنشوة طاغية، فقد شعر على نحو لا يقبل الشك أنه قد أصبح قريباً جداً من المليون، بل هو الآن أقرب إليه من أية مرة سابقة، فطالما أن جلالاً أصبح قريباً من الوزير، وأصبح قريباً من مكمن قوته ونفوذه، أي من شوال نقوده القادمة، فإذن أصبح المليون في متناول يده...

فتح الأستاذ راحة يده اليمنى وهو يتخيلها مملوءة بالنقود، مملوءة بالدولارات! هل تستطيع يده حمل كل هذه الأموال؟

المشكلة التي أرقت الأستاذ هي عدم معرفته الطريقة التي سيجلبون بها الأموال الكثيرة، وكيف هو سيتصرف بها، فلم يسبق له أن حصل على نقود كثيرة. فتساءل مرة:

ـ كيف سيجلبون مليون دولار، لم يسبق لي أن رأيت أكثر من 500 دولار، هل يجلبونها بكيس يشبه كيس الطحين، بصندق خشبي للشاي أو السكر، في كارتونات أحذية حتى لا يكتشف أحد العملية؟

هذه هي الأسئلة التي ترد في خاطر الأستاذ كل مرة، ولكنه ومن أجل

أن يريح باله أخذ يتجاوزها سريعاً إلى ما بعدها. فمن الناحية العملية ما دخله هو بالطريقة التي يجلب بها المهربون الأموال، المهم أنه بعد حصوله على هذا المليون حتى لو كان ملفوفاً بورق التواليت، فإنه لن يشقى في البحث عن عمل أو عن أوراق أو أشياء يتطلبها وجوده الضروري في أوروبا، فالمليون هو العصا السحرية التي كان السندباد يستخدمها في السيطرة على أكبر الوحوش، هو مصباح علاء الدين الذي من خلاله يقول للشيء كن فيكون، وها هو المليون أصبح قريباً جداً من يده وربما من جيبه!

ـ هل يمكن للمليون أن يكون في الجيب؟

المهم أنه لم يعد بعيداً، إنه موجود هناك، طول ذراع ويطاله جلال! وجلال شريكه وصديقه، حينها سيكونان أسعد رجلين في العالم، سيكونان أسعد ماركسيين يتقاسمان مليون دولار، أجمل لاجئين يتحولان فجأة من فقيرين إلى محسنين كبيرين، وسوف يمكّنهم المليون من إسهامة صغيرة في هذا العالم الكبير طالما حلما بها، وهي طرد الفقر من وجوه لاجئين كثيرين، وليس هذا وحسب، إنما سينعمان بأشياء كثيرة، أشياء حلما طويلاً بها لكنها كانت بعيدة المنال عنهما. حينها ستختفي كل مشاكله فجأة ولن يبقى منها أيّ شيء.

* * *

كان المساء ماطراً، دلال والأستاذ في السرير عاريان. دلال راقدة بكسل على ظهرها، ونظرها شارد وهي تنظر إلى الأعلى. الأستاذ يدخن بهدوء شديد، وبدا مهتماً جداً هذه المرة بموضوع المليون والوزير.

تنظر دلال إلى السقف شاردة شروداً جميلاً بعد الجنس الذي منحها راحة كبيرة. وضعت الوسادة خلف ظهرها واتكأت عليها. الستائر ظلت

متباعدة، شعاع المصباح المعلق في السقف لامس خزانة الأطباق التي طوقها انعكاس للضوء أشبه بمنارة صغيرة.

نظرت دلال للأستاذ لم تره كما كانت تراه فيما مضى.

تذكرت المرة الأولى التي استلقى فيها على فراشها، فرأت البريق الخفيف والمذهب على رأسه يشبه البريق الذي يحيط برأس المسيح وكأنه هالة مهيبة. أسطورة مشوشة في ذهن دلال، تبدو ذكرياتها من الكنيسة التي كانت تصلي فيها في سوريا، هالة البريق التي تحيط برأس الأستاذ هي كالتي كانت تراها في صور المسيح في طفولتها، الحلم المتكرر على امتداد أعوام، جعل هذه الرؤية والأسطورة تتصادف في هذا الرجل الذي هو بعمر المسيح أيضاً.

اسمه الحقيقي جورج. اسمه المقنع أمين. اسمه الشائع الأستاذ.

ـ المسيح كان أيضاً معلماً.

لقاؤها بهذا الأستاذ، وهو بعمر الرب المصلوب اكتسب في البداية معاني غامضة، إنه الحلم الذي تكرر في طفولتها وهي تلتقي الرب على قارعة طريق فينقذها من الموت، وهي لم تشك للحظة في أن يكون حلمها عرضياً، لقد كان متكرراً، وهو ثابت أنه هو الذي ينقذها. هو يموت لكن الهالة باقية، مشعة، مثله مثل الحزم المألوفة لعصا الفسفور التي تظل مشعة في الحجرة المظلمة.

* * *

لقد أمضى الأستاذ ودلال السنوات الأولى من علاقتهما في سعادة كبيرة، ومن دون أية مشاكل، كانا في انسجام تام جعل الكثيرين يحسدونهما، فلم ير أحد من تلك المجموعات المحيطة بهما شخصين يمضيان وقتاً ممتعاً

كما كانا هما. وكان هذا الحب بالنسبة له تعويضاً عن كل حياة أخرى في الخارج. فقد أصبحت علاقاته مع الآخرين أقل مما مضى بكثير جداً، بل وصلت إلى مرحلة الصفر ولم يعد له أحد باستثناء جلال، وبعض المعارف الذين يلتقي بهم بالمصادفات من وقت إلى وقت.

كل هذه القطيعة التي أحدثها مع جميع الذين عرفهم لم يكن لها إلا سبب واحد، هو أن يكرس كل وقته تقريباً لها، كان يشعر أن الآخرين يسرقونه منها ولم يكن بحاجة لهم، فقوة عاطفتها عوضته عن أية عاطفة أخرى، لذا فقد أخلص لها إخلاصاً كاملاً. شعر أنه لها بكليته، بآنيته، بوجوده، بجميعه، بروحه وجسده. ولم يمنح أيّ فتاة أخرى غيرها أية نظرة. كان يشعر بالأخريات مثل أشياء موضوعة خارجة عن الحس والمشاعر والتفكير، كل امرأة غير دلال هي طاولة أو حائط أو دفتر، هي جماد لا شيء آخر، بينما كانت مشاعره كلها تتكثف بالعلاقة الجسدية معها. لم يكن يمارس الجنس معها فقط بوصفه جنساً، بل كان يذوب بكليته فيها، كان يشعر أن آنيته لا تنفصل عن آنيتها، ولا روحه تنفصل عن روحها، ولا جسده عن جسدها، لقد تحول إلى ذوب، ذوب خالص، يتقطر فيها ويتلاشى في أية لحظة تصعيد أو أورغازم معها.

* * *

لكن دلال الصغيرة المتمردة لم تكن مثله أبداً.

كانت تحبه نعم، أحبته بقوة وعبرت عن عواطفها تجاهه بشكل واضح لا لبس فيه، لكنها كانت ضجرة ومتمردة ومتململة. لقد أضجرتها حياة الحب الرتيبة معه، وشعرت، بالرغم من كل النقاشات الرائعة بينهما، أن هذه العلاقة ستنحو نحو الرتابة والسطحية.

لقد أحبت الأستاذ نعم لكنها أحبت نفسها أيضاً، ولأنها عاشت في منزل مفتوح على كل الاحتمالات ومن دون أيّ توجيه أو كبح، لذا فإنها انساقت لتنسج علاقة غامضة مع شخص آخر، وكانت تشعر أن العلاقات المتعددة ستحقق لها استمرار الإثارة والمشاعر القوية. بالرغم من أنها كان يمكنها أن تتخلى عن الأستاذ بسهولة، لكنها لم تفعل، لقد شعرت أنها بحاجة له، كعاطفة ثابتة لها طابع الدوام والاستمرار، وكانت تعتقد أنها يمكن أن تحتفظ بالعلاقتين معاً دون أن يكتشف هو هذا الأمر لأمد طويل.

* * *

كانت دلال قد دعيت في يوم إلى جلسة مع مجموعة من اللاجئين فالتقت بشاب وسيم له علاقات متعددة، اسمه رباح. وهو شاب مرح، أحمق وفاسد، كان منغمساً في ذلك الوقت بالشراب والتدخين والمتع الحسية، وهو من عالم بعيد تماماً عن عالم الأستاذ، لذا رأت فيه فرصة كبيرة كي تجرب علاقة جديدة معه بعيدة عن العلاقة التي أصبحت مضجرة مع الأستاذ. وكانت تريد في ذلك الوقت أن تحافظ على سرية علاقتها به، كي لا يصل أيّ شيء للأستاذ، الذي بقي يظن إلى النهاية أنها مخلصة له. فلم تكن دلال تظهر مع رباح في أيّ مكان، وقد طلبت منه بإلحاح أن لا يذكر أيّ شيء عن علاقتهما، وقد وعدها بذلك، إلا أنه كان له صديق يتباهى في الغالب أمامه بعلاقاته التي ينسجها مع فتيات متعددات، هو الذي كسر هذا الوعد وأفشى له بعلاقته بها.

* * *

ما كان يجذب رباح بهذه العلاقة هو شعوره بأنها خيانة، هي خيانة لشخص ما، بالرغم من أنه لم ير الأستاذ يوماً، ولكنه كان يشعر بمتعة كبيرة

أن الفتاة التي تواعده تخون شخصاً آخر من أجله. فلم يكن رباح قادراً إلا أن يتباهى بهذه العلاقة، على العكس من علاقاته مع الفتيات الأخريات التي كان ينسجها بشكل عابر، أي العلاقات التي لا تدوم إلا ليوم أو ليومين، فهذه العلاقة بالرغم من خطورتها على دلال، وعلاقتها مع الأستاذ، وبالرغم من وعده لها بأنه لن يفشي أيّ سر فيها، وأنه لن يقول لأيّ أحد أو يذكر هذا الأمر أمام أيّ شخص آخر، إلا أنه لم يصمد طويلاً، فقد حدث هذا الشخص المنافس عن هذه العلاقة، وأفشى سرها له، ربما لأن رباحاً كان في ذلك الوقت على ثقة كبيرة أن الأمر لن يصل لأيّ شخص ثالث، وأن الأمر سيبقى محصوراً بين الاثنين، إلا أنه كان مخطئاً.

كان الشخص الذي حدثه رباح عن علاقته مع دلال هو الآخر ينسج علاقات متعددة مع فتيات مختلفات وكان يتباهى بهذا الأمر أمام رباح، فكانت المنافسة بينهما كبيرة. وهكذا حدثه رباح في يوم عن علاقته بفتاة جذابة متمردة تعرف إليها في حفلة للاجئين دون أن يذكر اسمها، معتقداً أن الأمر سينتهي عند هذا الحد فقط. لكن الأمر لم ينته بطبيعة الأمر عند هذا الحد، إنما تفشى الخبر وتسربت أخبار هذه العلاقة بين عدد كبير من الناس. وبالرغم من أن المرأة التي يواعدها رباح كانت من دون اسم تقريباً، وبملامح غامضة، إلا أن الأمر كان واضحاً عند الجميع، فسرعان ما تعرف الجميع على هويتها.

* * *

الخبر الذي انتشر عن هذه المغامرة مع دلال وصل سريعاً إلى الأستاذ بطبيعة الأمر، لكنه لم يصدق. جلال هو الآخر سمع بالأمر لكنه لم يذكر شيئاً أمام الأستاذ أبداً. وقد عرفت دلال من سلوك الأستاذ ومن تصرفاته أن

الخبر انتشر، فذهبت إلى رباح وواجهته بالأمر، قالت له إنه أفشى شيئاً عن علاقتهما، إلا أنه أنكر تماماً، قال لها إنه لم يذكر لأيّ بشريّ أو غير بشريّ عن أيّ شيء بينهما، وقد صدقت ما قاله لها.

كانت تتساءل في نفسها ولأيام هل يمكن لرباح أن يفشي سر هذه العلاقة، هل سيكون مثل الآخرين؟

كل استنتاجاتها كانت تقول لها: لا لن يفشي سر هذه العلاقة. وهكذا مشت وراء حدسها، لقد وثقت به ثقة مطلقة. لكن لم تكن تعرف إلا بعد فوات الأوان أن حدسها هو الذي أوهمها، فراحت وراء هذه الفكرة الخاطئة.

وربما تحت هذا التأثير أيضاً انقطعت العلاقة بينهما لمدة من الزمن، إلا أنها عادت أخيراً. فقد خف الكلام كثيراً، وانشغل رباح بعلاقات جديدة مع أخريات، وكاد الأستاذ أن ينسى أيّ شيء عن الموضوع، بالرغم من أنه لم يواجه دلال بأيّ شيء من هذه الإشاعات، بل عدّها من الإشاعات التي تحيط في الغالب بالمرأة الجميلة، وقد تصور أن هذه الإشاعات الرخيصة ستنتهي سريعاً، دون أن يعلم أنها ستكون متبوعة بورطة فضائحية، ستسبب له جرحاً عاطفياً لن يندمل أبداً، بل سيودي به إلى نهاية لم تكن متوقعة أيضاً.

* * *

كان حب دلال الغامر أقنع الأستاذ بأن هذه القصص من التفاهة بحيث إنها لن تستمر طويلاً. وهي من جانبها أغدقت حباً كبيراً له، فقد شعرت أن هذا الحب الذي تقدمه للأستاذ سيحمي علاقتها الصغيرة السرية العزيزة على نفسها، إنها كلما أبدت اهتمامها بالأستاذ سرعان ما يغفل عن علاقة حبها الحقيقية وسيتوهم أنه هو المقصود لا شخص آخر.

الأمر سهل وممتع أيضاً. هكذا فكرت دلال مع نفسها. فطالما يثق الأستاذ

بها وبنوع من العشوائية الطائشة، فسيكون من السهل عليها أن تنسج علاقتين في وقت واحد، واحدة علنية ومعروفة، وأخرى سرية ومكتومة. وقد كان الأمر كذلك، وكما خططت في أن يكون هذا السر بعيداً عن الأستاذ الذي لم يكن يعتقد ولا حتى في الخيال أن تكون دلال عارية في الفراش مع شخص آخر غيره. لا يمكن أن يكون هذا الحب الكبير الذي بينهما يتحول في لحظة سرية مع رجل آخر إلى خرقة لا أكثر، خرقة لمسح الأرضية.

كانت مغامرة دلال مرهونة بطبيعة الأمر بالسر الذي سيحميه رباح، وسيصونه. وكان من المفترض أن يحافظ على هذا السر وبقوة، حسب الشرط الذي اشترطته دلال عليه وقد قبله بسهولة. كان على رباح أن يغلق قلبه على هذا السر دون أن يسمح لأحد بالوصول إليه أبداً. وقد وعدها بذلك أكثر من مرة، وكان ممكناً أن يتحقق هذا الأمر، وكان يمكنه أن يحمي دلال، لولا القدر العابث الذي لعب لعبته وجعل رباحاً لا يطيق هذا السر ويفشيه مرة أخرى لامرأة كان يتوقع أنها أبعد ما تكون عن دلال وعن عالمها.

المشكلة أن دلال كانت تصدق كل ما يقوله رباح لها، لم يكن ممكناً لها أن تكذبه وقد وعدها أنه لن يفشي سرها، مثلما كان الأستاذ يصدق كل كلمة كانت تقولها له ولا يشعر بأن ما كانت تقوله له إنه تمثيل لا أكثر.

* * *

الإنسان جزيرة معزولة، يمكنه أن يخبئ أيّ شيء في قلبه دون أن يصل إلى سره أحد.

من يستطيع أن يصل إلى سر دلال المدفون في قلبها، من يستطيع أن يدخل إلى قلبها ويعرف ما هي حقيقة مشاعرها، كل شيء يتعلق باللسان، بالحكاية، بالقول، إن لم ينطق أحد لن يرى أحد.

هكذا فكر الأستاذ في نفسه.

هكذا كانت دلال تحرص في كل لقاءاتها مع رباح، أن يكون وحده في المنزل، وفي منطقة لن يصل إليها أيّ من معارف الأستاذ، كانت متحفظة جداً كي لا تلامس مشاعر صديقها القديم، الصديق الذي كان حساساً جداً، فلو عرف أيّ شيء عن هذه العلاقة ستكون قاتلة بالنسبة له، وقد أخبرت رباحاً بكل الأشخاص المحتملين الذين يمكنهم أن يفشوا سرها عند الأستاذ، وقد وعدها أن يكون بعيداً عنهم قدر استطاعته، هكذا أخذت تواعده سراً عندما تذهب إلى دروس اللغة كل أسبوع.

* * *

بالرغم من أن رباحاً كان شاباً مغموراً، طائشاً، عاش طفولة بائسة ومتعسفة، جعلته حساساً ومزاجياً ودفاعياً معادياً للمجتمع. إلا أنه كان جذاباً، يتسم وجهه بجمال فوضوي، وحيوية كبيرة. قالت دلال حين رأته للمرة الأولى:

ـ هذا الوجه الجميل هو قدري.

وأخذت تنتظر الأسبوع كله متلهفة لرؤيته، هذه اللهفة والحماسة لرؤيته هي التي نبهت الأستاذ للتغير الكبير في مشاعر دلال نحوه، لقد أصبحت عصبية معه، متغيرة المزاج على الدوام، تغضب لأيّ سبب، تقضم أظافرها كلما تتحدث معه، لحظات الفرح الوحيدة التي تشعر بها هي عندما كانت تتظاهر بأنها تقرأ دروس اللغة وتريد الذهاب إلى الدرس.

كانت هي الحجة الوحيدة التي تذهب فيها لملاقاة عشيقها، فهي تترك طفلتها عنده، تمسك دفاترها وكتاب تعليم اللغة، وتهرع متحججة أنها تريد اللحاق بدرسها. فتغيب ثلاث ساعات في شقة عشيقها الجديد، وحين تعود

كل شيء باد عليها، كل شيء ظاهر، كل شيء فيها ينطق ويخبر عن هذا الحب الجديد الذي يتلبسها. وكان هو بسهولة يتعرف على ما اقترفته من ورائه، يشعر بكل شيء فيها، فهو واضح عليها وضوحاً شديداً! ذلك أنها تعود مسرعة، متلبكة، مضطربة، لكنها مترعة بالحب، مترعة بالعواطف والرغبة، عيناها تتوهجان، تشعان بالرضا. وهذا ما كان يذله، يشعره بالاحتقار الشديد لنفسه، يشعر بأنه لم تعد له أية أهمية في نفسها، لم تعد ترى فيه الشخص ذاته الذي كانت تراه فيما مضى، إنما لم يعد هو بالنسبة لها أكثر من إيسوب في بشاعته.

الأوهام والأحلام

ما زال الأستاذ يفكر... أو يتوهم! فالأوهام التي تسيطر عليه تنتهي دائماً بالبحث عن أسطورة.

لقد هيمنت على الأستاذ أسطورة المليون هذه المرة بشكل مطلق تقريباً، كانت الإشارات الغامضة التي يطلقها جلال عن لقائه بالوزير جعلت الأستاذ يشعر أن الأمر أصبح بمتناول اليد.

هذا الأمر يتعلق بطريقة تفكيره، فهو يعير الكلام أهمية بالغة، هو يجلس ويحلم، وحين يستيقظ يستمر الحلم داخله، لا يريد من أحد أن يهدم له هذا العالم الخيالي الذي يعيش فيه، ببساطة لأنه المكان الوحيد الذي يريحه، ويجد نفسه فيه، بينما هو لا يحب العالم الحقيقي، لا يحب الواقع لأنه مناقض لطموحاته، لأنه لا يشتمل على سعادة ولا على فرح ولا على بهجة، لقد فارقته هذه الأشياء من زمن بعيد، ولم يبق له غير هذا العالم الخيالي الذي يرقد فيه راضياً وسعيداً. وقد زاد من كل هذا هو شعوره أن المال هنا في هذا العالم الرأسمالي، هو كل شيء تقريباً، أو هو المفتاح السحري، الذي سيحل له كل مشاكله. فبعد المليون لن يكون لاجئاً، لن يخشى من الشرطة، ولا من الفقر، ولا من أيّ شيء تقريباً، بل سيغدو حراً...

وهذه الكلمة الأخيرة هي التي جاء من أجلها إلى أوروبا، ولكنه لم يجدها، لقد وجد نفسه سجيناً لزنزانات متعددة، واحدة من هذه الزنزانات هي الأوراق الشرعية.

ـ أن أصبح مليونيراً بدلاً من لاجئ أمر رائع أليس كذلك؟ قال الأستاذ لدلال، وكأنما تحققت أمنيته.

ـ كيف تكون مليونيراً وأنت تقول عن نفسك ماركسي؟

ـ سيلقبونني حينها بالمليونير الأحمر! لمَ لا؟ سأوزع الكثير من ثروتي، بعد ذلك، على الفقراء، ألا ترين هذا أمراً رائعاً!

ابتسمت دلال وقالت له:

ـ حينما يصبح المليون في جيبك لن توزع شيئاً... ستستيقظ في الصباح لترى أن المليون رقم صغير لطموحك، وستحلم حينها به وقد أصبح مليونين.

ـ هل تعتقدين ذلك؟

ـ كل البشر هكذا... هم اشتراكيون حينما يكونون فقراء... ولكنهم حينما يغتنون يصبحون برجوازيين حقيرين!

وضع الأستاذ السيجارة في فمه وقال لها بتهكم:

ـ ولكن ماركس كان من عائلة برجوازية... هل تعرفين؟

ـ لا، لا أعرف...

ـ لو كنت تعرفين ما كنت أخطأت هذا الخطأ...

ـ أعرف ماذا؟

ـ لو كنت تعرفين ماركس...

ذكر ماركس أثار حنق دلال، فهبطت من السرير، تناولت كالسونها وارتدته وهو تقول:

ـ كس أخت ماركس يا زلمة... ذبحتنا بماركس كلما أقلك شي تقللي ماركس!

جلال وأداليد

طلبت أداليد من جلال أن يزورها في غنت، في المدينة الفلامانية التي تقع شمال بلجيكا، اتصلت به بالتلفون حينما كان في مطبخ منزله، قد أخرج صحناً من المعكرونة من الأوفن، حمله بقطعة قماش، إلا أنها لم تكن كافية، فحرقت له يده، إلا أنه تلافاها واستطاع أن ينقذ الصحن من السقوط، ويضعه بصعوبة بالغة على الطاولة. كانت رائحة الجبنة والصلصلة البولنيز قد دخلت في أنفه وهو ما زال يتكلم مع أداليد:

ـ حسن، قلت لك سآتي، ولكن أخبري أهلك بذلك.

ـ أخبر من؟

ـ أمك ألا تخبري أمك...؟

ـ أمي صماء، ومعاقة النطق... وهي وصامتة اليوم كله...

ـ أنا آسف... ولكني سألتقي بمن؟

ـ تعال وأنت ترى من هم عائلتي...

ـ من هم؟

ـ أمي وكلبتي...

صمت قليلاً ثم أراد أن يغير مجرى الحديث:

ـ سآكل عندك طبقاً فلامانياً أليس كذلك؟

ـ سأطبخ لك طبقاً فلامانياً اسمه بيكاربوناد فلاموند، وهو لحمة بالبيرة القوية!

ـ أوه أحب ذلك... قالها وهو يضع كمية من المعكرونة في فمه...

ـ حسن، بكرة صباحاً في العاشرة أخرج من البيت.

ـ أوكي أراك غداً.

ـ حسن، إلى اللقاء

* * *

في الصباح خرج جلال من منزله في السان جوس، كي يذهب إلى المحطة ويستقلّ القطار الذاهب إلى بروج على أمل أن يهبط في محطة غنت حيث ستكون أداليد هناك بانتظاره.

كان الجو مشمساً، وكان شارع محطة السنترال مزدحماً بالسيارات، وقد حاول جلال طوال الطريق أن يتحاشى الدراجات التي تسير على مستطيل بني مرسوم إلى جانب الشارع، وما إن وصل إلى تمثال الملك ليوبولد حتى قفز على البلاطات المربعة وانغمر بتسليته الدائمة كلّما سار على أرصفة بروكسل، وهو عدّ بلاطات الرصيف حتى يصل إلى المنطقة المبنية بالحجر المتعرج حيث لا بلاطات هناك. غير أنه أراد أن يخبر أداليد قبل أن يصل إلى غنت أن عليها أن تعرف أنه رجل يحب القطارات، والكلاب وبلاطات الرصيف، ويكره السلالم المكشوفة والرقم صفراً والقطط السود.

* * *

ما شعر به جلال حينها أن أغلب السابلة قد بكروا بالصيف وارتدوا

ملابس خفيفة وقبعات ونظارات شمسية. كانوا يسيرون مبتهجين تحت الشمس الساطعة ولم يعرفوا في حينها أن الغيوم ستتجمع سريعاً عند أول الظهيرة وستحجب الشمس تماماً وسوف يتساقط المطر ويبللهم. وهكذا أخذ جلال معه الفيست الجلدي تحوطاً، وعدم ثقة بالجو، وربما بالحياة أيضاً.

* * *

لم يخبر جلال الأستاذ بأنه ذاهب إلى غنت، لملاقاة أداليد. كما أنه لم يذكر له أيضاً أنه يريد المرور على بار الزعران الروس ويلتقي فلاديمير، وهذه المرة ليس لمشاهدة فلاديمير وهو يلعب لعبة الروليت الروسية ويكسب منها المال، إنما لأمر هام وضروري يتعلق بعملية المليون دولار القادمة للوزير.

مر جلال قبل أن يذهب إلى محطة قطار السنترال في بروكسل على بار الزعران الروس ليلتقي فلاديمير هناك، لقد قرر أن يحدثه بشكل غير واضح عن قصة المليون، دون أن يذكر الوزير، من دون أن يذكر الرقم، دون أن يذكر له أيّ شيء عن العملية، ذلك أنه لم تكن لديه أية ثقة بصديقه هذا. لقد شعر أو حسب الحساب البشري الطبيعي، أن فلاديمير بالرغم من الصداقة القوية التي تربطهما، لكن له عقلية مافيوية خطرة، ربما يطمع فيما بعد ويخطف المليون منهما.

الشيء الرئيس الذي أراد أن يعرفه جلال من فلاديمير هو أن يعطيه بعض المعلومات عن تهريب الأموال وكيفية التعامل معها. فقد كان يجهل أيّ شيء عن هذه العمليات، بل إن الأمر بالنسبة له برمته ملغز! وكان يتساءل كيف سيدخل مليون دولار إلى بلجيكا؟ من يحمله؟ من يستلمه؟

كيف يصل؟ هل يصل على شكل أوراق بقفص، مثلاً؟ بكيس؟ هل يأتي إلى البنك مباشرة على اسم الوزير؟ هل سيكون على هيئة غسيل أموال؟ هل سيكون بصورة شركة وهمية، استثمارات؟

أم ماذا؟

* * *

قبل وصول جلال إلى بار الزعران رأى فلاديمير من بعيدٍ واقفاً مع شابين روسيين اثنين قد حلقا شعريهما على الزيرو، وحين اقترب منهما قدمه فلاديمير لهما بوصفه صديقه الحميم، لكنه لم يذكر اسم أيّ واحد منهما، وقد لاحظ جلال أن الرجلين قد نقشا على السواعد تاتو لصليب صغير وتحته علامة لفريق روك هيفي ميتلز باللون الأحمر. سار جلال مع فلاديمير الذي سرعان ما صرف الشابين وأخذ جلال من يده ودخلا إلى البار. هرعت النادلة ألكساندرا من مكانها وسلمت على جلال، ومن دون أن تسأله جلبت له شتات التكيلا والملح والليمون.

ـ اسمع فلاديمير... كيف تأتي الأموال المهربة إلى بلجيكا؟

ـ لماذا تسأل تنتظر وصول أموال مهربة؟

ـ لا ولكن خطر في بالي...

ـ هذا يعتمد على المال المهرب...

ـ لم أفهم!

ـ يعني الكمية والنوعية...

ـ لم أفهم!

ـ يعني حسب ما عندك من مال... اليورو غير الدولار...

ـ لنفترض أنه دولار...

ـ حسب الكمية...

ـ لنقل إنه مليون...

ـ هههههه أنت تسأل عن مليون الوزير العربي أليس كذلك؟ قال له فلاديمير ساخراً.

صعق حينها جلال وقال مندهشاً:

ـ كيف عرفت...؟

ـ يا رجل حتى قطط المزابل سمعت بمليون الوزير العربي...

كان جلال يعتقد أن هذا المليون القادم هو سر لم يسمع به أحد، لكن فلاديمير أكد له هذه الحقيقة:

ـ اسمع! هنالك في بروكسل أكثر من مليون شخص من لاجئين، ونصابين، وعاهرات، ومرتزقة، وفقراء، وسكيرين، وكلوشارية، وباعة خضرة وفواكه، وشوفيرات سيارات، كلهم بانتظار هذا المليون.

ـ كيف؟

ـ الجميع يعرف أن هذا الوزير سرق مليون دولار وهو يمنِّي الجميع بفتح شركات وتشغيلهم، أو تقديم مساعدات لهم، أو منحهم مكافآت، ولأجل هذه المساعدات التي لم تحدث هنالك في الحقيقة مليون شخص يقدم خدماته لهذا الوزير، فهو يأكل مجاناً، ويشرب مجاناً، ويضاجع مجاناً، وهنالك شوفيرات، وأصحاب بقالات، ورجال خدمة، الكل يقدم له خدماته علّه يحظى بمساعدة منه فيما بعد.

* * *

ـ كيف استطاع هذا ابن القحبة أن يجند كل هذه الحشود لانتظار مليونه؟

تساءل جلال وهو يصعد القطار في طريق ذهابه إلى غنت، مع ذلك كان الأمل في داخله كبيراً، أن بإمكانه أن يلطش هذا المليون من أفواه جميع هؤلاء ويستأثر به مع الأستاذ لأخذ حصتهما وتوزيع الباقي على اللاجئين.

مع أداليد في غنت

تأخر جلال في الوصول إلى المحطة، ولم يستطع اللحاق بالقطار السريع، كان ذلك بسبب وصول الرئيس الأميركي أوباما، الذي اجتاز موكبه ساحة الغراند بلاس التي لا تبعد كثيراً عن محطة القطار. وقد لحق بالقطار البطيء الذي يقف في كل محطة من محطات القرى والبلدات الفلامانية حتى الوصول إلى غنت. حين جلس كانت صورة الرئيس الأميركي تغطي الصفحة الأولى من صحيفة دي مورغن الفلامانية التي خلفها الشخص السابق الذي جلس جلال مكانه. ليس بعيداً عنه، وعلى الكرسي المحاذي للممشى جلست فتاة جميلة، ترتدي تنورة قصيرة وكانت لها ساقان جميلتان، بقي جلال هادئاً، مهذباً في جلسته، غير أن عينيه كانتا تذهبان رغماً عنه، من وقت إلى وقت، إلى ساقيها.

كان جلال ينظر من خلال النافذة حيث كان القطار يمرٌّ بالقرى الفلامانية الجميلة التي لا يعرف جلال حتى أسماءها، غير أنَّ حقول القمح الأصفر المتمايلة والظلام المتنامي ملأ نفسه بالجمال، لقد وجد نفسه فجأة في جنة حقيقية لا يعرف حدودها أبداً. ذلك أن حياته في بروكسل أخذت مساراً واحداً، أن كل بلجيكا هي بروكسل، وأن بروكسل هي حيّ المهاجرين لا أكثر.

* * *

حين وصل القطار الى مدينة غنت هبط جلال وأخذ يبحث بين الواقفين عن أداليد.

ـ جلال... جاءه الصوت.

التفت شمالاً رأى أداليد تفتح ذراعيها له، وقفت على رصيف المحطة بانتظاره وقد وقف إلى جانبها كلبها الأبيض الطاعن في السن، والكليل البصر.

كانت أداليد فلامانية شقراء ذات بشرة طرية وعينين جميلتين. حين تتكلم الفرنسية فهي تمط الكلام ببطء محبب، وقد أدهشه اهتمامها بالسياسة، فقد كانت تتحدث كأنها رجل. لم تكن أداليد محتشمة، لكنها كانت مخلصة جداً. حين تعرت أول مرة في شقتها في بروكسل وقع جلال صريعاً في عشق جسدها. فبالرغم من أنها كانت رفيعة كأصبع البازلاء، إلا أن مؤخرتها كانت مدورة بشكل جيد، وكان صدرها الصغير صلباً ومتوثباً. لقد شعر جلال أمام جسدها الأبيض الوردي، أمام شعر عانتها الأحمر، وجهها المدور الصغير، شعرها الأشقر أنه أمام لوحة هولندية.

لقد أخذته من يده وسارت به في شوارع غنت، عبرا النهر وعبرا الشوارع المرتبة حسب الترتيب الأبجدي والتي حمل كل منها اسماً يدل على الفخامة. حتى وصلا إلى الشارع الذي تقع فيه شقة أداليد، أو شقة أمها بالأحرى. حينما طرقا الباب ظهر من خلفه رجل نحيف، له يدان رقيقتان جداً. كانت رائحة الفن تنبعث من جسده، فقد كان يرسم في الداخل وحين خرج كانت رائحة الألوان الزيتية تنبعث منه.

قدمته أداليد له على أنه عمها.

وقد شعر جلال أن هذا الرجل من الذين خُلقوا ليكونوا فنانين، ويبدعوا أشياء عظيمة، أما هو فلم يكن شعوره عن نفسه غير أنه في أحسن أحواله له هيئة غاسل صحون.

لم تكن أداليد من العائلات الفلامانية الثرية، بل كانت من الطبقة العاملة، هاجر والدها الى شارلروا وعمل عاملاً يومياً، فهو لم يدخل المدرسة، ولم يتعلم الكتابة والقراءة إلا بعد أن تخطى العشرين من عمره، وكان هو الذي علم نفسه بنفسه.

أخذ الأب يعمل أعمالاً شاقة كي يقيم أود العائلة، ولم يكن سعيد الحظ أبداً، وانتهى هذا النحس بموته مقتولاً بحادث سيارة أثناء عمله، دون أن يقبض على السيارة التي دهسته. وكانت ذكريات أداليد عن والدها شاحبة، فالرجل المديد القامة، الأشقر الشعر، الفلاماني الذي ينطق الفرنسية بصعوبة ويجهد نفسه في كتابة ولو سطر صغير، على بطاقة، أصبح صورة فوتوغرافية ومجرد اسم.

لقد مات مخلفاً طفلين صغيرين أداليد وشقيقها الذي مات بعد عامين من وفاة والده بمرض غريب. وأما أمها فقد أصيبت بمرض وهي في قريتها القريبة من أنتويربن، أثناء طفولتها، لكن والدها المريض وأمها السكيرة أهملا مرضها وأدى بها ذلك إلى الصمم وإعاقة النطق.

لقد انتقلت الأرملة بابنتها إلى شقة في غنت، حيث راحت تكسب قوتها من عملها كمنظفة في دائرة حكومية. وكانت طفولة أداليد تعيسة، تعيسة حتى النخاع! كانت شاحبة أشبه بمريضة، ضامرة وكتفها هزيل، يصيبها الخوف على أمها كلما نهضت من نومها... إنها لا تكاد تحس بوجود هذه المرأة التي تعيش معها، وتتألم حتى الدموع لذلك الصمت الحيواني الذي يغلفها...

هل كانت تشعر بالشفقة على أمها؟

كانت تشعر بالشفقة حتى الموت على هذا المخلوق الصامت الحزين

الذي لم تترك له الحياة أيّ فرصة للتعبير عن نفسه، لم تترك له غير بعض أصوات وهمهمات تعبر بها عن حنانها وحبها لابنتها الجميلة والحزينة...

ولكن هل هذا هو ذاته الذي جعل من أداليد تحمل الشفقة في ذاتها على كل الكائنات الفقيرة الصامتة؟

كانت حياة أداليد وما زالت مشبعة بحضور والدتها الصامت... لقد عاشت أداليد على حضور هذه المرأة التي كانت تفكر بعسر، وتنطق بعسر، ولم يكن لها غير عينيها البنيتين اللتين تعبر من خلالهما عن حبها وحنانها لابنتها، كانت أداليد ترى كل حياتها تتركز في هاتين العينين الصامتتين لأمها، وهاتين اليدين المتعبتين، وتلك الجمل الوجيزة المتقطعة.

لم تنس أداليد عالم الفقر الذي عرفته في طفولتها في شارلروا، ذلك العالم المغلق الصامت. العالم الذي يعبر عن نفسه من خلال عزلته الخاصة، من خلال إهماله ونبذه. لم يكن هؤلاء الفقراء الذين عاشت أداليد بينهم يتوقعون شيئاً من أحد، فكانوا يعبرون بصمتهم عن احتقارهم لكل التعميمات الثرثارة والتعزيات السهلة التي يلذ للطبقات البرجوازية الأسعد حظاً أن تقدمها لهم.

* * *

جلس جلال على الأريكة في المنزل، كان الكلب قد اقترب منه واضجطع قرب قدميه، بينما كانت الأم صامتة تنظر من الشباك.

لم يكن لجلال سوى أن يتذكر حياته في العراق، حياة الحرب والنبذ، والسجن، فقد كان والده قد اختفى في الثمانينيات على يد مخابرات صدام، وأراد أن يثني على الحياة في أوروبا، هنا أوقفته أداليد:

ـ أتعلم أن سبعين مليون أوروبي قد نفوا أو قتلوا بين العشرينيات والأربعينيات من القرن الماضي؟

ـ نعم... ولكن؟

ـ من يتأمل هذه الواقعة بإلحاح درامي اليوم في أوروبا... لا أحد! قالت له أداليد.

في الواقع كانت أوروبا هي اهتمام أداليد الدائم، وكانت تريد الجميع أن يتأمل في القرن الماضي، فخلال ربع قرن حدث العديد من الثورات، والانقلابات، والنفي الجماعي، ومعسكرات الاعتقال، والكثير تعرض للسجن والتعذيب والموت العنيف.

ـ الأوروبيون الآن نسوا كل شيء، إنهم يرون العنف والقتل حكراً على مجتمعات أخرى.

ـ هذا صحيح! قال جلال.

ـ نحن ننظر لكم بازدراء، ونقول كم أنتم وحشيون، ولكن قبل أقل من قرن، نحن اقترفنا أشياء فظيعة. ومع ذلك لا أحد من جيلي يقلق اليوم، ألا تعاد هذه المسيرة ذاتها...؟

ـ نعم ممكن!

ـ التاريخ يقول إنه من الممكن أن تعاد كل هذه الوحشية... نحن ننظر بضرب من التقديس لتاريخنا وهذا ما يخيفني أكثر.

* * *

هكذا رأى جلال أداليد، أنها تعيش بصورة مختلفة عن كل الذين تعرف إليهم، إنها تنعت أوروبا بأوروباي، وتخشى على أوروباها أن تعود حزينة، مظلمة، قفراء، وذليلة...

غير أن جلالاً وجد في طريقتها في الكلام حزناً شوبنهاورياً غير مبرر، أوروبا اليوم مشرقة، ما زالت جذابة، ما زالت مغرية، هنالك الملايين من الذين يعيشون في العالم من يريدون ترك أماكنهم حيث النور والشمس التي لا تقهر والذهاب للعيش في أوروبا.

ـ هل تريدين تغيير العالم؟ قال هذه الجملة وهو يشرب كأس النبيذ الأبيض التي قدمتها أداليد له.

ـ ليس لديّ من الفضيلة ولا من الحكمة ما يكفي لتغيير العالم... لكننا علينا أن نساهم في زرع الفضيلة أن نخدم لا أكثر...

* * *

كان جد أداليد قد هاجر من قريته الفلامانية القريبة من بروج في الخمسينيات إلى بروكسل ليعمل هناك، فبعد أن تسرح من الحرب وجد الريف فقيراً مظلماً كئيباً. فهجر زوجته وطفليه، وغادر. لقد أراد الوصول بأية طريقة إلى بروكسل، فحمل زوادة وانتقل عبر القطار إلى العاصمة، لكنه لم يجد غير فندق من الدرجة الرابعة في انتظاره، فعاش في حجرة باردة رطبة، قاسى فيها كل شظف العيش ووحشته. هناك في تلك الحجرة جابه جدها كل ما في وعيه من فراغ نفسي، لقد أخذ الزمن يمتد حوله، يستطيل مبهماً من دون شكل، وكان القلق مضنياً ومهيمناً، وكذلك الخوف والغثيان اللذان برزا بقوة في أوروبا في زمن ما بعد الحرب. كانت أوروبا العالم العتيق المثقل بالشر والعذاب، المرهق بعبء التاريخ وإلهه المسيحي الرهيب.

وحين خرج جدها من فندقه في الليل وأخذ يسير في شوارع بروكسل المظلمة عثر على جثة امرأة، مرمية بزراية على الرصيف دون أن يعبأ أيّ شخص بها. فتحول قلقه إلى ثورة ومواجهة طويلة مع نفسه، تحدوه الرغبة

في أن يغادر أوروبا، إلى مكان آخر، أن يغادرها إلى الأبد. فجاءته فكرة الهجرة إلى أفريقيا. فرحل سريعاً، رحل إليها، باحثاً عن السعادة البشرية في نور الشمس والبحر. رحل ولم يعد أبداً.

* * *

كانت أداليد تخاف من التاريخ، يقلقها ماضي أوروبا الذي لم يكن سعيداً أبداً غير أن الناس نسيت كل هذا بسرعة كبيرة.

الفصل الثامن:

الوزير المفكر

من أوراق جلال

الورقة VIII

لا أحد يعرف شيئاً عن اللقاءات المختلسة في الليل العميق.

متأخرة تأتي كل يوم. يلمح ظلها يتحرك بين الأوراق في ممرات الحديقة. الكلاب تتوقف عن النباح، المطر يتعانق مع الشجر. وحين يرى ظلها يغطي وجهه براحتيه ويبكي ثم يمسح دموعه بأكمامه.

لقد ابتلت أكمامه من الدمع، وقبعته من المطر، وأقدامه من الندى في ممر الحديقة.

يا له من متوحش هذا الفتى يظهر في اللحظة التي تثرثر فيها، يربكها بظهوره، فيتكلم معها بكلمات لا رابط بينها... ويموت في أول المساء

يستلقي في أول الضوء الذي يغادر هذه الدنيا.

المفاجأة القاتلة من البحار الرث

لقد عاد جلال سكران منتشياً باللحظات الجميلة مع أداليد، لم يكن يعرف أن في أوروبا مثل هذه المخلوقات العظيمة التي شقت وأفقرت، وتنظر على نحو مختلف للتاريخ وللمستقبل. لقد شعر أن وجوده هنا في بلجيكا عظيم... عظيم... بفضل هذه المخلوقات الرائعة، لم يعد في نظره الفقر كارثة، إنما هو سبب جديد للحب والعطف، هو ثورة من أجل الآخرين، وقد شعر جلال أنه بطبيعته يميل إلى هذا النوع من الحب، الحب الإنساني، حتى المليون لم يكن بالنسبة له كما هو بالنسبة للأستاذ قصة الظفر الشخصي بالسعادة، إنما هو سعادة للآخرين، لقد زوده هذا النوع من التفكير بحرية القلب، بل بكل أسباب السعادة، حين نام مع أداليد في ذلك الليل شعر بأن الجنس معها أصبح شيئاً مختلفاً، لقد أصبح كائناً حراً يستمد دوافعه من فرديته، إن هذا الحيوان أو الوحش الأناني في داخله كان بياقة بيضاء قد أقحم في سفرة بسبب جريمة يتم فيها القتل ببراعة أفضل القصص البوليسية ولا ينال القاتل عقابه غير أن الطلقة التي أودت بهذا الوحش هي فاتحة ظفره هو... لقد شعر أنه عبد رتابات مفروضة عليه ماذا لو حصل على المليون، فإنه سيقوم بأشياء عظيمة أخرى أليس كذلك؟

سوف يغير من هذا القانون الأبدي الذي جمع مجموعة من الأصدقاء في سجنهم المقدر عليهم... الأستاذ، ودلال وفلاديمير وألكساندرا، وأداليد وجميع أصحابه الذين أحبهم.

* * *

بينما كان منتشياً بهذه الأفكار حتى حدثت المفاجأة الكبرى!

المفاجأة الكبرى التي لم يكن لا جلال، ولا الأستاذ قد توقعاها حول مصير هذا المليون الذي سمع به وانتظره حتى قطط المزابل على حد تعبير فلاديمير الروسي جاءت من البحار الرث، حين التقى به جلال أول وصوله من غنت.

لقد حدث شيء لم يكن منتظراً أبداً، ففي اليوم ذاته من عودة جلال إلى بروكسل من غنت التقى البحار الرث الذي أخبره الحقيقة التي لم يكن أحد قد عرف عنها شيئاً حتى ذلك التاريخ. كان جلال قد عاد عبر القطار الذاهب إلى لييج والمار ببروكسل، وكان قد هبط في محطة السنترال، وكان هنالك بار قريب أراد أن يأخذ كأساً من البيرة قبل أن يتوجه إلى ماتونغه لملاقاة الأستاذ.

ما إن دخل جلال إلى البار حتى أصبح وجهاً لوجه مع أحمد البحار الرجل الرث الذي عزم الوزير في الكازا ليول، ومنح جلالاً وأداليد من قنينة الفودكا التي وضعها في محزمه أكثر من كأس، وحين رأى جلالاً قفز نحوه مثل قرد، وقدم نفسه:

ـ اسمي أحمد... تتذكرني... أنا البحار...

ـ أعتقد أنت الذي... كنت مع الوزير!

ـ بالضبط...

استغرب جلال من طريقة تحيته له، لقد شد على يده وطلب منه أن يجلس ويشرب البيرة معه، وقد أخبره أن صديقاً روسياً يعرفه...

ـ فلاديمير؟

ـ لا أليكسي...!

ـ لا أعرفه!

ـ هو يعرف فلاديمير!

ـ ها أوكي! ومن أين تعرفه؟

ـ كان معنا في الكمب... هو وأنا والوزير...

ـ الوزير كان في الكمب!

ـ طبعاً!

ـ أنت تعرف الوزير من الكمب!

ـ أكيد!

* * *

كان أحمد في الخمسين من عمره، عمل في حداثة سنه بحاراً، وقد طرد من هذه المهنة بسبب مخالفاته الكثيرة وعدم إطاعته الأوامر، ولكنه مصرّ دائماً في تقديمه لنفسه على أنه بحار. له لحية مشوبة بالبياض وقد تركها من دون عناية، لم يكن طويلاً جداً، ولكن نحافته منحته هذه الصورة، وكان ظهره محنياً قليلاً، وجهه أسمر حلو الملامح، وكانت ملابسه رثة حقاً ولكنها نظيفة.

ـ هل أنت وزير؟ هكذا سأل جلالاً هذا السؤال المباشر والغريب أيضاً، بينما كانت عيناه الذكيتان تدققان به بصورة جريئة.

ـ لا... قال جلال ضاحكاً... وأنزل كأس البيرة من فمه، وبحث عن منديل ليمسح بضع قطرات علقت بشواربه.

ـ ظننتك وزيراً...!

ـ ومن أين أتاك هذا الظن؟

ـ لأني رأيتك جالساً مع الوزير. هكذا قال دون أن ينظر في وجهه مباشرة إنما تناول كأسه وأخذ منها رشفة صغيرة.

ـ وأنت كم أمضيت في الكامب؟ سأله كي يعرف الزمن الذي أمضاه في البتي شاتو طالباً للجوء، لأني أعرف من هو في الشاتو ذلك يعني أنه لم يحصل على اللجوء بعد.

ـ هذه السنة الرابعة... ولكني لست مهتماً... يكفي أن تكون لنا صداقات مع أناس كبار مثلك ومثل السيد الوزير...

ـ قلت لك لست وزيراً...

ـ آه حقاً... لقد قلت لي ذلك...

صمت بضع ثوانٍ، ثم رفع رأسه نحو جلال وسأله السؤال التالي:

ـ ولكن لماذا أنت هنا...؟

ـ ليس الأمر كذاك... ليس شرطاً أن تكون وزيراً حتى تكون في بروكسل.

صمت أحمد قليلاً وهو ينظر إلى الشارع بشرود، فتناول كأس البيرة شرب والتفت إلى جلال قائلاً:

ـ لا أقصد في بروكسل... إنما هنا في لويز...

ـ آه تقصد كثرة الوزراء هنا لأسباب سياسية...

ـ آه نعم أقصد ذلك...

ـ بالمصادفة فقط... وأنت أخبرني... كيف تعرفت إلى الوزير؟

ـ في الواقع... كان معي في البتي شاتو المخصص لطالبي اللجوء... شاهدته وعرفته من خلال صورته... كان شاعراً أيضاً... عمل وزيراً للثقافة ثم سقط بعد الثورة...

ثم أردف قائلاً بخبث:

ـ كانت صوره في تلك الفترة منتشرة في كل الصحف.

ـ يا للحظ السيئ... قلت له...

ـ كاد أن يكون حظاً رائعاً لي لولا... حدثت أمور سيئة...

ـ أوه متأسف...

ـ لا، لا عليك...

ـ لكن ما هي هذه الظروف...؟ سألته بفضول.

ـ آه ألا تعرف؟

ـ لا أعرف...

ـ أنت تعرف أنه حصل على مليون دولار...

انتظرت قليلاً ليكمل، لكنه سكت في هذا الموضع، ومن الملاحظ أيضاً، أنه قالها بهدوء شديد، كمن يقول خبراً عادياً عن زواج أو وفاة أو ولادة...

ـ الحقيقة أني سمعت ذلك...

هنا انفجر في وجهي ضاحكاً. فعرفت أنه يريد أن يقول أشياء كثيرة عنه...

ـ سأقول لك شيئاً هو بيني وبينك...

ـ بالتأكيد...

ـ إن المليون سرق منه... وهو في الواقع لا يقول هذا الأمر للجميع، وأنا ذكرت هذه المعلومة لك، ولكن لا أريدك أن تخبره بشيء، أو أن يعرف هو أني مصدرها...

ـ آه...

ـ ابن العاهرة ناك نصف النساء هنا بسبب هذا المليون المزيف...

كان من الواضح أن الغيرة هي مصدر هذا الحديث بيني وبينه.

ـ هو من أين جاء بها...

ـ سرقها من الخزينة... من أين جاء بها هل تعتقد أن أمه ورثتها من مؤخرتها... الوزراء العرب الذين تراهم هنا كلهم لصوص... كلهم سرقوا وجاؤوا الى حي لويز... لا تصدق أحداً منهم...

ـ أوه شيء فظيع... ولكن من أين سرقها... من البنك؟ قلت له بسذاجة متعجباً...

ـ أيّ بنك، هو وزير، هل الوزير بحاجة للبنك كي يسرق مليون دولار، لقد سرق خزينة الوزارة...

ـ يا إلهي كيف ذلك...؟ سألته.

ـ كلهم يفعلون ذلك... ألا تعرف؟

أخرج علبة سجائره. كانت من نوع مارلبورو لايت. قدم لي سيجارة، وأشعل لنفسه واحدة، وأخذ ينفث الدخان في الهواء...

ـ ولكن بعد فترة اكتشف أن المليون قد سرق في الطريق، في الواقع استبدل بمليون مزيف قبل أن يصل إلى بروكسل!

ـ أوه كيف حدث كل هذا؟

ـ لا أحد يعرف كيف. ولا يستطيع الكلام بهذا الأمر...

ـ وماذا فعل بعد ذلك لا بد أن الصدمة كانت كبيرة عليه؟

ـ الصدمة كبيرة ليس عليه وحده... ولكن عليَّ أنا أيضاً... ثم أكمل:

ـ في البداية اعتقدت أنه مليونير وصرت أقدم له خدمات مختلفة، ثم حين اكتشفت أن المليون طار في الطريق... شعرت بالخديعة... لا بالخديعة فقط إنما شعرت بالنكد أيضاً... ما إن حصلنا على صداقة مليونير حتى تبين أنه مليونير مزيف... يا للحظ النحس... كما أنه ذكي جداً ومحتال فهو لا يقول لأحد قصة المليون المختفي، إنما يترك الجميع يظن ذلك ولا سيما النساء، فهنالك الكثير من النساء اللواتي يطاردنه دون أن يعلن لهن أنه لا يملك المال، والكثير منهن يعتقدن أنه يملك المليون لكنه بخيل. أما الحقيقة فهي غير هذا تماماً... نصف بروكسل تنتظر هذا المليون.

ـ وماذا فعل بعد ذلك؟

ـ قايض المليون المزيف بعشرة آلاف يورو صحيحة...

ـ يعني هو لا يملك إلا عشرة آلاف يورو فقط؟

ـ نعم! اشترى بها ملابس راقية لكي يوهم الآخرين بقدراته المالية، ولكنه في الحقيقة يعيش على المساعدات الاجتماعية...

* * *

كانت الصدمة شديدة على جلال، وكان يعرف أنها ستكون صدمة كبيرة على الأستاذ لو عرف بذلك، غير أنه لم يصدق الأمر وقرر التحقق بشكل جيد حول الموضوع ومن مصادر مختلفة.

في البداية حاول الاتصال بالشاب ابن البولونية الذي يسكن في العمارة ذاتها إلا أنه فشل، بعدها طلب من أداليد أن يحصل على عنوان صاحبة الصالون الرومانية، ولكنه فشل أيضاً، بعدها عاد إلى فلاديمير ليعرف ما

يعرفه على الأقل عن طريق أليكس، فتعرف على أشياء كثيرة تخص الوزير في ذلك اليوم، ومن هذه الأشياء التي أخبره بها أن الأمر اتخذ مساراً معقداً على نحو قليل، مع هذا الوزير المحتال، ذلك أنه سرق صبيحة يوم الانقلاب مليون دولار، قال له فلاديمير إنهم يعتقدون أن هذه الكمية كانت نصف ما حوته خزينة وزارته في ذلك الوقت، أما النصف الآخر فقد تركه فرقاً على الموظفين الحزبيين الباقين، مقابل السماح له بتهريب هذا المبلغ إلى أوروبا. وقد سلمها مباشرة إلى شخص ادعى أنه الوسيط بينه وبين شركة تهريب أموال مشهورة في ذلك الوقت، هذه الشركة ترعى منذ الخمسينيات المصالح المالية (المسروقات) للوزراء والرؤساء والمسؤولين الذين تطيح بهم الانقلابات العسكرية في آسيا وأفريقيا، مقابل أن تحصل على مبلغ قدره 10 في المئة من الأموال المهربة من العالم الثالث إلى أوروبا، وهي على الأرجح لها علاقة بشركات كبرى لها مصالح اقتصادية وتجارية أوروبية في آسيا وأفريقيا، جنباً إلى جنب شركات النفط وتجارة السلاح.

الوزير اللاجئ

وهكذا وصل الوزير إلى بروكسل، إلى مكتب اللجوء مباشرة. عاملوه في البداية معاملة مختلفة. لقد وصل إلى مكتب الهجرة في بروكسل ظهيرة يوم خريفي. في الباب كانت قد استقبلته امرأة شقراء، بعينين زرقاوين جميلتين وصغيرتين، كانت طويلة جداً، لها ابتسامة عذبة تتكلم الفرنسية بلكنة واضحة، لم يبد عليها أية علامة على أنها شرطية.

دوّنت اسمه على ورقة صغيرة، ثم أعطته رقماً، وقالت له: «اتبعني!».

سار وراءها. كان الممر طويلاً تنبعث منه رائحة مواد التنظيف كما لو كان فندقاً. وصلا إلى قاعة صغيرة، طلبت منه الجلوس. جلس على كرسي خشبي مريح، أمامه طاولة عليها مجموعة من الصحف والمجلات المحلية، وهنالك زهور وأشجار ظلية عند الزجاجة الكبيرة، كان المكان أشبه ما يكون بدكان حلاق.

عادت إليه بعد دقائق، وقالت له بصوت هادئ والابتسامة تملأ وجهها:

ـ أنت أصبحت الآن طالباً للجوء السياسي بشكل رسمي.

لم يكن يعرف مغزى هذا الأمر أو تأثيره.

بقي ساكناً في مكانه، رفع رأسه في البداية إلى الأعلى. كان الحائط الأبيض في مواجهته، ثم أخذ ينظر ما بين قدميه. لا شيء تقريباً يتحرك إلى جانبه يثيره أو يحركه... كان يحسب الدقائق التي تمر، منتظراً الخطوة

التالية. لا يعرف ما هي، أو إلى أين يمكنها أن تؤدي به. ما يعرفه أنه كان مستسلماً كلياً ومستعداً لأيّ ردّ فعلٍ مهما كان.

بعد دقائق، لا يعلم مقدارها، ربع ساعة أو أكثر، دخلت شرطية، في العشرين من عمرها، إلى المكان. صارت هكذا مباشرة أمامه وفي يدها ملف صغير. تجاوزته في البداية وسارت إلى الحجرة المقابلة، يفصلهما جدار من الزجاج السميك والعالي. وقفت أمام طاولة زجاجية كبيرة، لم تكن تنظر إليه، كانت عيناها تذهبان إلى كل مكان، ولكنها تحرص ألا تذهب باتجاهه. وقفت ثواني، تلفتت، ثم وضعت الملف على الطاولة ورفعت رأسها نحوه، وجدته ينظر نحوها. اكتفت بالابتسام له وجلست.

ـ لماذا ابتسمت لي... هكذا سأل نفسه.

كان الهدوء كبيراً حتى كاد أن يسمع دقات قلبه. كان مستسلماً كلياً، بلا عاطفة، بلا خوف، بلا فرح، بلا رهبة... بلا أيّ شيء، سطح مستو، يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون به. كلما تمر خطوة، كان ينتظر الخطوة الأخرى لا أكثر.

رفع رأسه إلى الأعلى، باحثاً عن كاميرا مراقبة مخفية في مكان ما، في زاوية ما، وهي لعبة ابتكرها لنفسه كلما يدخل مكاناً جديداً. يجلس ويبحث عن هذه الكاميرا المخفية. كان المكان مغلقاً، أبوابه جميعها تعمل على صفيحة إلكترونية صغيرة.

دخلت شرطية أخرى إلى المكان أكبر سنّاً من الباقيات. خلعت مسدسها ووضعته في الخزانة، ما يفصلهما زجاج سميك يمتد من أعلى السقف إلى الأسفل. في المقدمة، ينتصب أمامه حائط أبيض نظيف، مطلي طلاء جيداً، يخلو تماماً من أيّ شيء، لا لوحة ولا كلندر ولا نافذة.

دخلت شرطية أخرى أصغر سنّاً، شقراء نحيفة، ترتدي نظارة طبية،

تقدمت نحوه، وقفت أمامه، أشارت بأصبعها نحوه ولفظت اسمه، نهض من مكانه أمامها فمدت يدها لمصافحته، وطلبت منه أن يصطحبها إلى غرفة ثانية.

سارا في ممر طويل. في نهايته بوابة كبيرة. وقفا، كتبت الرقم السري سرعان ما انفتحت وأدخلته إلى بهو كبير، يحتوي على مصاطب خشبية طويلة متقابلة، يجلس عليها رجال ونساء من جنسيات مختلفة، من ألوان مختلفة وبلغات شتى. قالت له عليه أن ينتظر هنا مع هؤلاء الجالسين إلى أن تتم مناداته.

جلس على المصطبة، إلى جانبه ثلاث نساء من الشيشان، أمامه حوالي عشرة رجال ونساء من أماكن مختلفة، من أفريقيا وآسيا ومن أوروبا. ما ميزه من بينهم هم الغجر، بسحناتهم المختلفة، والملابس الغريبة التي يرتدونها.

* * *

بعد نصف ساعة من الانتظار تمّت مناداته باسمه. اصطحبته شابة سمراء طويلة القامة معها، كانت تضع باجاً مدنبساً في تنورتها، وكلما وصلا إلى باب مغلق يكفي أن تضع الباج عليه كي يفتح. كانت تمشي وهو يسير إلى جانبها، يتخلف عنها بخطوة واحدة تقريباً. حتى وصلا إلى بهو داخلي صغير، مقطع من الحجر والزجاج، يتكون من حجرتين متصلتين، فيها مجموعة من الموظفات يجلسن بصورة متقابلة، وفي الطرف سيدة تجلس بشكل منفرد يبدو عليها أنها مسؤولة المكان.

طلبت منه الجلوس على كرسي منجد، واطئ ومريح، قبالة هذه السيدة التي يبدو عليها أنها مسؤولة المكان. شعرها الأحمر قصير، ترتدي نظارة طبية، تمسك القلم بيدها وتؤشر على أوراق مختلفة أمامها، لم تكن تتحدث

في البداية، إنما كانت تنظر في الأوراق المقدمة لها. جلست أمامها سيدة أخرى، في الأربعين من عمرها بشعر أسود وعينين سوداوين، ترتدي فستاناً سترابليس، نحيفة طويلة، جميلة. قالت له إنها المترجمة المكلفة بترجمة المقابلة الأولية معه.

التفتت السيدة المسؤولة إليه وطلبت منه التكلم مع المترجمة. ثم سألته فيما إذا كان يفهم عليها، أو فيما إذا كانت هنالك أية مشكلة معها. قال لها لا مشكلة له معها، وإنه يفهم عليها جيداً.

بدأت بأسئلة متنوعة تتعلق بمعلومات شخصية أولية عنه، اسمه، وأسماء أفراد عائلته، وعمله، وسبب طلبه للجوء السياسي. نهضت من مكانها، وطلبت منه أن يصطحبها إلى غرفة ثانية، كانت غرفة لأجهزة متعددة، يشرف عليها شاب سمين، برأس كبير يضع الباج على بلوفره الأحمر من جهة الصدر. ابتسم له وطلب منه أن يفتح يديه ليراها، بعدها أخذ طبعات أصابعه وأدخلها للجهاز، ليتأكد من أنه لم يقدم أيّ لجوء إلى أية دولة من دول الاتحاد الأوروبي.

عادت به إلى المكان ذاته، كتبت على الأوراق، وأدخلت المعلومات في الكومبيوتر، ثم طلبت منه الدخول إلى حجرة ثانية. دخل. كان فيها كرسي واحد في الوسط. تركته دقائق، وهو ينظر في أطراف الحجرة، شاهد كاميرا مراقبة صغيرة موجودة في طرف الحائط. جلس بهدوء مزعج، دون نأمة، دون صوت، في حجرة كلها بيضاء واطئة السقف. بعدها بحوالي ربع ساعة، دخل مصور طويل القامة يرتدي نظارات طبية، طلب منه الوقوف، ثم أخذ يلتقط له صوراً مختلفة بأوضاع وجهات متعددة. ثم طلب منه الجلوس وأخذ له صوراً متعددة أيضاً.

بعد ساعات وجد نفسه في البتي شاتو.

البتي شاتو هو كامب كبير جداً لاستقبال اللاجئين، أو محطة إجبارية تستقبل طالبي اللجوء والقادمين من كل أنحاء العالم، حيث يتم إحالتهم إلى قلعة كبيرة، مبنية من الطوب الأحمر تشبه قلاع القرون الوسطى، تقع في مركز مدينة بروكسل بالضبط.

معركة مفتعلة

وجد الوزير نفسه بين آلاف اللاجئين القادمين حديثاً من مناطق النزاع المختلفة من العالم، بعضهم جاء من أفغانستان ما زال بملابسه المحلية وبلحيته وهو يحمل كيس ملابسه، بعضهم من إيران بملابس حديثة أو بالجفنة والشروال، آخرون جاؤوا من العراق، بعضهم من روسيا، أو من صربيا، الكثير منهم من رومانيا، وهنالك ألبان، غجر، شيشان، وفي المؤخرة كمية كبيرة من الأكراد، والأفارقة، والآسيويين، وهنالك من غزة، ومن سوريا، وكمية غامضة من مناطق مختلفة من العالم.

هذا الجمع سمته الغالبة هو النزاع، رأى الوزير أن هؤلاء الناس ما زالوا يتنازعون بينهم، ومن وقت إلى وقت ينشب صراع بين الأكراد وبين الأتراك، بسبب سياسي أو بسبب تحرش أحد الأتراك ببنت كردية في الجهة الأخرى من الشاتو حيث تقطن النساء أو العوائل. أو معركة بين الرومان والشيشان حول الدور في الطعام، أو بين العرب والأفغان حول التلفزيون، أو بين الأفارقة والروس حول المكان. صراعات لأسباب حملها هؤلاء اللاجئون معهم من مناطق الصراع التي جاؤوا منها.

لقد وجد الوزير نفسه وسط هذا السيل من المشاكل المتداخلة والمفارقة... بل وجد نفسه أحدهم، والأكثر من كل هذا، وجد نفسه يتدافع معهم على فطور الصباح حيث تكون الحصة قطعة من الخبز مع زبدة وشوكولاته، وكوب من الشاي.

ما لاحظه الوزير أن الكميات كبيرة ولكن النوعية كانت متدنية بشكل كبير، بعدها عليه أن يقف أكثر من ساعة في الطابور متلوياً بانتظار دوره في الحمام، وهي عبارة عن كابينات مؤقتة مصنوعة من المعدن والفلين والبلاستيك يسهل تغيير مكانها، تشبه الحمامات المؤقتة التي تنشأ في الساحات أثناء الحفلات الراقصة في الساحات والحدائق.

في المساء تكون هنالك قطعة من الدجاج أو اللحم المطبوخ موضوعة في طناجر بكميات كبيرة حيث تكون رائحة الزفر عالية جداً. أما المنام ففي قاعة تحتوي على أكثر من خمسين سريراً لأكثر من خمسين لاجئاً، جاؤوا من أربعة أكوان الأرض إلى بلجيكا، ويتكلمون لغات مختلفة.

وبعد أن أعطوه المنشفة والصابونة والنعال انتظر دوره واقفاً ليحصل على دوش في كابينه لا تعلو رأسه بكثير بينما يجري الماء أمامها ليهبط في حفرة التصريف. وحينما جاء لينام سجلوا اسمه ومنحوه حصته من الكوندوم!

* * *

في تلك اللحظة أدرك أن حضور المليون إليه في بروكسل منقذ، لا سيما أن زملاء له قد وصلت حصصهم، مثل وزير الداخلية، وزير الخارجية، مدير الأمن العام، نائب الرئيس... واستقلوا بمنازل جميلة مباشرة في حي لويز. ولكن كان عليه أن ينتظر. كل يوم يمر يشعر بقلق أكبر. حاول الاتصال مراراً وتكراراً، لكن النتيجة كانت واحدة، هي عليه أن ينتظر. حين يعود في المساء إلى البتي شاتو حيث تغلق أبوابه قبل الساعة الحادية عشرة، فعليه التواجد هناك حتماً، يصل مرهقاً، يصعد إلى السرير، تطفأ الأضواء فيكون النوم إجبارياً.

* * *

إحدى المرات كان عائداً إلى قاعة المنام في الليل. سجل اسمه لدى المساعدة الاجتماعية مدام أليس، وهي امرأة شقراء، طويلة القامة، تقارب الثلاثين من عمرها، تنحدر من مدينة غنت الفلامانية، وتعمل في بروكسل كمساعدة اجتماعية للاجئين، ترتدي نظارة طبية بإطار ماركة رايبون، تجلس في مكتب الاستقبال القريب من الباب الخارجي، في يدها على الدوام كتاب تقرأ فيه.

مر إلى المطبخ الذي يقع على مقربة من العيادة، لم يجد شيئاً ليأكله، فقد انتهى العشاء منذ ساعتين تقريباً. خلع حذاءه، تمدد في السرير بانتظار أن تطفأ الأضواء، جاء المشرف على القاعات ليلقي نظرة أخيرة، كان هنالك نزاع بين السودانيين والأفغان، ونزاع بين الأكراد والأتراك، فضه حرس الشاتو. ثم ساد الهدوء تقريباً جميع القاعات وانسل الجميع الى الأسرّة، ما خلا مصارع روسي اسمه أليكس كان يذرع الصالة بعضلاته الكبيرة، جيئة وذهاباً، رأسه حليق تماماً، عيناه زرقاوان، يداه موشومتان وشوماً مختلفة. حينما جلس على حافة السرير قام المشرف بإطفاء الضوء. ساد الهدوء شيئاً فشيئاً، أخذت بعض أصوات الهامسين تخفت، أصوات تنفس النائمين تعلو، فانقلب إلى اليمين وقبل أن يغمض عينيه، برز أمام وجهه رأس بشري بعينين كبيرتين وبراطم كبيرة، شيئاً فشيئاً صار أمام وجهه.

ـ ألست أنت وزير الثقافة في الحكومة السابقة؟ كان الشخص أشبه بشيطان تسلل له من أسفل سريره وهو يضع على رأسه المنشفة.

فز، ارتجفت شفتاه وقد شعر بانقباض في قلبه، ماذا يجيب، كيف عرفه هذا الشيطان، ومن يكون؟

صمت أول الأمر لثوان قليلة، كما لو أنه لم يسمع السؤال... صمت باحثاً عن شيء يقوله، راجياً أن هذا الرأس ينحسر عنه، يختفي شيئاً فشيئاً

ويغيب. غير أن ما ترجاه لم يحدث، بل أصر في تثبيت رأسه أمامه، ولما رآه لا يجيب، كرر عليه بصوت هامس:

ـ أنا سعيد لأنك هنا...

ـ شكراً... همهم الوزير كما لو كان يخاطب نفسه...

ـ كنت خائفاً عليك!

ـ نعم...؟ قال متعجباً ومتهكماً أيضاً.

ـ أنا من مؤيدي الحكومة السابقة، أقصد حكومتنا الشرعية...

ـ ... لم يجب شيئاً بل بقي فاغراً فمه أمامه...

ـ أنا كنت بحاراً، أعمل في البحرية...

ـ تشرفنا... قال الوزير...

ـ وكما ترى الآن أنا طالب للجوء في بلجيكا...

لم يقل له إنه هنا في الشاتو منذ عامين، وإنه طلب اللجوء السياسي قبل الانقلاب، أي في عهد الحكومة السابقة...

ـ ستحصل عليه... أتمنى لك الموفقية! قال له ذلك كمن يريد أن يتهرب منه...

ـ على العموم أنا جئت هنا قبلك، وأنا أعرف هذا المكان جيداً... إذا احتجت أيّ شيء...

ـ إذا احتجت شيئاً حتماً سأقول لك...

ـ هذا المصارع الروسي صديقي أيضاً، أيّ شيء تحتاج سأكون بخدمتك، ليس فيما يخص هذا المكان فقط، إنما حتى في الخارج، فأنا أعرف المدينة جيداً... أعرف كل المحلات الجيدة، سأجعل أيامك سعيدة، صدقني ولا يهمك...

في البداية اضطرب من هذه المناقشة غير المرغوب بها، ولكن لا مفر منها، عليه أن يستسلم ولو لدقائق لهذا الفضولي المتطفل. من أين له أن يتهرب! لقد شعر بأنه وقع في الفخ فعلاً، ولم يكن هنالك أيّ طريقة للتخلص من هذا الوجه الذي سينط عليه من وقت إلى وقت ويربك هدوءه، مع ذلك حاول تجاهله، وكما لو أنه لم يعد يراه، أدار وجهه إلى الجهة الثانية وتظاهر بالنوم.

* * *

في اليوم التالي حاول أن يتحاشاه، حين استيقظ من النوم فتح عينيه ليتأكد من أنه لا يراقبه، حين رأى القاعة فارغة تقريباً، هبط من السرير العالي بهدوء. أخرج بنطلونه وقميصه من الحقيبة التي يضعها تحت السرير، ارتداهما على عجل، ثم انتعل حذاءه، أخذ الصابونة والمنشفة من كيس نايلون موضوع في الحقيبة، ثم أعادها إلى مكانها، وذهب مباشرة إلى الحمام.

كان الطابور طويلاً جداً، أكثر من عشرة أشخاص ينتظرون في الدور. أدرك لحظتها أنه سيستغرق وقتاً طويلاً كي يحصل على الدور، فقرر أن يفطر في الأول، ثم يعود إلى الحمام مباشرة.

عاد مسرعاً من حيث أتى، إلى القاعة، أعاد الصابونة والمنشفة إلى حقيبته الموضوعة تحت السرير، ورجع ماشياً في الممر متوجهاً إلى المطعم. وقف في الطابور. رفع رأسه فشاهد البحار، متطفل الأمس، صاحب الرأس الكبير والجسم الضئيل يقف في الطابور وفي يده الصينية، وكان في موقع متقدم، قبل الأخير باثنين تقريباً، بينما وقف الوزير في المؤخرة حوالي عشرين شخصاً قبله، وحين التفت البحار إليه، ميزه الوزير مباشرة،

لقد عرفه من عينيه الواسعتين ومن براطمه الكبيرة، ولكنه تفاجأ ببنيته، لم يكن يعرف أنه ضئيل وقصير إلى هذه الدرجة.

البحار من جهته ابتسم له، غير أن الوزير تجاهله، تظاهر بأنه ينظر صوب ناحية ثانية، وبدا كما لو كان منشغلاً بشيء ولا ينظر إلى المقدمة، ولكن هذا لم ينفعه فقد تكلم البحار مع الشخص الذي يقف خلفه مباشرة، وترك مكانه في الحال وتوجه مسرعاً نحو الوزير...

ـ صباح الخير سعادة الوزير...

بدت الكلمة غريبة على أذنه، ومن دون أن ينطق أية كلمة، بل بدا متلعثماً، ومضطرباً أمام هذا الفضولي اللجوج. قال له البحار:

ـ تفضل خذ دوري... إنه هناك... أنت وصلت، لم يبق سوى واحد وأنت بعده، وقد تكلمت مع حسن الأفغاني، هو قبلك، ستقف أمامه، صاح من بعيد:

ـ حسن... حسن... فالتفت الأفغاني مبتسماً، وأشر بيده للوزير أن تعال لتأخذ الدور.

هرع الوزير مجبراً، وصار في المقدمة. جاءه الدور، أخذ الخبز ووضعه في الصينية، أخذ طبق الزبدة، ثم طبق الشوكلاتة، وصب لنفسه كأس الشاي ووضعها على الصينية، تلفت يميناً وشمالاً متحاشياً وجه البحار الذي كان ينظر إليه بابتسامة واضحة، وتحرك إلى عمق الصالة. باحثاً عن مكان لا يمكن فيه للبحار أن يأتي إلى جنبه، أو يجلس أمامه. وهكذا اهتدى إلى طاولة كبيرة على الجهة اليمنى، يجلس إليها عشرة أشخاص، خمسة أشخاص من كل جهة، وفيها مكان واحد خال فقط، وهكذا يمكنه أن يجلس حيث يكون الكرسيان إلى يمينه وإلى شماله مشغولين وكل الكراسي التي أمامه مشغولة أيضاً.

جلس، وانهمك في مسح الزبدة على الخبز ببطء شديد، ثم وضع طبقة خفيفة من الشوكلاتة عليها، أخذ يقضم الساندويش بهدوء ويشرب الشاي على مهل، لقد انغمس لحظتها كلياً في مائدته الصغيرة دون الاهتمام بأيّ شخص آخر. في الواقع كانت طريقته في التهام الطعام أعجوبية، اللحظة الوحيدة التي ينسى فيها العالم هي حينما يكون أمام طبق الطعام، في تلك اللحظة ينسى العالم تماماً، يشعر بأنه يغيب عنه، ولكن ما جعله يعود إلى العالم، هو الشخص الذي كان أمامه، غجري من رومانيا، يرتدي ملابس غريبة، على الأرجح يخرج هذا الغجري كل صباح وهو يحمل آلته الموسيقية ليجلس في ساحة الغراند بلاس يضع قبعته على الأرض ويعزف مقطوعات موسيقية ليجمع من السابلة كمية جيدة من المال. فقد نهض هذا الغجري من مكانه بعد أن أنهى طعامه، وقبل أن يرد الكرسي إلى المائدة صار البحار أمامه.

في الواقع كان البحار قد جلس خلفه، وأخذ يراقبه ويراقب الجالسين أمام الوزير وإلى جانبه، وما إن نهض الغجري حتى حل محله، وصار قبالة الوزير، وابتسم له وهو يجلس على الكرسي. قال له:

ـ هذا الغجري اسمه توم... يطلب اللجوء هنا، لكنه كذاب، فهو يحصل على هذا المكان، كطعام وسكن مجاني ويعمل شحاذاً بالموسيقى يجمع المال لعام أو لعامين... ولا يهمه إن كان أخذ اللجوء أم لا... إنها حجة...

أراد البحار أن يفهم الوزير بأنه يعرف كل شيء عن الكامب، أراد أن يستعرض له خبرته، غير أن الوزير لم يبد أيّ اهتمام بما قال، بل بدا غير مكترث تماماً، ثم شعر بانزعاج فجأة من هذا الفضولي المتطفل فأراد أن يوقفه عند حده، فقال له:

ـ أنا لا أكترث هنا لأحد، وليس لديّ أيّ اهتمام بما يدور، لأنني سأحصل

على اللجوء سريعاً وسأنتقل من هذا المكان... أرجو أن تهتم بنفسك، ثم رفع صينيته بيده بحزم... ونهض من مكانه.

ابتسم البحار ضاحكاً وقال:

ـ ولكنك ستحتاجني... لا تنسَ إن احتجت إلى شيء أو إلى أية مساعدة، أنا في الخدمة... أنا حاضر دائماً... أنا في خدمتك يا سعادة وزير الثقافة...

أليكس والوزير

في المساء عاد الوزير إلى البتي شاتو، دخل المطعم فلم يعثر إلا على قطعة صغيرة من الدجاج والخبز، فقد التهم اللاجئون كل شيء، كانت هنالك معركة بين الرومان والألبان على برامج التلفزيون، كان الرومان الغجر يريدون برنامجاً موسيقياً بينما الألبان يريدون متابعة كرة القدم، وعلى أثر المشاجرة الحادة، تكسر زجاج نافذة القاعة وأصبح كسرها وشظاياها على الأرض، بينما ضرب أحد الألبان غجرياً بيده بالسكين، فحضرت الشرطة، وقد كان الجو في الكامب متوتراً جداً.

على العموم لم يرد الوزير أن يفهم ماذا يدور، فقد كان جل اهتمامه هو أن يقضي هذه الأيام بسلام حتى ما تقبل الحكومة البلجيكية به كمنفي سياسي، ثم يحصل على مليونه المهرب ويسكن في حي راق في بروكسل، حي لويز دون شك.

عاد إلى القاعة لينام. دخل من الباب الموارب قليلاً، دفعه ومشى خطوات، رفع رأسه لكنه وجد المصارع الروسي جالساً على سريره، يلوح بقبضته، ويهز أقدامه بغضب. في الواقع شعر من نظرات الروسي ومن طريقة جلوسه على السرير أنه ينوي به شراً. في البداية أراد أن يتراجع، أن يهرب، أن يذهب بعيداً، ولكن إلى أين؟ بعد قليل لن يسمح لأحد بالتجول في البتي شاتو، وسوف تطفأ الأنوار، والكل يعود إلى فراشه، فأين يذهب؟

اقترب من السرير ببطء... ابتسم للروسي، لكنه لم يبادله أية ابتسامة. قال له:

ـ تسمح لي، هذا سريري...

ـ سريرك...؟ قال له الروسي بتهكم.

ـ نعم سريري... قال له بإذلال وهو يبتسم...

ـ وتريد أن تنام أيضاً...؟ قالها بسخرية ظاهرة.

ـ إذا سمحت! قال له الوزير بصوت هادئ النبرة وبشكل متوسل أيضاً.

ـ على بطانياتي؟ قال له الروسي بينما أخذ حسن الأفغاني الواقف على مقربة يضحك.

ـ لا أبداً... هذه بطانياتي...

ـ من أين لها بطانياتك يا ابن القحبة... أنت سرقت بطانيتي... قال له الروسي بغضب...

ـ أبداً، أبداً... أرجوك أنا لم أسرق شيئاً، خرجت من الصباح إلى المدينة ولم أعد أبداً إلا قبل نصف ساعة، فكيف لي أن أسرق بطانيتك...

استشاط الروسي غضباً، هبط من السرير إلى الأسفل لمواجهته، وقد مد رأسه الأقرع باتجاه رأسه، بل حاول أن يمس بجبينه جبين الوزير، ونفخ عضلاته القوية ووشومه أمامه:

ـ أنت تثير غضبي... سرقتني وجعلت نفسك لا تعرف شيئاً، أنت تتجاهلني مثل قرد، هل تسخر مني أنت أيها القذر، هل تسخر مني، هل تريد من الآخرين أن يضحكوا علي... هل تفهم ماذا فعلت بنفسك، سأجعلك تفعلها في بنطلونك اليوم يا قراد الخيل؟ قال الروسي له

بغضب، ثم التفت إلى السرير وراءه وضرب حديده بقوة، مما جعل الجميع هناك يضحكون.

ـ أرجوك لا تغضب، أرجوك، إذا كنت تريد بطانياتي هذه فخذها، هي لك... أرجوك لا تهتم... لا أريدك أن تهتم، أنت روسي، ولا تعرف مدى تقديري للروس، روسيا العظيمة، هذه الأمة أمة لينين ومايكوفسكي... أنت لا تعرف ماذا تعني روسيا بالنسبة لي... إذا تريد بطانياتي أرجوك خذها...

ـ هل تسخر مني أنت... جعلتهم يضحكون علي... من هذا لينين أو هذا الآخر مايكوفسكي، هل أنت تسخر مني قل لي، هل أنت تسخر مني...؟

ـ لا واللّه أنا لا أسخر منك أبداً...

ـ لماذا تذكر لي هذه الأسماء الحقيرة، من هو لينين هل هو شوفير؟ ومن هذا مايكوفسكي هل هو مهرج؟ عماذا تتحدث أنت يا ابن الحقيرة...؟

ـ صدقني لا أسخر منك... أمضيت كل حياتي بتحية روسيا...

ـ خراء عليك وعلى من تحييهم... عليك أن تخرج بطانياتي في الحال، لا أريد بطانياتك، أنا لا أشحذ منك هل فهمت، أنا لا أشحذ منك شيئاً، عليك أن تخرج بطانياتي وإلا سوف أدخل رأسك في هذا الحائط ليظهر من الجهة الأخرى تبحث عن نظاراتك... عليك أن تخرج لي الآن بطانياتي وإلا فإني لن أترك في جسمك عظماً سالماً واحداً... بل سأدق عنقك الآن على حديد السرير...

في واقع الأمر كان الوزير قد ارتعد من الخوف وانهزم أمامه تماماً، لأنه يعرف جيداً أن هذا الروسي لا يمزح أبداً، بل ضربة واحدة منه كافية أن تحيله إلى كومة من عظام مهشمة على الأرضية، كما أنه يتكلم بغضب وانفعال، وهذه الطريقة في الحديث لا تسمح له بالتفاهم معه أبداً، ومن

جهة أخرى فإن جبن الوزير وارتعاده أمام المصارع لا يجعل الكلام سهلاً أو مفهوماً، لقد كان متلعثماً، مضطرباً، يداه ترتعشان وصوته متحشرج. وكان يتلفت باحثاً عن وسيلة، أية وسيلة، ليتخلص بها من هذا المأزق. في تلك اللحظة التفت يميناً وشمالاً باحثاً عن البحار.

* * *

لقد تفاجأ حينما شاهده وهو يتمدد على أقرب سرير منه، ولكن من الجهة المقابلة من القاعة، وهو في الواقع ليس سريره، إنما سرير حسن الأفغاني صديقه، وقد أدرك من طريقة التفاتته وحركات رأسه أنه كان يسمع كل شيء ويعرف كل شيء، لكنه ينظر ويسمع دون اكتراث. لقد شعر الوزير لحظتها أن البحار يراقب من مكانه الحدث برمته، لكنه كان متشاغلاً بصحيفة محلية قديمة يقلب صفحاتها في يده، متصنعاً عدم اكتراثه بما يدور حوله، على الرغم من تجمع بعض الألبانيين والأفارقة والشيشانيين والألبان ليرقبوا ما ستؤول الأحداث إليه.

فالكل يعرف في هذا الكامب، أن النزاع مع المصارع الروسي ذي الرأس الحليق والأذرع الموشومة ليس مزحة، إنما سيتطاير هذا الرجل الضئيل مزقاً في قاعة المنام مثل خرقة مسح الأرضية، سيجعله يحبو على الأرض بين الأسرّة مثل جرذ، لكن البحار لم يتحرك من مكانه، بل لم يبد أيّ اهتمام وكأن شيئاً لم يكن حوله.

... فجأة قفز الوزير إليه مبدياً احتياجه له، لقد توسل إليه بمذلة كاملة، بصورة لا تتطابق أبداً مع العنجهية والتكبر اللذين واجه البحار بهما هذا الصباح في المطعم، لقد أظهر له بشكل صريح عجزه، ويأسه، وعدم قدرته على التفاهم مع هذا الجار الغريب.

ـ أرجوك، أنت قلت لي إن هذا المصارع الروسي صديقك، وهو يتهمني بأني سرقت بطانياته هل يمكنك أن تتكلم بالنيابة عني معه... أرجوك...

حينها نظر البحار إليه بخبث، وكأنه يقول له ألم أقل لك إنك ستحتاجني يوماً.

ـ ماذا قال لك؟

ـ قال لي إني سرقت بطانياته... كما أنه هددني... هل يمكنك أن تتكلم معه...

ـ بالتأكيد... كما قلت لك أنا بخدمتك دوماً كلما تحتاجني... ولكنك هل أنت متأكد بأنك بحاجة لي؟

ـ أرجوك أنا بحاجة لك...

ـ أنا حاضر ها أنت احتجتني... سأتكلم معه بالتأكيد، ولو أنه شخص صعب جداً، ولكني سأتكلم معه... مع أنك قلت لي فيما مضى لن تحتاجني...

ـ نعم... نعم أرجوك... لا تنسَ أنني ممتنّ لك جداً لأنك ما زلت تؤمن بشرعية حكومتنا، نحن في النهاية رفاق... أليس كذلك؟...

ـ بالتأكيد... بالتأكيد نحن رفاق... وسوف أتكلم لك مع هذا الروسي الأحمق...

سار البحار بخطوات واثقة نحو أليكسي... ما إن وصل حتى مد رأسه نحوه وهمس في أذنه... تغيرت أسارير وجه المصارع الروسي لحظتها، تكلم بكلمات قليلة ثم ضحكا، كان المصارع الروسي يؤشر بيديه في البداية كأنه يحاول أن يستعيد سحنته الغاضبة، يديه المتشنجتين، ملامحه المتوترة، لكن كل شيء قد ارتخى فجأة، كل شيء تغير لحظة واحدة، فضحكا مرة

أخرى، بدا الأمر وكأنه انتهى عند هذا الحد، هكذا انتهى بسرعة كبيرة دون أن يحدث أيّ شيء، دون أيّ نقاش، دون أن يتجادلا كي يقتنع المصارع الروسي بكلامه أو كلام البحار.

كان قد خطر في بال الوزير بطبيعة الأمر لحظتها، أن يكونا قد اتفقا على ذلك، ولكن الموقف لا يحتمل التأويلات، حتى لو كان الأمر كذلك، ولكن ماذا بيده أن يفعل، كان عليه أن يستسلم لا أكثر من ذلك، وقد بدت ملامحه المتوسلة في البدء مستسلمة تماماً أمام البحار الذي عاد له بالروسي بهيئة ثانية، عاد له بالروسي وقد تغير تماماً، لقد صافحه، وشد على يده. قال له:

ـ أنا آسف... سامحني لم أعرف أنك الوزير... لولا صديقي البحار لكنت اليوم جعلتك تقفز مثل جرذ من سرير إلى سرير، ولكن لحسن الحظ لحق البحار بي وقال لي ما هي حقيقتك...

ـ أنا أشكرك في الواقع وأشكره... آه لو تعرف، آه لو تعرف كم أحب الروس... أنا... ليتك تعرف... يا صديقي الجديد كم أحبكم...

كان يتكلم معه بفرح طاغٍ، وهو يشد يده بقوة، كما لو كان قد التقى بصديق عزيز لم يره منذ فترة طويلة. لقد تحول الخوف فجأة إلى نشوة فرح، إلى ضحكة واسعة، إلى خفة روح وأريحية لم يكن يملكها من قبل.

ـ عليَّ أن أشكرك أيضاً أنك تحب الروس... ولا سيما لينين... صحيح أنني لم أعش في زمنه ولكنه قد منح جدي وسام العمل في ذلك الوقت... هكذا قال له الروسي بودّ متبادل.

ـ يا إلهي كم أنا سعيد أن أسمع أن جدك قد حصل على وسام لينين، هذا يكفيني شرفاً أن أصافحك وأن أكون صديقك...

ـ بالتأكيد اعتبر نفسك صديقي، وأنت كل ما تريده في هذه المدينة اعتبره ملك يديك أنا سأخدمك خدمة جليلة...

ـ أشكرك، أشكرك جداً... والآن هل يمكنني أن أذهب إلى النوم...

ـ طبعاً طبعاً... يمكنك أن تذهب الآن... وغداً سنذهب نحن الثلاثة لنتغدى خارج الشاتو، في مطعم من مطاعم بروكسل فأنا أعرف مكاناً جيداً...

ـ سأكون سعيداً برفقتكما، أشعر بأن لي أهلاً هنا، يا لسعادتي أن أرافق اثنين منذ الانقلاب المشؤوم، واحد يؤمن بحكومتنا الشرعية، حكومة الشعب، والآخر كان جده قد حصل على وسام العمل من لينين العظيم، إن رئيس وزرائنا السابق، والذي هرب في أول الثورة بعد أن لطش نصف الخزينة، سيحسدني حتماً، على هذه الرفقة العظيمة...

ـ لا تذكرني برئيس وزرائنا السابق... فإن هذا وحده مدعاة للبكاء والحزن... قال له البحار بحزن وهو يضع يده على كتف الوزير...

ـ لا يهمك... سنعود، صدقني سنعود... سنخطط لذلك ونعود...

ـ أنا واثق من ذلك سعادة الوزير، أنا واثق بأننا سنعود... لقد أخذ البحار يتكلم كما لو كان هو أيضاً وزيراً في الحكومة السابقة، وأكمل:

ـ وسوف لن نحتاج إلى مساعدة أحد، سنعود إلى بلدنا... سنعود معك، واذا احتجتنا في أمور انقلاب ثورة نحن أيضاً مستعدان...

ـ شكراً لك، هنالك من يخطط، وينفذ، ونحن سنعود في الوقت اللازم، والآن هل تسمحان لي أن أذهب كي أنام...

ـ طبعاً طبعاً... لا تنسَ إن احتجت إلى شيء... ولا سيما في هذه الأيام

فالدعايات ضدك كثيرة، ولكن صدقني أنا أقوم بحرب شرسة ضد هذه الدعايات المضادة... دعايات حقيرة تستهدف حكومتنا الشرعية ووزراءنا الوطنيين من أمثالك...

ـ دعايات؟ قال الوزير... دعايات مثل ماذا؟

ـ يقولون مثلاً إنك سرقت مليون دولار من خزينة الوزارة، وقد أخذها أحد المهربين ليوصلها لك إلى بروكسل مقابل أن يأخذ 10 بالمئة، ولكني سخرت منهم... قلت لهم لا، إلا هذا الوزير، إنه معي في الكامب، وهو يأكل مثلنا خبزاً وزبدة في الصباح وفي المساء لا يتوفر إلا على قطعة صغيرة من الدجاج فأين هذا المليون الذي تتحدثون عنه...

لقد بهت الوزير واصفر وجهه مستغرباً كيف وصلت هذه المعلومات إلى هذا الحقير... غير أن البحار استأنف كلامه:

ـ كما أن الحق عليك يا سيادة الوزير، 10 بالمئة تعطيهم، إنه رقم كبير، بل كبير جداً، آه لو كنت أعرف، آه لو كنت أعرف يا سيادة الوزير، لكنت هربت المليون لك عن طريق البحر بفائدة أقل من هذه بكثير... آه لو كنت أعرف، فأنا لن يكون لي أيّ هم سوى مساعدتك، مساعدة حكومتنا الشرعية... ولكن للأسف لم أكن أعرف...

ـ هذه دعايات لا أساس لها من الصحة، إنها دعايات ولا أظن أحداً يمكنه أن يصدقها، إنه إشاعات تستهدف دون شك حكومتنا وإصلاحاتنا السياسية والاقتصادية، ولكن الشعب يعرفنا جيداً، ولن تنطلي عليه هذه الإشاعات... قال الوزير بحزم.

ـ بالتأكيد يا سيادة الوزير... لن تنطلي هذه الإشاعات على الشعب أبداً، ومع ذلك أحب أن أقول لك إنه ليس من السهولة الحصول عليها من

المهربين، أقصد الحصول على المليون، إنه رقم كبير ليس من السهل إيصاله إليك بسلام...

ـ عن ماذا تحكي... إنها إشاعات...

ـ نعم أنا أحكي عن الإشاعات، وإذا صادف أن واجهت متاعب في جلبها أو الحصول عليها، ما عليك إلا أن تخبرنا أنا والمصارع الروسي، فنحن أصبحنا أصدقاء وستحتاج إلينا، أليس كذلك؟

ـ ولماذا أحتاج إليكما إن أنا لم أسرق دولاراً واحداً من الشعب...

ـ بالتأكيد يا سيادة الوزير... ولكنك في البداية قلت أيضاً إنك لن تحتاج لي، وها أنت ترى أنت احتجت لي، فربما في المرة الثانية ستحتاجني أيضاً... خليها في بالك ولا تستعجل، أنت لم تسرق بالتأكيد، ولكن يصدف أحياناً أن تحمي أموال الشعب من عبث الانقلابيين فتأخذها عندك ريثما تعود إلى السلطة مرة أخرى، لمَ لا؟ هذا حدث في التاريخ مرات ومرات...

ـ لكني أؤكد لك أني لم أحصل على دولار واحد...

ـ أنا متأكد من ذلك يا سيادة الوزير... ولكن إن احتجت لنا لا تتلكأ بالاتصال بي... سأخدمك صدقني، ما يهمني هو خدمتك لا شيء آخر أبداً...

الفصل التاسع:

المليون المسروق واللاجئ الوزير

من أوراق جلال

الورقة IX

كم كانت حياته بهيجة فيما مضى، وها هي اليوم مثل قرية مهجورة.

كنت أراه مثل عاشق مغدور ينتظر نهايةَ المطر تحت إفريز، بينما كان الجوّ البارد يقرض له أصابعه. لم يكن ثمّة أثر لحبيبته التي تواعد شخصاً آخر، شعوره بالخيانة أرقه لكنه ما زال مرابطاً عند شرفتها ينظر إلى الشبح الذي يضاجعها فتنتشر صورته على الجدار.

كم جميلة هي الحياة... لكنها ليست سوقاً لبيع الملابس، ولا الأشياء الرخيصة... إنها سوق لبيع الأرواح...

من باع منا حياته بثمن بخس؟

في إحدى غرف البيت رجل يدخن وحيداً يشعر بالسأم والخيانة...

خرج مُرهَقاً؛ بادره رجلٌ بلباس السهرة، قائلا له: «اليوم، لم يعد هناك ملكات».

«لا فائدة من الإلحاح، لم يعد...»، ثم ابتعد مهدداً.

التحقق من الواقعة

كان على جلال التحقق من هذه الواقعة قبل أن يخبر الأستاذ بذلك، وقد انشغل في تلك الأيام حقاً بالبحث عن الحقيقة. فأراد بكل وسيلة جمع أكثر كمية ممكنة من المعلومات عن هذا المليون الأسطوري، وقد جمع فعلاً معلومات كبيرة، واضحة ودقيقة، ومن أطراف متعددة. في البداية أعتقد أن المليون خرافة، وأن الوزير هو بائع أوهام لا أكثر. كان يبيع الأوهام لكل الذين يعرفونه، للحصول على خدمات مجانية لا أكثر. وقد نجح نجاحاً كبيراً في ذلك. ولكنه اكتشف فيما بعد أو تأكد، في الواقع، بما لا يقبل الشك أن المليون قد وصل إلى بلجيكا، ولكنه مليون مزور، أي إن المليون قد استبدل في الطريق بواحد آخر.

غير أن الأستاذ في تلك الأيام قد وصل إلى حافة الخراب. إلى حافة الهزيمة. وشعر أن المليون منقذه الوحيد من الحالة التي هو فيها، ومن هنا بدأ إلحاحه، واتصالاته العديدة من أجل معرفة ما توصل إليه جلال، فقد كان يريد أن يعرف بأيّ طريقة ما يفعله جلال من أجل الحصول عليه. غير أن جلالاً بدأ بالتهرب منه، محاولاً تفادي إلحاحه والركض وراءه. فقد كان يخشى عليه من هول الصدمة، وكان يعرف مقدارها على الأستاذ لو تلقاها.

* * *

هنا وصلت الأمور إلى سوء فهم حقيقي لجلال من قبل الأستاذ.

لقد شعر الأستاذ أن جلالاً يريد لطش المليون منه والانفراد بالحصول عليه وحده. لقد فسر تهرب جلال وتفاديه على أنه خيانة، على أنه تنكر للمبادئ التي جمعتهما، على أنه سرقة منه.

ومن هنا ازداد إحباطه.

فمن جهة كانت علاقته مع دلال قد وصلت إلى حافة الانهيار، ومن جهة أخرى أصبح المليون المرتقب والذي تأكد من أن الحصول عليه هو إنعاش لعلاقته مع دلال، سراباً. هذا المليون لو حصل عليه هو إنقاذه من الخراب، هو انتشاله من حالة الضياع والقهر الذي هو فيه، ولكن كيف؟

* * *

استيقظ جلال في الصباح... ذهب إلى المطبخ ليعد قهوته. وضع ثلاث ملاعق من القهوة العربية المطحونة جيداً في الركوة. فتح صنبور الماء فطفت القهوة إلى أعلى. دخلت رائحة الهيل ممزوجة بالرائحة الحريفة للقهوة في أنفه. هذا هو ما يحبه في تلك الساعة من الصباح:

رائحة القهوة بالهيل.

وضع الركوة على النار وأخذ يخوطها ببطء. متأملاً هذا الامتزاج بين الماء ولون القهوة البني، والحرارة المتصاعدة، والرائحة النفاذة التي غزت المطبخ على صوت أغاني فيروز، التي اعتاد سماعها في الصباح، منذ أيامه في بغداد. فجأة رن الهاتف. كان اسم الأستاذ هو المتصل. ارتبك. تردد للحظات قبل أن يرد.

ـ جلال أين أنت؟

ـ موجود... ماذا بك؟

ـ لقد اتصلت بك أكثر من مرة لكنك لا ترد...

ـ كنت مشغولاً... وكيفك أنت؟

ـ أنا بحالة سيئة جداً...

ـ لماذا؟

ـ حالة سيئة... لا أستطيع التفسير أكثر...

ـ علاقتك مع دلال...؟

ـ نحن على حافة الانفصال...

ـ آه... ماذا... لماذا؟

ـ اسمع لماذا تتهرب مني؟

ـ لا أتهرب منك يا جورج... ولكني مشغول...

ـ مشغول بماذا يا رجل... أنا أعرفك من سنوات أنت تتهرب...

ـ لا أبداً... أنا مشغول فقط دعك من هذه الأوهام...

ـ ماذا فعلت فيما يخص مليوننا...؟

ـ أنا أواصل العمل...

ـ تواصله بمعزل عني...؟

ـ حين أصل إلى نتيجة واضحة سأخبرك...

ـ إلى الآن ماذا توصلت...؟

ـ توصلت إلى بعض النتائج ولكن ليست كاملة...

ـ لماذا لا تخبرني بما توصلت إليه...؟

ـ حينما أتأكد من المعلومات سأخبرك حتماً...

ـ عليك أن تطلعني على التفاصيل أولاً بأول... ألم نكن شريكين في هذا الأمر؟

ـ بالتأكيد جورج نحن شريكان...

ـ لكنك تتصرف وحدك...

ـ أنا أردت فقط أن أوفر عليك التعب...

ـ أيّ تعب ماذا تتكلم أنا أريد أن أتعب في الحصول عليه...

ـ أوكيه سنلتقي قريباً ونتكلم في الأمر...

ـ نلتقي متى؟

ـ قريباً...

ـ اليوم...؟

ـ لا، لا أستطيع اليوم...

ـ بكرة صباحاً...؟

ـ بكرة، لا... أيضاً... لا أستطيع...

ـ ها أنت تتهرب... أنت تريده وحدك... لا أعرف إن كنت حصلت عليه أم لا... وتتهرب مني كي لا أطالبك بحصتي...؟

ـ لا تكن أحمق...

ـ لست أحمق ولكني مجنون إن صدقتك...

ـ عليك أن تصدقني أنا أعمل لكلينا...

ـ بل تعمل لنفسك فقط...

ـ دعك من هذه الأوهام...

ـ أنت الذي يبيعني الأوهام...

ـ في الحقيقة نحن جميعاً اشترينا هذه الأوهام من بائع الأوهام...

ـ ماذا تقول؟

ـ ...

أغلق جلال التلفون، على صوت القهوة التي ساحت من الركوة، وغزت الفضاء برائحتها الحرّيفة.

جلال وبائع الأوهام

كانت الأجواء دافئة في الصيف. إلا أن السماء ما زالت رمادية، ملبدة بالغيوم، ما زال رصيف الشارع يلمع فـي شهر نيسان مثل غبار ضوئي.

انتقل الثلاثة، الوزير وأليكس وأحمد البحار إلى مطعم قرب كنيسة السانت كاترين، وهو بار إسباني رخيص، يقدم حساء السمك والمحار ونبيذ الروكار الأحمر.

كان الضوء شديد الخفوت فـي منتصف النهار، حتى إن الوزير أخذ يقطب حاجبيه وهو يبحث بمشقة عن الكرسي الخيزران في نهاية البار، وبعد أن وجده، تلمسه بيده، وابتسم كما لو كان وجد شيئاً ثميناً، فلمعت أسنانه البيض، ثم خلع جاكيته ووضعها على الناحية الأخرى. كانت أسارير وجهه قد انشرحت ولا سيما بعد أن عرف أن أحمد هو الذي سيدفع ثمن الغداء والشراب، فأشار بيده إلى النادلة، فهرعت مسرعة بالكؤوس الزجاجية وقنينة الروكار الأحمر ـ وقال لها إنه يريد أن يأكل حساء السمك المدخن وصحناً من السرطانات.

ـ حسن، أنت حصلت على اللجوء يا سيادة الوزير... ماذا تريد بعد... حتى أبناء القحبة يحبونك... أليس كذلك...؟

ـ نعم..وافقت الحكومة البلجيكية على منحي اللجوء السياسي... وسأنتقل خلال يومين إلى استوديو استأجرته في حي لويز... الكلاب... عليهم أن يلعقوا حذائي...

ـ شيء رائع! أليس كذلك... نحن علينا أن نتعفن هناك بانتظار أن يقوم أحد ما بكارثة...

قال الوزير وقد قطب حاجبيه:

ـ... كما قلت لك عليهم أن يلعقوا أشياء أخرى...! وضع الكأس على شفته وأنزلها...

ـ ولكن كيف سرقوا المليون منك وأنت ساكت هكذا...؟

ـ ماذا أصنع يقولون إنه استبدل؟ قال الوزير هازئاً...

ـ لا يمكن ذلك، لقد بخره أولاد القردة...؟

ـ المهرب يقول لي إنه حصل على المليون المزور وليس الحقيقي، وهو ينفي أية مسؤولية له عن ذلك... السفلة... خرائي أفضل من هذه البلاد التي كنت وزيراً فيها...

ـ ابن القحبة فظيع... لا بد أن يكون هو الذي سرقه... قال البحار غاضباً...

ـ لا أظن... هنالك من أنجبتهم كل مزابل الدنيا في بلادي... ليس هنالك من هو أوسخ منهم... إنهم لصوص حقيقيون... لصوص لصوص... وضرب على الطاولة... كان الوزير يتكلم كما لو أن المليون ملكه ولم يكن هو أيضاً سرقه...

ـ لكنك أنت أيضاً لطشته من الخزينة؟ قال البحار ساخراً...

ـ اسكت أيها السافل وإلا سأفجر رأسك بهذا الحذاء... إن المليون كان في الخزينة وبعد ساعات عليَّ إما أن أغادر البلاد أو أصعد إلى المشنقة... هل تريدني أن أترك المليون لأبناء القردة... عملاء الاستعمار... أنت حمار آخر أيضاً...

ـ ولكن من الذي طيره ووضع المزور في مكانه، من تعتقد؟... قال أليكس...

ـ أظن أنه أحد الرفاق قام بذلك... رفاق خراء... اتفقوا مع الوزير الجديد أن يعطوه المليون... أن يضعه في جيبه مقابل أن يسكت عنهم وعدم اتهامهم بموالاة النظام السابق...

ـ حظ... قال البحار... حظ الوزير الجديد...

ـ بالتأكيد، قال الوزير، ليس مثل حظي لم أحصل يوم تولّيَّ المنصب سوى على بضعة آلاف من الدولارات... ابن العاهرة الوزير الجديد حصل على المليون أول توليه المنصب...

سكت برهة ثم تمتم:

ـ أبناء العاهرات يأخذون كل شيء في الدنيا... يحصلون على كل شيء... ومن مثل حالي... لا يحصلون على شيء... هكذا هي الحياة...

ـ ماذا ستصنع في هذه الحالة؟ قال البحار وقد امتقع وجهه من الحزن.

ـ هو يعرض عليَّ عرضاً آخر...

ـ من هو؟...

ـ المهرب! قال إنه يشتري المليون المزور مني بعشرة آلاف أورو...

ـ القواد يريد استبدال المليون دولار بعشرة آلاف أورو، هل هو ذكي إلى هذا الحد... اتركه لي وأنا أعرف كيف أجعل من مؤخرته إطار سيارة... هل يريد النصب والاحتيال هذا القرد ابن القرد... قال أليكس بلغة عنيفة.

ـ أنا أرى أن توافق... قال البحار...

ـ هل تعتقد ذلك؟ سأله الوزير باهتمام.

ـ كيف يمكن هذا؟ ماذا تتكلم أنت؟ اتركه لنا ونحن نعرف كيف نصفيه، المليون بعشرة آلاف، هل أنتم أذكياء؟ كيف يمكن القبول بهذا؟ إن مجرد التفكير بهذا الأمر يجعلني أفقد صوابي... قال أليكس محتجاً كما لو كان المليون ملكه.

ـ ألا تسكت أنت؟... ولا تدس أنفك في أيّ موضوع فيه تفكير... أنت تفسد كل شيء... قال أحمد البحار لأليكس... ثم أكمل:

ـ طيب وافق...

ـ وماذا أستطيع غير أن أوافق... ولكن لا تتكلما عن هذا الأمر أبداً... لا تخبرا أحداً... لأن الجميع سيهرب مني... الكل هنا الآن يدورون حولي ولا سيما النساء... إذا عرفن... فلن يقول أيّ أحد لي صباح الخير...

ـ ونحن ماذا سنحصل...؟

ـ أعدكم بأني أخطط للعودة مجدداً كوزير... أعدكم بأني سأجعل منكم أمراء البلاد... سنحصل على الكثير... لا تهتما... إنها أيام فقط... أنا الآن في لويز وهنالك الكثير ممن يساعدون في هذا الأمر...

ـ هل تسخر منا...؟

ـ صدقوني لا أسخر منكم... الأمر بسيط في غاية البساطة... مثلما حصلت على منصب وزير في المرة السابقة مع القوميين سأحصل عليه أيضاً مع الإسلاميين هذه المرة... إنها لعبة صدقوني... وهنالك الكثير من الأشخاص من هم مدمنون على هذه اللعبة... هي حياتهم هكذا... ونحن سنلعبها أيضاً...

ـ إياك أن تسخر منا... فأنا لن أجعلك تمشي على قدميك... قال له أليكس...

ـ كفَّ عن سخافاتك... عليك أن تحترم الوزير من الآن وتخضع لأوامره... وإلا أنا من سيجعلك لا تمشي على قدمين يا بن الساقطة...

نظر الروسي إليه... بغضب أول الأمر، ثم سرعان ما انفرجت أساريره عن ضحكة... وسكت بعدها.

كيف سرق المليون

لقد توصل جلال إلى الحقيقة هي أن المليون قد سرق حقاً.

ففي يوم وصل الوزير إلى حانة تقع في أفنيو أنسباك. في الواقع لم يكن هذا المكان بعيداً عن مركز المدينة، يقع على مقربة من الحانة التي تتجمع فيها بعض العاهرات المغربيات وبعض مهربي المخدرات الأفارقة. وتقع خلف الغراند بلاس بالضبط. هنالك التقى الوزير بالمهرب المخادع.

كان لزاماً عليه أن يقترب كثيراً ليكتشف أن المهربين قد خدعوه وأرسلوا له مليوناً مزوراً.

ـ هل أنا في ورطة... قال الوزير.

ـ نعم! قال الألباني الذي يضع ضماداً على يده. كان سميناً جداً وقد بدا أنه غير قادر على النهوض من الكرسي بالرغم من جهوده الكبيرة، لأن مؤخرته الثقيلة كانت تحول دون نهوضه.

ـ أنت تقول إن المليون مزور؟ قال الوزير.

ـ نعم... قال الألباني بصوت ضعيف.

لقد عرف الوزير يومها أن الشركة التركية التي تقوم بعمل غسيل الأموال قد خدعته. وهذا الألباني الذي جاء نيابة عنها ليخبر الوزير بذلك، قاده إلى ممر ضيق يقود إلى أقصى الفناء، حتى وصلا إلى شخص يرقد على الكنبة في الزاوية شبه المعتمة من الصالة السفلية للحانة.

كان هنالك صندوق كبير...

ـ ما هذا؟ قال الوزير.

ـ المليون المزور...!

ـ ما أفعل به...!

ـ هل تبيعه بعشرة آلاف أورو...؟

ـ نعم...

كان هنالك شخص يلبس ثياباً سوداً أشبه بثياب إرهابي.

ـ هل هؤلاء هم المافيا؟ تساءل الوزير.

قال الألباني الذي يعمل مع العصابة التركية لتهريب الأموال:

ـ لقد انتقمنا من الذين استبدلوا المليون! وأشار بيده إلى شخص ممدد على الكنبة.

ـ انظر!

بالكاد نظر الوزير.

ـ هل تخاف؟ انظر.

الشخص الممدد أشبه بخرقة شبه ممزقة. لقد طعنه الألباني عدة طعنات. وهنالك طعنة في رأسه أيضاً، طعنة خفيفة ولا شك، لم يكن يريد قتله حتماً. إنما أبقى على جمجمته الجرداء ببعض الشعر الباهت، وأبقى في فمه قليلاً من الأسنان. كانت حالته مؤثرة جداً. يداه الضخمتان كجناحي نسر كانتا متسختين، وشعر شواربه منتوف، وكانت أقدامه موحلة.

أرادوا تخويف الوزير حتماً. وقد خاف لا بد أنه خاف في تلك اللحظة!

ذلك أن الألباني قال للوزير إن هذا الشخص هو من العصابة التي استبدلت المليون بمليون مزور... فأراد الوزير مغادرة المكان سريعاً...

* * *

وبالمال الذي أخذه من المهرب، اشترى الوزير بابيوناً عنابي اللون، وقد استكملها بسترة سوداء عرضتها شركة زارا خصيصاً للحفلات، كما اشترى قبعة وغليوناً من الأبنوس الأسود، ينتهي بوعاء مثل فم زنجي مفتوح على ابتسامة عريضة، ودبوس ربطة عنق.

مع الوزير

ـ الكل يعرف أن الوزير المنفي يملك مليون دولار، والكل يتملقه على هذا الأساس ولا سيما النساء.

ـ وما هي الحقيقة؟

ـ هو في الحقيقة يحصل على قوت حياته من المساعدات الاجتماعية. وكان هذا الأمر سراً، وفي أحد الأيام فاجأته واحدة من ضحياه في مركز المساعدات الاجتماعية جالساً في الصالة، إلا أنه قال لها إنه جاء هنا متبرعاً لا طالباً للمال، وهكذا كانت لديه قدرة عجيبة على اختراع الأعذار وبصورة سريعة...

ـ هل رأيت وزيراً في حياتك يعيش على الخدمة الاجتماعية... قال الشوفير للوزير نادباً حظه مرة...

* * *

واجه جلال الوزير بالحقيقة...

ـ نعم هذا صحيح! قال الوزير، وسوف أشوي مؤخرات الذين سرقوا مليوني.

* * *

فـي حوالي الساعة الحادية عشرة (ولم يكن أحد قد رآه من قبل فـي

مثل هذا الوقت المبكر) التقى جلال بالوزير للذهاب معاً إلى مركز الرعاية الاجتماعية. صعدا في الترام رقم 95، قطع بهما شارع لويز إلى نهايته ثم استدار بهما إلى حي إكسل، هبطا هناك، عبرا شوارع ضيقة تتكون من منازل صغيرة مكعبة، بعضها من ثلاثة طوابق أو أربعة، بعضها مكسو بملاط ذي ألوان متنوعة، وبعضها الآخر بالحجر، ولها جميعها نوافذ كبيرة وزجاج سميك. وصلا أخيراً إلى بناية كبيرة، فيها صالة استقبال واسعة استقبلهما عند مدخله موظف من أصل أفريقي بمبالغة فـي الابتسام والتملق. دخلا على أثره إلى قاعة كبيرة، حيث الهواء مشبع بغبار الصيف الذي سرعان ما سبب لهما العطاس وحرقة فـي العيون. كانت هناك مناضد طويلة جداً ذات أغطية بلاستيكية تجلس إليها عشرات النساء، يرتدي بعضهن ملابس رثة، وأخريات يتلفعن بأثواب رمادية لها لون الفئران، وجوههن نحيلة وكئيبة، وأيديهن طويلة الأصابع، وأذرعهن عارية.

كان الحر خانقاً. وكان ضوء الشمس يدخل من نوافذ جانبية، فـي حزم ضوئية، عبر عوارض خشبية رفـيعة، منفصلة ومائلة، تشكل كل الجزء العلوي من جدران القاعة. حزم ضوء الشمس تلك التي يمكن من خلالها تقدير كثافة الغبار المعلق فـي الفضاء، تحوّل هيئة الجالسات الطالبات للمعونة الاجتماعية إلى مظهر سجينات بزي مخطط فـي معسكر اعتقال.

ينفتح المدخل الرئيس بباب مذهب من مصراعين، ارتفاعه نحو ثمانية أمتار. وكان ينتظرهما شاب أفريقي طويل القامة، وشديد السمرة، له شعر مجعد جداً ويضع نظارات. وكانا يرتدي قميصاً أبيض واسعاً، ويبتسم ابتسامات متألقة. تقدم لاستقبالهما مبدياً سعادة مبالغاً بها للوزير.

اقتادهما هذا الشاب عبر بهو ذي بلاطات صغيرة مزينة برسوم تجريدية بالغة الرهافة بالأحمر والأصفر والأخضر، إلى المساعدة الاجتماعية في

المكتب، وهي عجوز نشطة، شعرها الأبيض القصير مصفف ومعتنى به على الدوام.

* * *

السيدة مارغريت هذا اسمها، تتحرك بسرعة. تهمهم غالباً في نفسها بلغة لا يتمكن أحد من سماعها ولكن تعبر عن عدم رضاها. تغطي وجهها الصغير الذابل طبقة من البودرة الخفيفة، أما بشرتها فبيضاء موردة.

قال الوزير لجلال إنه لا يخاف في بلجيكا إلا من هذه المرأة.

مشكلة هذه المرأة أنها كانت تعتقد أن جميع اللاجئين كذابون، وأنهم لا يريدون العمل، ولم تكن تفرق بين لاجئ وآخر كلهم بالنسبة لها سواسية، أما الوزير الذي عليه أن يحصل كل شهر على مساعدة اجتماعية فقد كانت تذله بعرض أعمال عليه لا يمكنه القيام بها.

دخل الوزير وجلال إلى حجرتها فشمّا عطرها وقد كان من النوع الحاد جداً...

قالت موجهة كلامها للوزير:

ـ أنت إلى الآن ألم تحصل على عمل؟

ـ سأحصل عليه قريباً... قال بصورة مترددة.

ـ عرضت عليك عملين ولم تقبل بهما!

ـ عرضت عليَّ أن أعمل شوفير...

ـ وماذا به عمل الشوفير ولماذا يقبل البلجيكيون به وأنتم اللاجئون لا تقبلون به...؟

ـ ولكني كنت وزيراً... تصوري أن شخصاً من بلدي يعرفني ويصعد معي ويراني أنا شوفيره... وهو يقول اذهب من هنا يا سيادة الوزير... أو من هذا الشارع لا من ذاك الشارع... أبطئ قليلاً يا سيادة الوزير... أو أن يقول لي لقد أخطأت في المكان... أخطأت في المكان هل أنت حمار...؟ هل تقبلين بهذا؟

ـ وماذا تريد، هل تريد أن تعمل في بلجيكا وزيراً أيضاً...

ـ لا ولكن اصبري... سأعود إلى بلدي وأعود وزيراً...

ـ متى سيكون ذلك من عام وأنت تقول لي بأنك تدبر انقلاباً...

ـ صدقيني سينجح الانقلاب وسأعود وزيراً مرة أخرى... سأعود كما كنت... ألا تصدقيني...

ـ ولكن عرضت عليك عملاً آخر ورفضته أيضاً...

ـ عرضت عليَّ أن أكون حدائقيّاً... هل من المعقول هذا...

ـ ولمَ لا... أليس عملاً هو الآخر... هل تفضل أن تأخذ مالاً من دون أن تعمل...

ـ ولكن أعمل اليوم حدائقياً وغداً أعود وزيراً في بلدي... كيف يكون هذا؟

ـ ولمَ لا... تيجيت الأرتيري مثلاً...

ـ ما به؟

... ألم يعمل حدائقياً هنا... كان هو الآخر وزيراً... عمل حدائقياً هنا سبع سنوات... وعاد وزيراً بعد الانقلاب الثاني...

ـ تيجيت سرق كثيراً وهو الآن في لويز صاحب شركة... قال محتجاً.

ـ لا أقصد هذه المرة... لأن هذا هو الانقلاب الثاني الذي أطاح به... ولكن في المرة الأولى جاء إلى بلجيكا وعاش على المساعدات الاجتماعية، ثم وجدت له عملاً جنائنياً... واشتغل ولم يقل شيئاً... هنالك وزير آخر من كمبوديا عمل بائع ملابس... ثم عاد بعد انقلاب أيضاً... كلهم يعملون أنت الوحيد الذي تحتج...

ـ صدقيني هذه آخر مرة... أعدك سأرتب الأمور جيداً على الانقلاب الثاني، سأهيئ لحياتي عيشة أفضل قبل أن يطيح بنا انقلاب آخر... كانت تجربتي الأولى ولا بد أن تكون هنالك أخطاء، ولكن في المرة القادمة سيكون كل شيء مرتباً على آخر طراز...

الكذابون يحصلون على كل شيء

يخرج الوزير كل يوم، مرتدياً الملابس السود ذاهباً إلى الحانة كما لو كان ذاهباً إلى المدافن.

قال البحار لجلال:

ـ ابن القحبة فظيع، إنه يسير كما لو كان ذاهباً في رحلة حج تستغرق منه ثلاث ساعات، لقد ترك لديّ انطباعاً قوياً بأنه يدبر انقلاباً... الحقير، ما كان يمكن لي أن أصدق كل هذا وأذهب معه مقابل أيَ شيء في هذا العالم، أرافقه إلى هذا ذلك المكان القذر، ما كان مني أن أفعل هذا حتى لو كنت أعرف أن روحي مدفونة هناك، ألم أقل لك ابن القحبة فظيع، قال لي إنه سيدبر انقلاباً وسيجعلني مديراً هناك... ماذا أفعل هنا في بلجيكا هل أبقى طوال حياتي أحصل على المساعدات الاجتماعية وأصطاد العجائز... ماذا أفعل قل لي؟

لقد كان الوزير يعامله بازدراء كامل، وكان أمامه يتحمل كل الإهانات حتى القاسية منها، مقابل أن يحصل على جائزة مؤجلة، جائزة طال انتظارها، جائزة لن تكون إلا بعد الانقلاب المزعوم والذي أصبح عدد منتظريه كبيراً جداً، من عاهرات يقدمن له الخدمة مجاناً، وطالبي لجوء، وشوفيرات، وخدم من كل نوع، أما هو فقد كان يهينهم بكل طريقة ممكنة، ويسخر منهم...

التفت للبحار مرة مخاطباً:

ـ أنت من أنت، هل تعتقد أنك مخلوق بشري؟ قال له بطريقته المتعالية، بينما بدا البحار متذمراً جداً من طريق معاملته، والطريقة التي يتكلم فيها معه، وحينما تخلف عنه، التفت البحار إلى جلال وقال له بصورة هامسة:

ـ أنا لديّ إحساس فريد إلى درجة فظيعة!

ـ ما هو؟ أنا قلت.

ـ إن هذا القملة البائسة، لا يخطط فعلاً لانقلاب... إنه يسخر منا، لقد اكتشفت أنه ليس سوى بصقة، بصقة على الطريق ولا شيء آخر؟

كانوا يمشون لحظتها في المساء مُحاطين بأروع الشوارع المضاءة في بروكسل. ذاهبين إلى البار الذي وعدهم فيه أليكس بلقاء فتاتين بولونيتين، بينما كان هو يمشي إلى جانب الوزير الذي ما زال يفرض أوامره على الأرض. وكان يحمل تلفونه الذي يطلق أغنية جاز وهو يرتطم بأضلعه.

التفت إلى جلال قائلاً:

ـ أنت تؤمن بهؤلاء إنهم مثل قمل الخشب البائس، يزحفون برعب وغير قادرين على أن يعيشوا حياتهم بالشجاعة الكافية لإثبات أنفسهم. سكت قليلاً ثم قال:

ـ أنت تراني شخصاً غريباً... أليس كذلك؟

لم ينطق جلال بكلمة واحدة... إلا أن الوزير استأنف كلامه كما لو قال جلال له نعم.

ـ طيب أنا أتعمد ذلك، أتعمد أن أكون شخصاً غريباً... على الأقل إن هذه الصورة غير المألوفة هي التي وضعتني بتناقض مع كل أولئك الناس العاديين، إنهم أقزام... هل تحبهم؟... هؤلاء ليسوا سوى لاجئين مساكين

إنهم لا يمكنهم أن يكونوا بمستوانا... إنهم أقزام روتينية هل رأيت هذه المدام الحقيرة، أليس مديرة الخدمة الاجتماعية، هذه ليست سوى حشرة تطن حولي ليس بها ذرة أهمية أنا أبصق عليها بسرور شهواني. آه لو تعرف أيها السيد المحترم، آه لو تعرف بأني أذرف الدموع الغزيرة فقط حينما أشعر بأني لم أكن في اللحظة المنفردة مختلفاً بشكل متطرف عن قراد الخيل الذين يطنون حولي.

* * *

ما كان يقوله كان صحيحاً، ولكنه لم يكن قادراً على أن يكون شخصاً فريداً.

قال البحار:

ـ إنه يحمل طنّاً من التناقضات أليس كذلك؟

ـ هل تعتقد أنه شخص عادي؟ سـأله جلال من أجل المراوغة.

ـ مع ذلك لا يمكن أن يكون شخصاً عادياً!

ـ إذن ما هو؟

ـ إنما هو شخص متناقض جداً!

لقد وافقه جلال على ذلك مباشرة، ذلك أن البروفيل الجديد هو إسلامي، بينما يفكر أحياناً بوصفه قومياً، أو اشتراكياً، ويضع دبوساً في ربطة عنقه، يحمل صورة جيفارا، ولكنه حينما شتم البحار قال:

ـ هذا الكلب ليس سوى قواد شيوعي، كان عليه أن يطلي حواجبه بلون أحمر، وأن يلطخ شعره بالوارنيش ليتحول الى صفيحة، ويجلس على الرصيف ويشحذ مثل كل هؤلاء الأنارتشيك الذين خراهم الشيوعيون في حضن أوروبا...

أما البحار يقول عنه:

ـ إن هذا الخراء لم يكن أيّ شيء، في يوم من الأيام، لم يكن سياسياً مطلقاً، كان الحظ الداعر وحده المسؤول عن هذه المأساة التي ابتلينا بها، قصة تحوله إلى وزير تصلح أن تكون دليلاً على أن هذه الحياة السافلة لا تداري إلا أبناء العاهرات...

قال له جلال:

ـ كيف، ألم يكن وزيراً، في حكومة قومية؟

قال:

ـ نعم ولكنه لم يكن قومياً ولا يسارياً ولا خراء في أيّ يوم من حياته... كان يسير في الطريق مرة فرأى جماعة من الطلاب يصيحون وهم يحرقون العلم باسم الثوريين، وعندما بدأ الاقتراب من مجموعتهم جاءت فرقة من الجنود، اندفعت نحوهم من الاتجاه المعاكس وأحاطت به، أمسكته عند بقايا العلم الممزق. واتهمته بالمؤامرة الثورية... لقد قبض عليه رغم احتجاجه وإنكاره أن تكون له أية علاقة مع أية فكرة ثورية. ثم قدم للمحاكمة. لم تأخذ المحكمة بإنكاره، وسجنته، غير أنه في اليوم التالي حدث الانقلاب، على يد عسكريين قوميين قادمين من الريف، سرعان ما جعلته الحكومة الانقلابية وزيراً.

شرب كأسه إلى النهاية وقال:

ـ هل رأيت محظوظاً ابن قحبة مثله... فظيع، تحول خلال يومين من خراء إلى وزير...

* * *

في الواقع كان هو ذاته قد اعترف لجلال مرة بعد أن سكر، أنه أصبح وزيراً للثقافة بالصدفة المحضة، ولم يكن ينوي أن يكون ذلك أبداً، لا ترفعاً، بالتأكيد لا، إنما لأنه كان أمراً مستبعداً تماماً، أما الأسوأ من ذلك هو أنهم فرضوا عليه في الوزارة أن يقص شعره الطويل، وقد كاد أن يغمى عليه بسبب ذلك، لأنه كشاعر كان الشعر الطويل علامة على فرديته، ثم قال إلا أنهم عوضوه بما اشتروه له من ملابس ثمينة من قمصان حرير ودبابيس أربطة، وبذلات سود على الموضة، وقبعات ثمينة، وأحذية جلدية، وعصي نادرة من الخيزران. ثم قال إن أهم شيء في عمله كوزير للثقافة هو أنه قام باكتشافين عظيمين لنفسه، هما: حب الخمرة، والقوة الطاغية للمال. قال:

ـ كان للكحول المستوردة تأثير عظيم على معدتي، فقد فتحت لي أنواع الروكار والمارتيني والنبيذ الأبيض عالماً جديداً بحق... فأخذت أقضي وقتي في العيش في عالم صاخب كل ليلة بين النساء والخمور والموسيقى، أما المال فقد كان ضرورياً، لا لأنه يجلب الخمور الثمينة والمستوردة فقط إنما لأنه يجعل أكبر النساء أمامي ذليلات وخانعات.

ثم قال لي يقولون إني قومي... أو يساري أقول لك كل هذا بالنسبة لي هو خراء محض، أنا لا يهمني إن كان هذا العالم على حقٍّ أم على باطل، ولا يهمني حتى لو أصبح في حوزة الجرذان... يكفي أنني أعيش فيه، يكفي أنني أسكر، أعاشر النساء، يكفي أنني أرتدي ملابس ثمينة، يكفي أني أعيش لحظات بهيجة مع المال حتى لو جاء عن طريق الرشوة أو المكر والخداع... المال إن لم تسرقه أنت سيسرقه غيرك هكذا علمتني مهنتي كوزير... هؤلاء الموظفون البلجيكيون الصغار مساكين، إنهم شرفاء فعلاً، يتصورون أنهم يحافظون على المال العام فيحرموننا منه، وهم لا يعرفون أن هنالك مافيا في الأعلى تزدرد كل شيء، لا تنخدع بالمظاهر هنا الفساد

السياسي في أوروبا أكبر مما لدينا في العالم الثالث، إنهم عصابات كبيرة، من نحن بالنسبة لهم، لسنا سوى نشالين صغار. أما هم كبار حقاً، يسرقون في فوضى عظمى، جعلوا نظامها يتجاوز كل فهم...

* * *

كان جلال يرى الوزير في تلك الأيام وهو يمر مستعجلاً، في بعض الأحيان يريد أن يوهم الآخرين بأنه يقوم أو يخطط للانقلاب، وهذه المرة بمساعدة ساحرة معروفة في بلاده ولكن جلالاً لم يأخذ الأمر على نحو جاد، فقد كان يعتقد أن الوزير يستخدم كل شيء لصالحه، وهو يقوم بأشياء متعددة ليفهم الآخرين بخططه، كي يستطيع استغلالهم، فالتخطيط لانقلاب لا بد أن يكون سرياً، لا يمكن أن يكون أمر خطير مثل هذا الأمر حكاية تتداولها العاهرات في بلجيكا والشوفيرات والبحارة اللاجئون وكل العاملين في البارات... أمر لا يصدق حتماً... ومع ذلك ما بقي مع جلال، أو ما أراد أن يسأله عنه فعلاً هو هذه الفتاة الشابة من المغرب، والتي تحلق شعرها على الزيرو... فسأله عنها:

ـ رأيت أحمد... وقال لي إنك كنت مع هذه الفتاة المغربية؟

نظر إليه بصورة مستفهمة وقال له:

ـ وماذا قال لك؟

ـ لا شيء في الواقع سألته عنك لمَ لمْ تأت فقال لي إنك كنت ساهراً مع هذه الفتاة المغربية ولم يزد على هذا...

ـ لا أصدق... لا بد أنه قال لك شيئاً آخر...

ـ ولماذا تعتقد أنه لا بد أنه قال لي عنك شيئاً آخر... أؤكد لك أنه لم يقل أيّ شيء... لم يقل ما يشينك أو يعيب عليك...

ـ لأني أعرف كم هو حقود وحسود هذا الجيفة الوطنية...

ـ صدقني لم يقل شيئاً...

ـ لقد قلت لك عليك ألا تصدق هذا الدجال...

ـ حسن... وكيف كانت معك؟

ـ لقد كانت مهتمة بي اهتماماً كبيراً...

ـ شيء رائع...

ـ نعم كانت تضمني إليها بين وقت ووقت...

ـ أنا سعيد أن أسمع هذا...

ـ هل كنت مهتماً بها أنت الآخر...

ـ لا أبداً... ولكن أعجبني أن أسمع عنك أشياء رائعة...

ـ تعال إذن لنجلس في هذا البار أريد أن أشرب معك كأس بيرة وأشرح لك ما حدث بيننا...

* * *

كانا قد اقتربا من ساحة لويز، كان هنالك بار قريب، فجلسا في التيراس... طلب جلال له وللوزير. ثم أخذ يشرح لجلال الأمر بصوت متأثر جداً:

ـ أنا تعلقت بهذه الفتاة جداً...

ـ أشعر بهذا الأمر... وأحسه من وجهك وأنت تتكلم عنها...

ـ كانت أمسية عظيمة كلما كنت أجلب لها كأس الموخيتو كانت تقبلني...

ـ أوه يا لها من عاطفية!

ـ لا يمكنك أن تتخيل...

ـ يمكنني ذلك...

ـ ليس لأني قدمت لها كأساً مجاناً، إنما لأنها تجدها حجة لتعرفني على عاطفتها...

ـ أكيد!

ثم نظر إلى جلال بعينيه الذائبتين وقال:

ـ آه لو كنت تعرف، كم كان ملمسها رائعاً. كانت تشدّني إلى ثدييها الكبيرين، وكانت تعرف جيداً أنني كنت أتحسس حَلَمتيْها بلطف. وطيلة الوقت كنت أشمّ رائحتها العجيبة... في البداية لم أكن متأكداً تماماً، وبعد ذلك تعرَّفتها. فالرائحة السحرية المثيرة للشهوة كانت رائحة الحساء الإيطالي الذي أكلته قبل أن تأتي إلى البار، وقد ذكرني بعاهرة إيطالية كنت أغرمت بحبها أول شهر بعد أن توليت الوزارة في بلدي.

ثم صرخ وهو يرفع يديه إلى أعلى:

ـ يا للسماء! كم كانت تلك العاهرة الإيطالية ناعمة ودافئةً، لقد كانت دافئةً جداً. كانت تأكل الحساء الإيطالي... وهكذا حين اقتربت مني فتاة الأمس جاءني الإحساس ذاته، الإحساس الذي تركته فيَّ كان عميقاً جداً...

ـ أوه أرجوك لا تبكي... قال جلال له.

ـ كيف لا... وأنا من سنوات كنت أريد تكراره...

ـ أنت حصلت عليه أخيراً...

ـ حينما كانت تضمّني تجعلني رائحتها أشعر بالقوة. في ذلك الوقت اعتقدت أنها بريئة كل البراءة، وغير مدركة دوافعي وأثرها هي عليَّ. والآن

أنا على يقين أنها كانت تمتّع نفسها، وتتمتع بما كانت تتركه من أثر على وزير حسَّاس للغاية، ومتأثر تأثراً عميقاً وواضحاً.

- ...

- لقد تمنيت ألا يتوقف هذا أبداً، لقد ذكرتني بالأمس بعملي في الوزارة، لقد شعرت أن الانقلاب الآن أصبح ضرورة ملحة!

الأيام الأخيرة لبائع الأوهام

في الواقع لم يأخذ جلال الجملة الأخيرة من لقائه مع الوزير في البار ومن حديثه معه عن الصبية الجميلة من الأصل المغربي على نحو جدي مطلقاً، على الرغم من الدرجة العاطفية والحسية التي نطقها بها، ذلك أنهم اعتادوا على الوزير أن يقول جملاً شبيهة بهذه الجملة، وأن ينطقها بطريقته المؤثرة هذه، حتى من دون أن يكون لها أية حقيقة واقعية، بل من دون أن يشعر بها هو شخصياً، ما يهمه في واقع الأمر، هو تأثيره في الآخرين، تأثيره في محدثه كما أنه يهتم اهتماماً استثنائياً بما يقال عنه.

من جهة أخرى وعلى مدى المدة الطويلة التي عاش فيها في بروكسل، في لويز تحديداً، عرف الجميع أن الوزير يستخدم العديد من الألاعيب في التأثير على الناس وجلبهم لخدمته، كان الجميع يدرك أنه يستخدم فكرة الانقلاب وعودته وزيراً مرة أخرى ليوقع الآخرين في حبائله، كان يستغلهم بهذا الأمر أبشع استغلال، ومن الملاحظ أيضاً أنه الوزير المنفي الوحيد الذي استطاع أن يحيط نفسه بمجموعة كبيرة من الخدم العرب البسيطين، ومن الشوفيرات الذين يوصلونه بسياراتهم على حسابهم الخاص، ويقضون له كل مشاويره مجاناً، ومجموعة كبيرة من العاهرات اللواتي ينام معهن على حساب الوزارة القادمة، دون أن يدفع لهن سنتيماً واحداً، وهنالك في السوق عدد آخر من بائعي اللحم، والخضار من مواطنيه الذين يتبرعون له بما يشتهيه من لحم أو من فواكه... ذلك أن عودته ستكون قريبة... إنه

يخطط للعودة لا يهمه معِ اليسار مع اليمين... المهم أن يعود وزيراً مرة أخرى، وهنالك من يساعده، كما يدعي بطبيعة الأمر:

وزراء سابقون منكوبون مطرودون من بلدانهم قادرون على جلب مرتزقة من كل مكان، صناعيون أوروبيون ينظرون بشهوة لثروات البلاد، قوى دولية تتدخل عن طريق وسطاء، هو يقول إن بلجيكا هي التي تدعمه، وهنالك ما هو مهم، الساحرة التي تملك صولجاناً في بلاده، وهو يشرح لجلال مرة أن قوة عسكرية كبيرة أرادت اعتقالها، فحاصرت البيت وحين وصلت إلى الباب... الفرقة العسكرية كلها تراجعت وهربت... كل هذا وهو يمكنه أن يشرح لك نظريات الحداثة شرحاً وافياً... لأنه يعتقد أن هذه الأشياء يمكنها أن تتعايش مع بعضها... أن تتصالح... لأنه مسلم... مرة التفت إلى جلال وقال:

ـ لا يمكنك أن تفهم... نحن لدينا تراث كبير يمكنه أن يصالح الإنسان والحيوان... ألا ترى أن أوروبا لم تستطع ذلك فقضت على الحيوان... إذن لا تستغرب أن أؤمن بالاشتراكية العلمية وبالسحر في وقت واحد...

العودة

بعد أسبوع واحد فقط من هذا اللقاء بين جلال والوزير... مر جلال في مكتبة التروبيزم في غلاري دو لا رين، فوجد صحيفة القدس العربي التي تصدر في لندن وما إن قلبها حتى رأى صورة شخص يعرفه، موضوعة على خبر مهم، تبيّن الصورة فصاح: يا للهول، إنه الوزير، لكنها صورة قديمة من الواضح أنها من أيام وزارته الأولى، أما العنوان فقد كان صريحاً «بعد أربعة أعوام من المنفى المفكر الإسلامي ووزير الثقافة يعود إلى بلاده»!

لقد ارتبك جلال للخبر. هل سيعرف الأستاذ الآن الحقيقة كاملة من دونه؟

لقد عاد الوزير. اختفى المليون تماماً، وماذا عن الناس الذين وعدهم بعودتهم معه وخلاصهم من وضعهم؟ تخيل جلال لويز وهي فارغة الآن من جميع اللاجئين العرب، حيث كانوا يعيشون، من خدم في البارات، من باعة خضار وفواكه، من عاهرات، من شوفيرات... كلهم سيعودون معه، ستكون لويز فارغة من دونهم، والأكثر ربما سيرى جلال في يوم من الأيام أحمد البحار وأليكس الروسي في صورة رسمية إلى جانبه، على الرغم من كل التفاهات والحماقات التي عملاها معه، لكنهما لهما الفضل الأساس في تثبيت أسطورته، لقد خلقا منه نجماً... بل النجم الوحيد بين كل السياسيين المنكوبين الذين يعيشون هناك. فهذا الوزير هو الذي شهر حي السياسيين المنكوبين، ولولا أحمد البحار وأليكس الروسي كان الوزير قد انطمر ربما مثل غيره...

* * *

صعد جلال المترو وذهب ملهوفاً إلى حي السياسيين المنكوبين، كان يبحث عن أيّ خبر أو أيّ معلومة حول مصير هؤلاء الذين كانوا يخدمونه فيما مضى. وكانت مفاجأته كبيرة، حين رأى كل العرب الذين كانوا يخدمون الوزير في أماكنهم. بل أنكروا أنهم كانوا يقدمون له أية خدمة!

المعلومة المحزنة الوحيدة أن أليكس في السجن بسبب حادث اعتداء، أما البحار فإنه في البار ذاته الذي اعتاد أن يجلس فيه... كان حزيناً، مهموماً...

ـ إذن لم يأخذك معه...

ـ لم يتصل بي ولم يقل لي كلمة...

ـ لمَ لمْ تتصل به...

ـ فعلت ولكنه... لا يجيب...

ـ ...

ـ الشخص الوحيد الذي أخذه معه هو الصبية المغربية هل تتذكرها؟!

الفصل العاشر:

نهاية العربي الحزينة في الروليت الروسي

من أوراق جلال

الورقة X

شيء لم أفهمه، انبسط أمامي وأنا أقلبك ذات اليمين وذات الشمال،

جمجمتك مسحوقة برصاصة،

ومع الدم تتسرب من رأسك الخيول،

الدولارات، التوقد الخاص بك، الحب،

أقوال ماركس، ضحكتك، الحب، الكذب...

وأشياء كثيرة أخرى لم أتبينها وسط الضوضاء.

العذاب الفظيع الذي داهمني والذي جعلني أتألّم أكثر هو أنني لم أستطع الصراخ.

جلال

استيقظ جلال من النوم في الساعة التاسعة صباحاً. دخل إلى المطبخ ليعد قهوته. جلس إلى الطاولة ذات الفورميكة الحمراء، بعد أن أخرج قطعة من الجبنة الغودا وقليلاً من الزيتون والخبز الأسمر. وضعها في صحن بورسلين ووضعه أمامه. نهض وغيّر إشارة المذياع على موسيقى الصباح في أف. أم. كانت عيناه شبه مغمضتن بسبب السهر في الليلة الفائتة.

لم يكن المليون هو الشيء الوحيد الذي يتأسى عليه في ذلك اليوم، إنما شعوره أنه مضطر لمتابعة حياته بفضل الصبر الذي تعود عليه. وقد شعر في ذلك اليوم أنه من الضروري جداً الاتصال بالأستاذ... ذلك أن صدمة المليون لا بد أن يكون قد استوعبها، فقصة عودة الوزير أصبحت شائعة على كل لسان، كما أنه من الضروري أن يعرف أيضاً أن جلالاً لم يخنه، إنما كان خائفاً عليه فقط.

* * *

لم يكن جلال يعلم أن الأستاذ على شفير الهاوية، وأن دويّ الموت ينهش أحشاءه، كان يتصور أن الأمر، أمر المليون، لن يعدو أن يكون حكاية للتندر أو السخرية، هي رؤيتهما للأشياء بصورة بريئة. ربما سيضحكان من أنفسهما، ربما سيقولان إن الأمر لا يعدو أن يكون هنا مزحة، مزحة جلبت لهما أوهاماً كبيرة، وأن الوزير المخلوع هو بائع أوهام لا أكثر... وفي النهاية إن الكذابين هم الذين سيحصلون على كل شيء...

مدّ جلال يده إلى التلفون ورنّ على هاتف الأستاذ... بقي التلفون يرنّ ويرنّ دون أن يجيبه أحد.

- لمَ لا يجيب هل حدث له شيء. وعلاقته بدلال هل ساءت إلى هذا الحد؟

تناول قطعة الخبز والجبنة ووضعها في فمه. شعر بأنه ليس على ما يرام. شعر بالحزن الشديد بسبب هذه القصة الوهمية التي خلقت شرخاً بعلاقته مع الأستاذ. مع أنه لم يكن قاصداً إيذاءه أبداً، إنما على العكس خشي عليه من الصدمة، لقد خشي عليه أن يواجهه بحقيقة أن المليون المنتظر هو مليون مزور وأن الوزير مخادع كبير، وأنهما لن يحصلا في هذه العملية إلا على الأوهام. ولكن علاقة الأستاذ بدلال قد ساءت إلى حد كبير، وأصبحت تحوم حولها الشبهات، وأن الحديث عن خيانتها للأستاذ مع رباح قد أصبحت على كل لسان، وقد فاقم هذا الوضع حياته غير المستقرة بسبب عدم حصوله على أوراق رسمية تخوله البقاء في أوروبا، وشعوره بالنبذ والإقصاء من كل الذين عرفهم، وشعوره بالحظ السيئ لأنه الوحيد من كل رفاقه لم يحصل على لجوء، والشيء الثالث هو عدم قدرته على العودة إلى بلده كونه مسيحياً هارباً من جحيم المتطرفين الإسلاميين في العراق. حينها شعر أن السبل جميع السبل سدت أمامه، القشة الوحيدة القادرة على إنقاذه وسط كل هذه الأمواج المتلاطمة هو المليون.

حاول جلال أن يتصل مرة أخرى بالأستاذ، رنّ الهاتف. أخذ يرنّ، يرنّ، يرنّ دون أن يجيب أحد.

نهض من مكانه وذهب إلى الصالة، فتح الستارة بهدوء شديد ونظر بإمعان إلى الشارع، كانت السماء غائمة في بروكسل، والسيارات تسير ببطء بسبب الازدحام. تناول سيجارة من علبة الغلواز التي في يده، أشعلها

وأطلق الدخان في الهواء. تراجع قليلاً حتى وصل إلى الطاولة في منتصف الصالة، كانت هنالك مجموعة من المجلات والصحف ومظاريف الرسائل من البلدية، أشياء قديمة كثيرة، أوراق، فواتير الكهرباء والماء والتلفون... وأشياء متعددة، كتاب باللغة العربية منزوع الغلاف، منفضة سجائر، دفتر تلفونات قديم... وزهرية من دون ورود. على الكنبة إيشارب لأداليد تركته عنده ليتذكرها دائماً وهو بعيد عنها.

أخرج التلفون من جيبه واتصل بأداليد.

ـ أداليد!

ـ جلال هل أنت بخير؟

ـ بخير، بخير وأنت...

ـ لا بأس... صوتك خافت لماذا... هل أنت حزين؟

ـ قليلاً!

ـ لماذا؟

ـ أسباب عديدة...

ـ قل لي سبباً من هذه الأسباب...

ـ لا ينفع أن أقوله في التلفون...

ـ إن كنت لا تستطيع الكلام الآن... يمكنك أن تتصل في وقت آخر.

ـ لا ينفع في التلفون!

ـ ماذا تقترح...؟

ـ أقترح أن نلتقي...

ـ حسن، لنلتقِ...

ـ متى عندك وقت مناسب؟

ـ بكرة سأكون في بروكسل...

ـ طيب هل يمكنك أن تأتي إليَّ وتبيتي إلى الغد؟

ـ طيب... موافقة سأجلب ملابس معي كي أبيت عندك.

ـ نلتقي في الأول في بار ثم نذهب سوية...

ـ أوكيه...

ـ يمكننا أن نلتقي في بار كافكا... هل تعرفينه...؟

ـ أعرفه جيداً...

ـ طيب نلتقي هناك... نشرب كأساً ونتحدث ثم نذهب معاً إلى المنزل...

ـ طيب...

ـ ...

ـ اسمع جلال أنا سعيدة جداً لهذه المكالمة وسعيدة لأني سأكون معك في يوم غد...

ـ أنا أيضاً...

ـ ولكني قلقة عليك... صوتك... الخفيض، وحزنك... هل هنالك أمر مهم يمكنك أن تحدثني به...

ـ هل أنت مستعجلة...

ـ طبعاً... قلقت عليك فقط...

ـ الأمر لا يخصني بشكل مباشر...

ـ يخص من...؟

ـ يخص صديقاً لي...

ـ صديقك المسيحي من العراق...؟

ـ بالضبط...

ـ ما به...؟

ـ الأمر شديد التعقيد لنترك كل شيء إلى الغد...

ـ حسن طمنتني عليك... كنت تصورت أن الأمر يخصك...

ـ وهو يخصني أيضاً...

ـ حسن لنتحدث غداً...

ـ موافق...

ـ أبيانتو...

ـ أبيانتو...

الأستاذ

في ذلك الوقت كان الأستاذ ممدداً في الفراش، في يده سيجارة ويدخن. كان التلفون إلى جانبه وهو يرنّ، وعلى شاشته يقرأ اسم جلال، لم يمد له يده... ترك التلفون يرنّ حتى صمت. لم تكن لديه أية رغبة بالحديث معه، لم يكن معنياً بما يريده جلال أو بما يقوله، لم يعد يعنيه أيّ شيء. شعور غريب. شيء من الحزن والألم، لكن هنالك سكون في داخله، صفاء عجيب. لم يعد أيّ شيء على هذه الأرض يستحق اهتمامه.

كان يشعر في ذلك اليوم أنه في الرمق الأخير من الحياة، يشعر مثلما يشعر قبطان هو يتفادى الوقوع في البحر.

ـ يا لي من غبي! قالها بصوت مسموع وهو يفكر بدلال. وجهه مصفر تماماً، من يومين لم يتناول أيّ شيء، كان يعيش على شيئين فقط الماء والسجائر.

* * *

يوم مشرق، لا يكترث. عاد من جولة مبكرة. فهو لم يعد يحب الذهاب إلى الأماكن التي يذهب إليها في العادة اللاجئون الذين يعرفهم. الشوارع مزدحمة في هذا اليوم. كان بوسعه أن يسمع بائع الصحف وهو يعلن وصول أكداس الجرائد. اجتاز عدداً من الرجال الواقفين أمام دائرة الضمان وهم يتكلمون بحماسة عن الكلاب. كان أغلبهم يرتدون جاكيتات سوداء

ويضعون في أكف قمصانهم الدبابيس. في الشارع هنالك مزيج متنافر للموسيقى. بعض الرجال والنساء يتمايلون على أنغامها. مرت أمامه امرأة جميلة ترتدي ملابس مغرية، لم يعد يكترث بأحد. لحيته من يومين لم يحلقها. شعره متنافر، وملابسه لم يغيرها من يومين أيضاً، كان ينام بالبنطال الجينز نفسه، والقميص الأحمر ذاته.

* * *

قرر اليوم الذهاب إلى بار الزعران الروس. يوم سبت. في المساء بعد الساعة الثانية عشرة ستكون في قبو البار لعبة الروليت الروسية.

فلاديمير هو الذي يلعبها، كالعادة. وقد أعجب الأستاذ كثيراً بفلاديمير وهو معصوب العينين، يطلق على نفسه بالمسدس، إلا أنه ينجو من الموت مرة بعد مرة. شعور غريب ينتابه من أيام، وهو يتذكر فلاديمير الجالس على كرسي وقد سلطت الأضواء عليه، وقد تعالت أصوات الزبائن الذين يتراهنون ويلقون بالأموال على المسرح، وهم يشربون الفودكا بأكواب كبيرة. بينما يقف إلى جانبه رجل غليظ أصلع، وهو يضع رصاصة واحدة في بكرة المسدس، ثم يدور البكرة بسرعة، ويناوله لفلاديمير الذي يصوبه إلى رأسه ويطلق، إلا أن الإبرة تأتي في الساقية الفارغة للمسدس، وهكذا ينجو فلاديمير من الموت بينما تذهب الأموال الكثيرة تحت قدميه التي رماها زبائن البار إلى جيبه.

لِمَ لا يجرب هو هذه اللعبة أيضاً. قال الأستاذ بفرح هذه المرة. كأنه وجد الحل المناسب لعذابه.

هل يريد الانتحار؟ هل يريد مغادرة الحياة؟

لا، ولكنه ربما ينجو أيضاً. ربما سيلعب الحظ هذه المرة دورة معكوسة

وسينجو من الموت، وتذهب أموال كبيرة بحوزته، وهي الطريقة الوحيدة التي ستجعل دلال تحبه.

إنه بحاجة إلى حدث كبير في الخارج كي يخفف الألم الداخلي الذي يشعر به. بحاجة إلى أشياء عنيفة خارج روتينه اليومي، وتفكيره المملّ بالحياة، بحياته التي تحولت إلى بركة آسنة مع دلال، لمَ لا يلعب هذه اللعبة، فهي وحدها التي ستعيد له توازنه، صحيح أن الناس الأسوياء الذين يعيشون حياة عادية يستنكرونها، ولكن الناس الذين مثله يشتاقونها، فحياته غير عادية، حياته ليست كحياة الآخرين، وهكذا لا بد أن تكون هذه اللعبة قد خلقت لأناس من أمثاله، لا وجود لشيء خلق من عبث في هذه الحياة... هذه اللعبة، لعبة الروليت الروسية هي لعبته وهو خلق من أجلها، وهي خلقت من أجله.

* * *

سار في الطريق إلى بار الزعران. كانت المدينة صاخبة في الويك أيند، العشاق يقبلون بعضهم في ساحات بروكسل، يتمايلون من الحب، بينما أخذ هو يراقب شفاهم وهي تلتحم ببعضها، ولكنهم غير مكترثين به. هنالك بعض الأشخاص يتهامسون فيما بينهم، يتظاهر أحدهم باللاأبالية محرّكاً يديه بطريقة لا تخفى على أحد. فجأة تذكر أنه نسي علبة سجائره في المنزل، فأخذ يبحث عن محل لبيع السجائر. توقف عند المحل الذي يقع قرب مطعم فريت بلج، ليشتري علبة قبل ذهابه للبار.

ـ هل لديك سجائر مالربورو... سأل البائع الباكستاني.

أومأ البائع برأسه لا... ثم عقب:

ـ لدينا سجائر وينستون رفيعة.

ـ أعطني علبة.

رفع مؤخرته عن المقعد الجلدي، وتقدم نحو الخزانة أخرج علبة وناولها له. أخرج الأستاذ من جيبه أوروات وعدها على الطاولة:

ـ ست أوروات... أليس كذلك؟

ـ لا سبعة...

ـ لماذا؟ قال الأستاذ محتجاً.

ـ هذا هو سعره!

ـ أنا اشتريتها بالأمس بستة.

ـ اذهب إلى من اشتريت منه وخذها بستة... أما هنا فهي بسبعة...

البائع الباكستاني يتكلم قليلاً ولا تتحرك عضلة واحدة في وجهه. لا تعرف إن كان راضياً أم غاضباً، قال الأستاذ في نفسه.

ناوله سبعة أوروات... فأخذها البائع ووضعها في جيب جاكيته الخضراء. جاكيت قبيحة جداً لم ير شبيهاً بمثلها في بلجيكا أبداً. في تلك اللحظة نزل ابن البولونية من سيارة ألفا روميو كان يقودها، واختفى في الظلام الرطب، الذي يتخلله صوت مطربة سوداء نشاز، تغني كما لو كانت تسعل.

ـ ربما هذه سيارة عشيق أمه الجديد. من يعلم؟

الأستاذ وحيد في هذا اليوم، لا يطيق صحبة الصمت. يسير من عند حاوية الزبالة، كلب شارد يطوف بحثاً عن فضلات الطعام. القطط والصراصير تغيب اليوم عن المشهد. يشعر بأن العالم قبيح، ملامحه الغبية هي التي منعته عن فهمه. تكاد عيناه تدمعان من الضجر، يسود فمه طعم معجون

الأسنان. ينظر إلى حذائه الجديد، يدخن ثلاث سجائر فيصاب بإعياء شديد يتدفق مثل موجة على مهل. ينصرف الضجر ويحل محله القلق. ينظر إلى الأشياء بلا جدوى، يجتاح أذنيه طنين معدنيّ لا يوصف، بروكسل تضج بهذه الأصوات، ولا يعرف لها معنى، يشعر أنه ضائع في هذا اليوم، ومنبوذ وحده يقاوم الريح.

أما العالم فكله متشابه مثل حاويات الزبالة.

دلال

ـ ليت الكارثة مرّت هكذا. قالت دلال وهي تنظر إلى وجهها في المرآة. الشحوب بدأ يتسلل إلى وجهها. عيناها الكبيرتان متعبتان. الشعر لفته بربطة حمراء أكثر من مرة وهدته. شدته وحلته. لم تعد قادرة على رؤية وجهها بهذه الطريقة. شعرت في داخلها بأن كارثة ما، كارثة كبيرة آتية على موعدها. وهي من تجارب حياتها في سوريا تعرف جيداً، أن الكوارث تصل في وقتها، السعادة تتأخر كثيراً، وربما لا تأتي أبداً، لكن الكوارث لا تصل متأخرةً.

لقد تذكّرت أن عليها الذهاب إلى الدرس، وعليها أن تطلب من الأستاذ أن يأتي كي يبقى مع الطفلة. وهي ترفع التلفون شعرت بنبضات قلبها وهي تسرع. لقد اختنقت بمشاعر غامضة، مزيج من الخوف والارتباك والخجل. لم تعد قادرة على التركيز، لم تعد تجد في فكرها أية جملة واضحة. لقد دخلت في نوع من المناورات الخاسرة. من أيام وهي تفكر وتفكر، حتى أصابها شدة تفكيرها بالأستاذ بالغم. لقد شعرت أن هذه العلاقة قد استنفدت وقتها تماماً، وصلت إلى حدها الأقصى، ولم تعد قادرة على البقاء معه. ولكن المشكلة كيف تواجهه بهذه الصراحة؟

هذه هي أكبر التحديات التي واجهتها دلال في تلك الفترة.

في الواقع، لم تعد لدلال القدرة على مواجهته ومصارحته بتبدل مشاعرها نحوه. أو الكلام عن هذا الأمر بصورة واضحة. كما وأن هنالك نذير

شؤم قادم في الأيام المقبلة هذا ما شعرت به حينها. لكنّ الأمل لم يغادرها، وشعرت أن قوة مستترة في داخلها سوف تسدّد خطاها، وتقودها إلى حيث تكون آمنة.

* * *

أشعلت سيجارة روثمان خفيفة، أخرجتها من العلبة الموضوعة على الطاولة وأخذت تدخن. لحظات من الصمت ثم ارتبكت الأسئلة في ذهنها، وبينما كانت تنكت سيجارتها بعناية في المنفضة. لم تكن تفطن للنبرة الجدية لهذه المدينة التي تعيش فيها.

لقد وجدت نفسها مقتحمة بهذه العلاقة الجديدة، علاقتها مع رباح. ولم تكن ترغب في الحقيقة بجرح الأستاذ. لقد بدت أمامه متلعثمة، مرتبكة، لقد حاولت أن تتجاوز هذه التهم الساقطة التي هجمت على حياتها. ولكن من دون جدوى. كانت تفضل أن يقولوا عنها أيّ شيء سوى أنها خائنة:

زعيمة عصابة، تاجرة حشيش... أيّ شيء...

* * *

هل كانت قاسية معه؟

في الواقع، لا يمكن لدلال أن تجلس إلى الطاولة في منزلها من دون التفكير به، وجهها المرهق بفعل تواجدها وحيدة يوم السبت الشبيه بكل الأيام التي استهلكت سعادتها. شعرت بأن لا مجال لتفادي الخسارة، هذا ما لا يفهمه العديدون. إنها شريكته في هذه. كأقوى شريك في لعبة بوكر خاسرة، ليس إلا.

ابنتها في تلك الساعة ما زالت نائمة. أما هي فتذهب وتجيء في المنزل

من دون أن تعرف ماذا تفعل. هي تريد مواجهته صراحة، أن تقول له انتهى بيننا كل شيء، وتساعده على نسيانها، شرط ألا يحملها أيّ وزر، وأن لا يحمل عليها أية ضغينة، ولا تكون لديه منها أية مرارة. عندها سترتاح، ستشعر بسعادة كبيرة، تشعر أن عذاب الضمير قد خف إلى حد كبير.

* * *

وضعت دلال فنجان القهوة على الطاولة، وجلست شاعرة بتعب كبير يتسرب في كل أنحاء جسدها، كانت معذبة بأفكار الانفصال والتي استهلتها قبل شهرين. حتّى لم تعد قادرة على التفكير، لم تعد قادرة على فعل أيّ شيء، لقد تخيلت هذا المشهد، مشهد الانفصال، آلاف المرات، دون أن تستطيع تجاوزه. من دون شك، إن الجميع، جميع الذين يعرفونهما، كانوا يعتقدون أنها سعيدة في هذا الوضع. إنها هي التي قررت تركه، أو قتله، إنها خائنة، إنها بليدة، دون أن يعرف أحد منهم أنها كانت تخوض حرباً صليبية خاصة بها ضد نفسها. دون أن يعلم أحد بذلك. دون أن تكون لها الجرأة لإخبار أيّ شخص بذلك.

لقد كررت خلال شهرين ذهابها إلى المصحة النفسية، حتى ملّت المعالجة النفسية منها. لم تكن تعرف ماذا تفعل. لقد قطعت علاقتها بجميع المقرّبن منها، وانتهت بالشجار مع الجميع حتى مع أشباحها. كان الحزن يغرقها. كانت تشعر أنها تعيش في نوع من الغياب والفتور معاً. وهنالك إشاعات في كل مكان ضدها. كما لو كانت قد ارتكبت الفظاعات كلها، كأنها ارتكبت أشياء في غاية الخطورة.

أما بالنسبة لها فالأمر برمته هو خطأ في التوقيت. ذلك أن علاقتها بالأستاذ قد انتهت فعلياً، وكان عليها أن تخبره بذلك قبل أن تشرع في علاقة

جديدة. لكنها استعجلت. فتحولت علاقتها برباح فيما بعد إلى كارثة، لقد نعتوها بالبائسة والشريرة، ولم يعد يرغب في لقائها أحد. وهي الطفلة التي لا تعرف كيف تتفادى كل هذا من دون إيذاء أحد.

* * *

كانت قصتها مع الأستاذ هي القصة الوحيدة التي جعلت لحياتها معنى. لكن الأمر مثل أيّ شيء في الحياة له أمد، له عمر، لقد شعرت أن هذه القصة انتهى عمرها، هذا ما لا يدركه الآخرون لذلك فهم لا يتسامحون معها، ويغرقونها في الإشاعات البشعة. هذه الإشاعات الحقيرة تكاد أن تخرجها عن طورها، إنها تنفجر في بعض الأحيان ضد الجميع فتفرغ كل ما تراكم في صدرها من شتائم ضدهم. إنها تنطلق بسرعة البرق كي تقول بوضوح وعزيمة: كفى.

لقد دمترم حياتي بإشاعاتكم. أنتم دميمون. طباعكم نتنة.

ليس من حقكم أن تعذبوني بقصصكم التافهة. أنا لا أحتملكم. أنتم تعذبونني.

* * *

لكن هذه الإشاعات هي تسلية المهاجرين واللاجئين الوحيدة. إنها عالمهم. فلا هم من هذا البلد ولا من ذلك البلد. إنهم يعيشون ويتنفسون في طنّ من الإشاعات. إنها بلدهم الحقيقي. كما أن المعركة ضد الإشاعات معركة خاسرة... فهي مثل الزومبي كلما تقتل واحدةً وترتاح، تخرج لك من القبور مئة.

الروليت الروسية أو لعبة الموت

شعر الأستاذ في ذلك اليوم أنه وسط متاهة كبيرة لا نهاية لها...

جلس على الكرسي مقابل الزبائن. عكس الضوء. الزبائن الروس كلهم أمامه، يرونه ولا يراهم. تقدم الأصلع وصاح بالجمهور الصاخب أن يسكتوا، قال لهم هذا متسابق جديد يجلس اليوم على كرسي بجوار كرسي فلاديمير، وأشر عليه. ابتسم الأستاذ حينما صرخ الجمهور منتشياً بهذه الإثارة الجديدة. أخذ قلبه يخفق بقوة وعيناه دمعتا من الرغبة. كشف الأصلع عن المسدس بعد فتح بكرته الفارغة للجمهور. أدخل رصاصة واحدة في الساقية وأغلقه. ثم تقدمت فتاتان شبه عاريتين، واحدة تقدمت من فلاديمير والأخرى من الأستاذ، وقد عصبتا عيني الاثنين بعصابتين سوداوين.

طلب الأصلع من المتراهنين أن يبدؤوا. تم ناول فلاديمير المسدس، أمسكه فلاديمير بيده وصوبه إلى صدغه، تصاعدت أصوات المتراهنين ولم يعد أحد يسمع شيئاً، وحينما ضغط الزناد ازدادت الإثارة كثيراً، تصاعد الصياح بصورة مجنونة: اضرب، اضرب.

صمت قليل، ثم دارت البكرة وسمعت تكة المسدس، فقد نجا.

ازداد الصراخ علوّاً، وأخذ الرابحون يقبضون أموالهم، بينما أخذ الأصلع المسدس من يد فلاديمير ثم أخرج الرصاصة ليريها إلى الجمهور الذي يحمل النقود الورقية بيده ويقبض الرهانات، أعاد الأصلع الرصاصة إلى المسدس دوّر البكرة وناوله للأستاذ.

أمسك الأستاذ المسدس بيده ببطء شديد ورفعه نحو رأسه، ثم صوب فوهة المسدس إلى صدغه. ولم يعد يسمع سوى أصوات المتراهنين في البار.

كانت دلال في تلك الساعة في شقتها، كانت تحمل المكواة في يدها وتكوي قميصها. خلفها الحائط الأبيض لا تعتليه أيّ لوحة، سوى تقويم حصلت عليه من الكنيسة. صورة باهتة لراهب يقف بجانب نخلة في عيد الفصح.

جلال في تلك اللحظة يشعر أنه في الجحيم. جحيم مكوّنٌ من صرخات، لا يستطيع فكّ طلاسمها، أضواء سيارات تصل لتوّها باتجاه شقته، ما يثقب دماغه في هذه اللحظات هو صراخ الخوف.

* * *

لا بد أن الأستاذ قد فكر في تلك اللحظات بدلال، كما أنه فكر بجلال أيضاً. فكر بالريح التي تعصف خارج تلك المتاهة التي وجد نفسه فيها. لا بد أنه فكر بالذين عصبوا له عينيه وأداروا بكرة المسدس. لقد شعر كما لو أن الجليد قد ابتلعه. كانت رؤيته معدومة لكن هناك مجموعة من الأطياف الضوئية الغليظة تصل إلى عينيه. يتظاهر هو بالبلادة، ملامحه باردة كي يواجه المتراهنين ببرود شديد، ببرود له معنى واحد: العبث.

الأصلع الضخم الذي يشبه فرس البحر يطلب من الجميع السكوت. حيث يضغط الأستاذ على الزناد ببطء، فتدور البكرة قليلاً، فتصعد أصوات المتراهنين: اضرب... اضرب.

ثوانٍ فقط فينفجر صوت الإطلاقة.

يسقط الأستاذ من الكرسي. بينما يرش الدم المساحة البيضاء التي خلفه.

* * *

ينكفئ على جنبه الأيمن. ينسلّ خيط من الدم من فمه المفتوح. الأصوات تتصاعد حتى تغطي على كل شيء. شعور بالراحة والهدوء يجتاح الجثة. إنه لا يجيب أحداً. ساقه ما زالت ترتجف. وهو لا يقوى على بلع ريقه. لا يرى المتراهنون في تقاسيم هذا الشابّ سوى سكرة الموت والمال الذي فقدوه من رهانهم عليه.

ماذا تبقى

هذه قصة أصحابي الذين تعرفت إليهم أول ذهابي إلى بلجيكا لاجئاً، وتقاسمت معهم لحظات لا تنسى. ولكن هنالك شيء من المرح والكثير من التراجيديا في حياتهم خلقتها الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العالم العربي وفي أوروبا معاً. جورج، الذي يلقبونه بالأستاذ قضى في لعبة الموت في بار الزعران الروس، دلال انهارت حياتها بعد أن سمعت بالخبر، ودخلت إلى المصحة النفسية، بعد أن أودعت طفلتها لدى جلال وأداليد، وأصبحت أشبه بالمجنونة لشعورها بعذاب الضمير من أنها هي التي كانت مسؤولة عن مقتله.

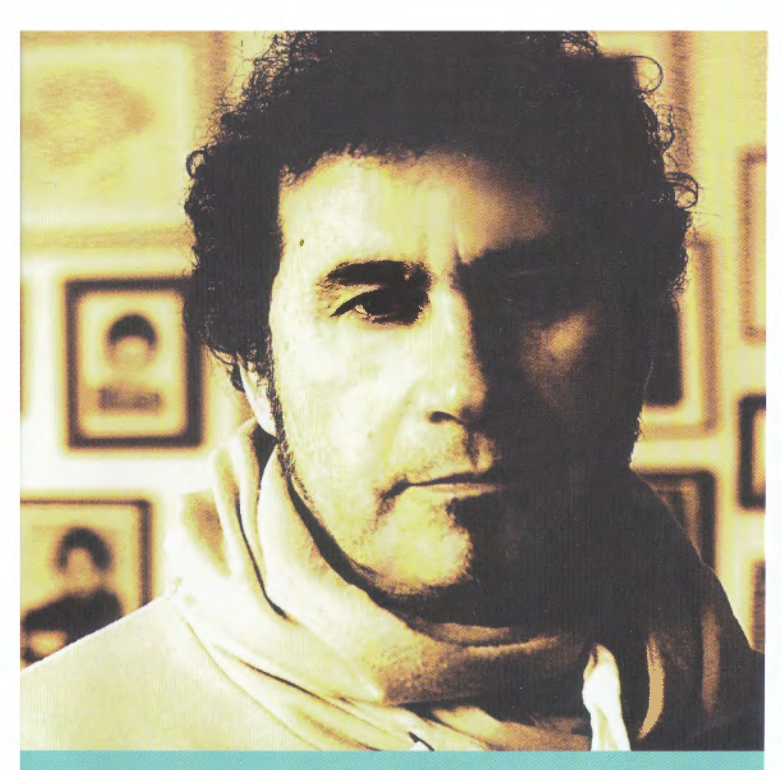
أما جلال فقد طلب مني أن أقرأ بعض قصائده التي كتبها عن الأستاذ، وكنا اتفقنا أن نلتقي قريباً، ولكنه ذهب في زيارة للعراق بعد أن حصل على الجنسية البلجيكية، ولم أعرف إلا بعد ثلاثة أشهر أنه قضى هو الآخر في تفجير الكرادة الذي أودى بحياة حوالي 300 شاب بعمل إرهابي.

سنوات وأنا أرى أداليد وقد تحولت إلى العمل الطوعي لمساعدة اللاجئين، وكأن الكوارث تغير من حياة الناس... وتحرف كل اتجاهاتهم. مقولة ربما قالها ماركس، ولو كان الأستاذ حياً لقال نعم قالها ماركس، وشرف أختي قالها ماركس.

بروكسل، سان أيدن

كوليج، بيروت

الفهرس



علي بدر روائي عراقي من جيل ما بعد الحرب في العراق، حصل على العديد من الجوائز، وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، صدر له:

بابا سارتر 2001، شتاء العائلة 2002، صخب ونساء وكاتب مغمور 2003، الوليمة العارية 2004، الطريق إلى تل مطران 2005، لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي 2006، مصابيح أورشليم 2007، حارس التبغ 2008، ملوك الرمال 2009، الجريمة الفن وقاموس بغداد 2010، أساتذة الوهم 2011، الكافرة 2015، عازف الغيوم 2016.

تدور أحداث هذه الرواية في لويز، أو حارة السياسيين المنكوبين، وهي منطقة راقية في بروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبي. أصبحت منذ الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي مأوى للسياسيين المنكوبين. وهم السياسيون الذين تطيح بهم الانقلابات العسكرية، أو الثورات الشعبية، أو الانتفاضات المسلحة التي تحدث غالباً في العالم الثالث، فيأتون للسكن في لويز، حيث تقوم شركات متخصصة بنقل ما يسرقونه من أموال من بلدانهم وجلبها لهم، ليعيشوا عيشة باذخة.

بعد الثورات العربية أصبحت لويز مأوى للسياسيين والوزراء العرب المخلوعين، حيث قامت شركات خاصة بتهريب ما سرقوه من أموال ونقلتها إليهم في هذه المدينة الجميلة، ومنهم أحد الوزراء العرب الذي سرق مليون دولار من خزينة الدولة في يوم هربه، فصادف شابين لاجئين حاولا خداعه والاستيلاء على المليون من أجل توزيعه على اللاجئين في سوريا والعراق ليتحولا من لاجئين إلى بطلين. هل تنجح عمليتهما؟

رواية ساخرة، حافلة بالأحداث والمفارقات، أبطالها مرحون، يعيشون على أرض زلقة. فهنالك جلال المثقف الذي يرافق المافيات الروسية، جورج الملقب بالاستاذ والذي يستشهد بكل حدث من الأحداث بماركس، دلال الهاربة من بلدها بعد أن حملت من صاحب خمارة بعمر أبيها، الوزير المخلوع الذي يتحول من جهة سياسية إلى أخرى ليعود إلى بلاده ثانية وزيراً.

تنشغل هذه الرواية بطرح أسئلة كبيرة: هل التغيير السياسي في العالم العربي يؤدي إلى الحريات. وماذا عن الطبقة الرثة المناوئة للتنوير، والتي تتبنى التغيير القادم؟


ISBN 978-1-7732228-5-1